فرنسس وود

ماركو بولو
هل وصل إلى الصين؟



د ضل جنكر

مر ادمى

ماركو بولو: هل وصل الى الصين؟

المؤلف: فرنسيس وُود
عنوان الكتاب: ماركو بولو: هل وصل إلى الصين؟
ترجمة: فاضل جتكر
مراجعة: زياد منى
تصميم الغلاف: نبيل المالح
تنفيذ الغلاف: سامي أرناؤوط
التنضيد: مؤسسة سندباد
الطبعة الأولى: 1999

قَدْمُس للنشر والتوزيع
سورية - دمشق - ص.ب: 6177
هاتف: 9836 222 (11-963+)
فاكس: 7226 224 (11-963+)
بريد إليكتروني: cadmus@net.sy

فْرَنْسِس وُود

ماركو بولو

هل وصل إلى الصين؟

ترجمة: فاضل جتكر

مراجعة: زياد منى

FRANCES WOOD

Did Marco Polo Go to China

NOTE ON THE TEXT

I have decided to retain the spelling, punctuation, errors and oddities of the original register keepers, journal writers, etc., especially in the transcription of medieval French and Latin, for which correction would be inappropriate.

Published in 1996 in the United States of America by Westview Press, 5500 Central Avenue, Boulder, Colorado 80301-2877.

First published in Great Britain in 1995 by Martin Secker; Warburg Limited, an imprint of Reed Books Limited, Michelin House, 81 Fulham Road, London SW3 6RB and Auckland, Melbourne, Singapore and Toronto.

A CIP catalog record for this book is available from the Library of Congress.

ISBN 0-8133-8998-4 (cloth)

The paper used in this publication meets the requirements of the American National Standard for Permanence of Paper for Printed Library Materials z39.48-i984.

المحتويات

بحيرة بيقال
نهر الفولغا
نهر الأورال
منغوليا
نهر الدانوب
قره قرم
بحيرة آرال
بحيرة بلكش
صحراء غوبي
إيطاليا
البحر الأسود
كورشولا
البندقية
القسطنطينية
روما
بحر قزوين
النهر الأصفر
دُن هوبانغ
سمرقند
بكين
شهرود
فوتان
أفغانستان
بكتريس
التيبت
البحر الأبيض المتوسط
الإسكندرية
القدس
بغداد
هانغجو
فوجو
البتراء
كوانجو
مصر
مانغي
إقليم يونان
بورما
جزيرة العرب
الهند
نهر النيل
بحر العرب
سيلان
المحيط الهندي
جزيرة جاوة
سور الصين العظيم
رسم: زياد منى

الشكل ١

كلمة من الناشر عن الكتاب والترجمة

سيلاحظ القارئ أننا قمنا، بعد أخذ موافقة المؤلفة المالكة لحقوق الطبعة الإنجليزية، بإثراء الكتاب ببعض المقالات غير الموجودة في النسخة الإنجليزية الأصلية. وقد ارتأينا ضرورة عمل ذلك لسببين رئيسين: أولهما أننا عثرنا في تلك المقالات على شرح لبعض جوانب العمل الهامة تفيد القارئ غير المتخصص. أما الثاني فهو إيضاح أن الكاتبة لا تقف وحدها في هذا الرأي رغم الحملة العنيفة التي تعرضت لها من قبل زملاء لها، وأن مادة هذا الكتاب لا تدخل في باب الإثارة، وإنما تقف على أرضية معرفية صلبة، وهو ما دفعنا لاختياره لنفتتح به منشورات الدار.

من ناحية أخرى، آخذين بعين الاعتبار أن جميع المراجع التي وظفتها الكاتبة غير متوافرة باللغة العربية، فقد قررنا إبقاء الهوامش بلغتها الأصلية لأن القارئ الملم بلغاتها لن يجد صعوبة في قراءتها، ولم نقم بترجمة إلا تلك التي تساعد على فهم النص.

1) جنكيز خان
(توفي في ١٢٢٧م)

يوتشي (توفي في ١٢٢٧م)
تشاغاتاي (توفي في ١٢٤٢م)
2) أوغدي (حكم بين عامي ١٢٢٩م و ١٢٤١م)
طولوي (توفي في ١٢٣٣م)

بوركه (حكم من ١٢٥٧م إلى ١٢٦٧م)
باتو (توفي في ١٢٢٥م)
(خاني الجحفل الذهبي)
3) غويوغ (حكم من ١٢٤٦م إلى ١٢٤٨م)

4) مونجكة (حكم من ١٢٥١م إلى ١٢٥٩م)
5) قوبيلاي (حكم من ١٢٦٠م إلى ١٢٩٤م)
(امبراطور يوان في الصين)
هولاكو (توفي في ١٢٦٥م)
(والي بلاد فارس)
آريق بوكه

تيمور أولجتو
(حكم من ١٢٩٤م إلى ١٣٠٧م)

آباقا (١٢٦٥م ١٢٨٢م)
آرغون (١٢٨٤م ١٢٩١م)

أولجتو (١٣٠٤م ١٣١٦م)
قازان (غازان) (١٢٩٥م ١٣٠٤م)

رسم: زياد منى

الشكل 2، سلالة الخانات العظام (مرقم)

كلمة شكر وعرفان

أرفع آيات الشكر أولاً إلى بيتر هوبكِرك لذلك القدر من الصدمة لدى ورود الاقتراح منذ ما يقرب من عشرين سنة، ولبقائه متحلياً بالدهشة المشجعة هذه المدة كلها. وأتقدم بالشكر أيضاً إلى السير ماتيو فَرّار وموريس شيمث لاهتمامهما وسعة اطلاعهما في اللحظات المناسبة؛ وإلى أبويَّ لسخائهما المفرط في رعاية حفيديهما رعاية أفضت إلى سعادة المتلقي وصلاحهما. وكما سيتضح فقد اعتمدت على أعمال باحثين من الماضي البعيد والقريب، ولاسيما مؤلفات العقيد سير هنري يُول، بول بِليُوت، مول، لَثَم، هِربِرت فْرَنكِه، وليوناردو أولشكي. وآمل أن تتاح للقراء فرصة العودة إلى هذه المراجع الثمينة حيث سيجدون، كما أعتقد، وخصوصاً في رحلات يُول وكل ما كتبه ليوناردو أولشكي، كثيراً من التشويق.

مقدمة

لسبعمئة سنة خلت حين غادر ثلاثة رجال مركباً شراعياً صغيراً إلى الرصيف الحجري لميناء البندقية، ترنحوا قليلاً؛ فبعد أسابيع في البحر بدت الأرض الصلبة غير مألوفة لسيقانهم. لم يكن هناك أحد لاستقبالهم؛ ولولا تميزهم بملابسهم الرثة لمرّت عودتهم إلى الوطن دون أن تلفت أي نظر - «فمن حيث المزاج واللكنة» كانت تلفّهم «مسحة تترية معينة يتعذر وصفها لأنهم كادوا بالفعل ينسون لغتهم البندقانية نسياناً كاملاً».[1] كانوا ينتعلون أحذية جلدية وسخة تصل أعناقها إلى الركب، ويرتدون أثواباً حريرية مبطنة لها زنانير عند الخاصرة من حرير مضاف، حيث أطلت بطانات الفرو الشعثاء من المزق المفتوحة في القماش الذي كان رائعاً ذات يوم. وتلك الأثواب البالية المثبتة حول الصدور بأزرار نحاسية مستديرة على الطريقة المغولية، ما كانت لتصل إلا إلى الركب.

هكذا وُصِفت طريقة عودة ماركو بولو بعد حوالي مئتي عام من حدوثها. ويتابع الراوي، وهو شخص يدعى جِيُوفَاني باتيستو رَموزيُو، قصة عودة كل من ماركو بولو وعمه وأبيه، بعد غياب زاد على عشرين سنة، إلى مسقط رؤوسهم حيث: خلعوا أثوابهم الرثة ولبسوا أردية بندقانية طويلة من الحرير القرمزي تلامس الأرض. ثم انقضوا على أثوابهم المغولية الرثة، وراحوا يمزقون البطانات، حتى سقطت على الأرض من مخابئها في الدرزات، أعداد من أحجار الزمرد والياقوت الأحمر والعقيق والماس والياقوت الأصفر.

وعلى الرغم من أن الجميع يعرفون ماركو بولو بالاسم، فإن تفاصيل أسفاره ربما كانت أقل شهرة من رحلات كريستوفر كولُمْبُس. فأكثر الناس قد يقرنونه بإحدى الرحلات إلى الصين، كما قد يبادر عدد غير قليل إلى تعرُّف قصة عودة الرحالة ذي الأثواب البالية. ومهما يكن، فهو يشغل في المخيلة الشعبية مكانة قريبة من مواقع كبار الرحالة الطليعيين من أمثال كريستوفر كولُمْبُس وفاسكو دي غاما وماجِلاَّن.

ما يبدو أن أكثر الناس لا يعرفونه هو أن تحدياً بالغ الجدية لمكانة ماركو بولو الشعبية قد أطلقه أبرز الباحثين الألمان المتخصصين في الدراسات المغولية.[2] ومع إقراري بأن هؤلاء الباحثين قد لا يشكلون قوة ضغط كبيرة، فإن من غير الممكن نبذ أبحاثهم بسهولة، ولاسيما أنها تمثل أحدث وأعمق أشكال التحقيق في تاريخ طويل من عدم اليقين الأكاديمي. ومهما يكن، فإن هذه الشكوك الخطيرة لم يكن لها أي أثر في المكانة الشعبية لماركو بولو حيث ظلت الأسطورة تتكرر دون توقف.

وبما يشبه الإجماع، تحرص كتب الأطفال المعاصرة، وهي كتب بخيلة بالنصوص وسخية بالصور، على التمسك بالعلاقة التي يمثلها ماركو بولو بين صين العصر الوسيط وأوروبا، وكأن شخصه هذا هو أفضل سبل عبور المسافات الشاسعة، والاختلافات الكبيرة، والجبال والصحارى والتباينات الثقافية، التي تفصل بين أوروبا وبكين عن طريق الاختزال. فهو يضطلع بدور كبير كمبشر ثقافي وحضاري ليس في كتب الأطفال فقط، بل إن هناك أساطير تقول إنه مسؤول عن عملية إدخال (المعكرونة) المسطحة إلى إيطاليا، أو (السباغيتي) إلى الصين، تبعاً للمكان، فضلاً عن اعتباره صاحب الفضل في الإيحاء بـ(البوظة) الإيطالية.

ما من كتاب عن صين العصر الوسيط، شعبياً كان أم بحثاً أكاديمياً، إلا يعتمد اعتماداً كبيراً على محتويات كتاب ماركو بولو: **وصف العالم.**[3]

فلدى دراستي اللغة الصينية في كامبردج كنت أجدني ملزمة بإيراد فقرات من وصفه مدينة بكين في مقالاتي، وحين بدأت بكتابة أطروحتي للدكتوراه حول فن عمارة البيوت في بكين، ربما كان اهتمامي بماركو بولو أكبر من اهتمامي بالعديد من الآخرين. ومع أن موضوع أطروحتي كان محصوراً بالفترة الممتدة ما بين عامي (1860 - 1930 م) فإن الطريقة المتمثلة بإقحام البيوت البكينية التقليدية ذوات الفناءات في منظومة الشوارع المتقاطعة بانتظام، مثل رقعة الشطرنج، كانت ما تزال تحيي ذكرى العاصمة المندثرة سلالة يوآن المغولية الحاكمة (1279 - 1360 م) الموصوفة في كتاب ماركو بولو.

وفيما بعد أمضيت سنة في بكين بين عامي (1975 و 1976 م) طالبة في معهد اللغات، وهو مجمع مكسو بالغبار في الضواحي الشمالية ـ الشرقية، تبين أنه ذو علاقة ما بماركو بولو. والرحلة على الدراجة الهوائية إلى المدينة التي دامت ساعة من الزمن كانت تجتاز جداراً عالياً مغطى بالشجيرات، كانت رحلة ريفية آنذاك حيث كنت ترى الفلاحين في ملابسهم المبطنة منحنين فوق محاصيلهم في حقول غائمة، وفي بيوت زراعية صغيرة، وطيئة، رمادية. ومضى بعض الوقت قبل أن أدرك أن الجدار كان جزءاً من سور قديم أحاط ببكين سلالة يوآن ليحجز أفدنة من الأراضي الرعوية لصالح الحكام المغول ذوي الأصول البدوية. وبعد قيام حاكم مِنغ (الصيني) باستعادة المدينة من جديد في عام (1360 م) أقيمت أسوار جديدة للمدينة بعيدة إلى الجنوب، ولم يبق من السور القديم إلا هذه الأطلال المحاذية لكويوان لو.

وبعد انتقالي إلى قسم التاريخ في جامعة بكين، نادراً ما كنت أعبر السور المغولي لدى الذهاب إلى المدينة، لأن الجامعة كانت في مكان أبعد إلى الجهة الشمالية ـ الغربية، ولكنني ظللت أمضي أكثر فترات ما بعد الظهر ممتطية دراجتي الهوائية، محاولة أن أصور ما يتيسر لي من نماذج العمارة

المنزلية التقليدية ـ وقد كانت مهمة صعبة لطبيعة البيوت الفنائية المسوَّرة من جهة، والشكوك الهائلة التي كانت تلف الأجانب في ذلك الوقت من جهة ثانية. وهكذا فقد أصبحت خبيرة بأكثر المسارب والأزقة الضيقة الواقعة بين الشوارع الرئيسية، كما تعمق وعيي مخطط المدينة الشبيه برقعة الشطرنج، والذي وصفه ماركو بولو للمرة الأولى للأوروبيين في أواخر القرن الثالث عشر.

وما أن عدت إلى لندن وإلى عملي في القسم الصيني من مكتبة مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية، حتى عاد ماركو بولو إلى الظهور على السطح. وفي أوساط الطلاب، كنت شديدة القرب من الذين كانوا مثلي طلاباً في الصين خلال سني الثورة الثقافية (1966 ـ 1976 م) حيث شكلنا جماعة متماسكة تماماً موحدة بتجاربنا الغريبة كطلاب «عمال ـ فلاحين ـ جنود» حين كنا نغرس شتلات الأرز في المساكب ونجمع الملفوف الصيني لنقتات به، ولا شيء سواه، من تشرين الثاني إلى آذار، ونتدرب على كيفية رمي القنابل اليدوية على حساب المجلس الثقافي البريطاني كجزء من نشاطاتنا الرياضية الإجبارية بعد ظهر أيام الأربعاء.

كان كريغ كلوناس في الصين قبلي بعام واحد، وعاد للحصول على الدكتوراه من مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية وموضوعها: **حواش مغولية على حلم الحجرة الحمراء**. وحدثني كلوناس هذا عن شك الباحثين الألمان المتخصصين بالدراسات المغولية حول واقع وصول ماركو بولو إلى الصين، وفي مقال موجز عن أوائل الرحالة إلى الصين في أحد ملاحق جريدة التايمز اللندنية حول التجارة نشر في عام (1981 م) ختمت كلامي باقتراح عابر قلت فيه إن ماركو بولو قد لا يجوز اعتباره، رغم صورته الشعبية، واحداً من أوائل زوار الصين؛ فأثرتُ قدراً من الرعب ما كان بوسعي أن أتصوره. وفي العام التالي أتبع كريغ كلوناس ذلك بمقال أطول، في جريدة التايمز مرة أخرى، ورحنا نناقش بين الحين والآخر فكرة تأليف

كتاب عن الموضوع، مفضلين أن يكون بمساعدة أحد المختصين بالدراسات الفارسية - العربية الوسيطة، ولكننا لم نتمكن قط من تحقيق ذلك.

وبالتالي فهاأنذا أمضي وحدي.

1- Colonel Sir Henry Yule, *The Travels of Marco Polo: The complete Yule-Cordier edition* (1903), 1920; New York, 1993, vol. 1, pp. 4-6.

2- Herbert Franke, 'Sino-Western relations under the Mongol Empire', *Journal of the Royal Asiatic Society Hong Kong Branch*, 6 (Hong Kong, 1966), pp. 49-72, reprinted in a collected volume of Franke's work, *China Under Mogol Rule* (Aldershot, 1994). For a bibliography, see H. Watanabe, *Marco Polo Bibliography* 1477-1983 (Tokyo, 1986).

3- Divisament dou Monde.

1) تفاصيل غير وافية

على الرغم من أن أكثر الناس يعرفون اسم ماركو بولو فإن قلة قليلة جداً تعترف، لدى إخضاعها للمحك، بأنها قرأت كتابه فعلاً. وإذا تركنا الشكوك الأكاديمية لدى باحثين معاصرين ومشكلات (السباغيتي) و(البوظة) جانباً للحظة الآنية، فإن كتاب ماركو بولو، والمزاعم الواردة فيه، ينطويان على أهمية بالغة، لأن معظم ما نعرف (أو ما يقال لنا) عن ماركو بولو ماثل في واحدة أو أكثر من طبعات مؤلّفه بالذات.

فـ«**وصف العالم**» الذي قد يكون مكتوباً في عام (1298 م) يبدأ بمدخل موجز يقدم خلفية رحلات أفراد عائلة بولو، ووصفاً لأسلوب إنجاز الكتاب. وحسب المدخل فإن والد ماركو بولو وعمه: مافيو ونيكولو بولو اللذين كانا تاجرين من البندقية، وصلا إلى القسطنطينية في عام (1260 م) «مع بضاعتهما».[1] وهناك قررا «عبور البحر الأسود أملاً في تجارة رابحة... فذهبا إلى سوداك». والأخيرة كانت في تلك الأيام إحدى المحطات التجارية الرئيسية على البحر الأسود، في شبه الجزيرة الشمالية إلى الشرق من سِفَسْتِبُول مباشرة، كما كانت توفر فرصة الحصول على بضائع آتية من روسيا وتركيا وإيران. و«بعد مكوثهما هناك فترة من الزمن قررا استئناف الرحلة الميدانية» عبر الأراضي الممتدة بين الفولغا وبحر قزوين التي كانت خاضعة للحاكم المغولي بِرك (1257 ـ 1276 م) وفي ظل سلطته قاما بأعمال تجارية «رابحة جداً»، غير أنهما ما لبثا أن اكتشفا أنهما كانا عاجزين عن العودة إلى القسطنطينية لأن حرباً كانت قد نشبت بين بِرك وهولاكو،

حاكم إيران المغولي (توفي في عام 1265 م). ومع أن بِرك وهولاكو كانا ابني عم وينحدران من جد واحد هو جنكيزخان، فإنهما قاما في عام (1261 - 1262 م) بخوض الحرب الأولى، في سلسلة الحروب التي جرت بين السلالتين، حول النزاعات الحدودية، إذ دأب الطرفان على المطالبة بإقليمي شمال غرب إيران والقفقاس.

دفعت حروب المغول بالأخوين بولو إلى التوغل شرقاً حتى وجدا نفسيهما في قره قُرُم ،عاصمة ومسقط رأس المغول الذين باتوا يسيطرون على الجزء الأكبر من آسيا الوسطى وراحوا يهددون أوروبا الشرقية.

وفي قره قُرُم قابل التاجران البندقيان الحاكمَ أو الخانَ الأعظم قوبيلاي، وناقشا معه الدين المسيحي، بدلاً من الكلام على التجارة، حتى أمر قوبيلاي «بكتابة رسائل باللغة التركية موجهة إلى البابا ائتمن الأخوين عليها». «قال للبابا إن عليه أن يرسل ما لا يقل عن مائة رجل متبحر في الدين المسيحي... ليجادلوا عَبَدة الأوثان ويبرهنوا لهم بوضوح... أن دينهم خاطئ كلياً... أضف إلى ذلك أن الخان الأعظم أمر الأخوين بجلب الزيت من المصباح المشتعل فوق ضريح الرب في القدس». ثم أوعز لأحد رجاله بمرافقة الأخوين بولو في الجزء الأول من رحلتهما وأعطاه لوحة ذهبية «نُقش عليها... ما يقضي بتمكينهما من الحصول على ما قد يحتاجان إليه من المأوى والخيل والرجال».

وما أن عادا إلى البندقية حتى غادراها ثانية بصورة شبه مباشرة في عام (1271 م) مصطحبين هذه المرة ماركو بن نيكولو (كان يبلغ حينئذ حوالي سبعة عشر عاماً من العمر) وكانا قد تمكنا من الحصول على الزيت المقدس، ولكنهما لم يستطيعا اصطحاب أي لاهوتيين؛ كما لم يكونا قادرين على حمل رسالة بابوية موجهة إلى قوبيلاي لأن زعامة الكنيسة كانت مقسمة بين اثنين من البابوات في ذلك الوقت، غير أنهما حصلا على رسالة تغطية

من المندوب البابوي في عكا.

وثانيةً في قره قُرُم جرى استقبال أفراد عائلة بولو «بالسرور والبهجة» وتأثر قوبيلاي بماركو بولو «الشاب المراهق» أيما تأثر، فراح يستخدمه مبعوثاً، يرسله إلى سائر الأقاليم الصينية القصيّة، التي كان يعمل آنذاك على إخضاعها لحكم المغول. كان المغول احتلوا شمال الصين في عام (1260 م. وإن لم يتم احتلال الجنوب تماماً حتى عام 1279 م). وبادئ ذي بدء ذهب ماركو بولو إلى إقليم يونان في جنوب غربي الصين في رحلة استغرقت ستة أشهر.

يبدو أن ماركو بولو كان يجيد فن سرد القصص في حين كان مبعوثو الخان العاديون يتعرضون لاحتقار سيدهم الإمبراطوري لأنهم في نظره حمقى وأغبياء، لعجزهم عن إبلاغه بأي شيء عن «عادات وأعراف» الأقاليم التي كانوا يزورونها. وبالإفادة من هذا الإخفاق، فإن ماركو بولو «ركز اهتمامه على سائر الأشياء الجديدة والغرائب التي اعترضت سبيله، حتى يتمكن من الحديث عنها تفصيلاً أمام الخان الأعظم». فلدى عودته إلى البلاط، كان أولاً ينجز الأعمال الجدية، ليبادر بعد ذلك «إلى الحديث عن جميع الأشياء المثيرة التي سبق له أن رآها في طريقه».

صحيح أن المدخل قصير، ولا يضم إلا اثنتي عشرة صفحة، ويقدم تلخيصاً بالغ الإيجاز عن إقامة أفراد عائلة بولو الطويلة في الصين. «وهل هناك ما يدعو إلى جعلها قصة طويلة؟! يكفي التسليم بأن السيد ماركو بولو بقي مع الخان الأعظم سبعة عشر عاماً بالتمام والكمال؛ وعلى امتداد هذه الفترة الزمنية كلها لم يتوقف قط عن السفر لأداء مهمات خاصة».

وفي نهاية المطاف بدأ أفراد عائلة بولو يشعرون بالحنين إلى الوطن، فتوسلوا راجين السماح لهم بالعودة إلى إيطاليا، وحصلوا على الأذن بالمغادرة، فعادوا، لا براً كما جاؤوا، بل بحراً في المقام الأول، مصحوبين

بأميرة مغولية شابة، تقرر زواجها من الأمير المغولي آرغون، الموصوف بحاكم الشرق حيناً، ووالي إقليم فارس حيناً آخر - (إنه آرغون الذي حكم بعض الوقت بعد هولاكو بين عامي «1284 و 1291 م»). وكانت الرحلة شاقة إذ لم ينج من رجالها وهم ستمئة، سوى ثمانية عشر شخصاً. وعند وصولها إلى فارس، فوجئت تلك العُصْبة المنهكة، بحقيقة أن آرغون أيضاً قد كان توفي، غير أنها نجحت في التخلص من حمولتها الملكية بتزويجها من ابنه قازان. وبعد إنجاز واجبهم تابع أفراد عائلة بولو رحلتهم، على ظهور الجياد مرة، وعن طريق البحر أخرى، إلى البندقية التي وصلوها (في عام 1295 لتجسد المسيح). وختاماً يقول المدخل: «بعد أن زودتكم بمضمون المدخل كله كما سمعتموه سأبدأ بالكتاب...».

1- All citations are taken from Roland Latham, Marco Polo: *The Travels* (Harmondsworth, 1958).

2) ما الداعي للذهاب أساساً؟

لماذا اضطر اثنان من تجار البندقية لتحمل مشاق السفر عبر صحارى آسيا الوسطى، المجهولة، والمقفرة، ناهيك عن تكرار رحلتهما، حاملين معهما زيتاً مقدساً ومصطحبين فتى في السابعة عشرة من العمر؟

لعل الأهمية المتزايدة للاتجار بالسلع الآسيوية الغريبة كانت أحد أبرز الأسباب. فالاهتمام التجاري الذي يبديه ماركو بولو عبر كتابه، من أوله إلى آخره، بمثل هذه النوادر، بعيد عن أن يكون مفاجئاً، لكونه ابناً، وابن أخ، لاثنين من التجار. ولأن الأهمية الاقتصادية للشرق الأقصى وجنوب شرق آسيا بالنسبة إلى أوروبا العصر الوسيط، التي ما لبثت أن أفضت إلى الاكتشافات البحرية الكبرى، لكل من كريستوفر كولمبس وفاسكو دي غاما، كانت كامنة في وفرة التوابل، التي ساعدت على حفظ الأطعمة قبل زمن التبريد من جهة، وأضفَتْ نكهات قوية على الأطعمة المحفوظة بشكل سيئ من جهة أخرى.

فماركو بولو التاجر يأتي على ذكر مناجم الفضة والبقرم الرائع في أرمينيا؛ الحرير القرمزي في تركيا وتفليس؛ الزيت الجيورجي الذي كان يصلح للحرق (وإن لم يكن يصلح للطعام) وهو شديد الفعالية في علاج الحكة؛ اللآلئ البغدادية؛ الأقمشة الذهبية من تبريز؛ المزيد من الحرير والفستق الحلبي، والتمر، وصباغ الفيروز من فارس؛ طيور الحجل بخسة الثمن من الخليج الفارسي؛ أحجار الياقوت واللازورد وزيت السمسم في آسيا الوسطى؛ القطن والكتان والقنب من قَشْغَر؛ الفولاذ والحرير الصخري

غير القابل للاحتراق (الأسبستوس) من أويغرستان؛ المسك الطنغوتي، وهو الأفضل في العالم؛ الملح من مناجم سيتشوان؛ الزنجبيل والقرفة ونبات السُّعد والسكر من البنغال؛ الفلفل الجاوي وجوز الطيب والقرنفل؛ جوز الهند الهندي؛ الفلفل والإنديغو وخشب الصندل والعنبر من زنجبار؛ والجياد الرائعة والبخور المصنوع من نسغ الشجر بالقرب من عدن. وقوائم مثل هذه الغرائب هي التي شدت كريستوفر كولُمبُس وهي تظهر في الملاحظات الهامشية التي دونها على صفحات نسخته من كتاب ماركو بولو (الذي طلبه من لندن في عام «1498 م»).[1]

لعل إحدى الفقرات الأطول حول التوابل ذات الأهمية الفائقة، هي تلك التي تتحدث عن كميات الفلفل المدهشة، المجلوبة يومياً، إلى هانغجو على الشاطئ الشرقي للصين. فماركو بولو يعلن أنه سمع من أحد موظفي الجمارك، أن 43 عربة من الفلفل كانت تصل كل يوم إلى المدينة، وأن حمولة العربة الواحدة كانت تصل إلى 223 رطلاً.[2] وحتى مع التسليم باحتمال قيام أسواق هانغجو بخدمة كتلة سكانية أوسع بكثير من أهالي المدينة، البالغ تعدادهم مليوناً، دون إغفال حقيقة أن الفلفل (إذا كان الفلفل هو المقصود) قلما كان يستخدم في مطابخ تلك المنطقة، فإن الكمية المشار إليها تبقى كبيرة.

كان الفلفل والتوابل الأخرى مثل القرفة، وجوز الطيب، والزنجبيل، والقرنفل، هي المنتوجات الشرقية الأكثر أساسية، بالنسبة إلى أوروبا العصر الوسيط. فهذه المواد، جنباً إلى جنب مع الأخشاب المعطرة، والأصباغ، التي يستحيل استنباتها في مناخات أوروبا الأكثر اعتدالاً، ولذلك بقيت حكراً على الشرق الأقصى، كانت تنتقل إلى الغرب عن طريق البحر في المقام الأول. وحالات انقطاع الاتجار بالتوابل كانت، في ظروف معينة، تؤدي إلى ارتفاع أسعارها إلى مستويات عالية، فتصبح قابلة للاستعمال كوسيلة للدفع بدلاً من الفضة والذهب.[3]

وإضافة إلى التوابل شبه الضرورية، كانت الكماليات الآتية من الشرق الأقصى، والحرير أبرزها، مطلوبة ومرغوبة في أوروبا. فالحرير الذي كان ذا قيمة عالية في الإمبراطورية الرومانية بقي إنتاجه لغزاً حتى إن الشاعر فِرغيل خلَّد فكرة الحصول عليه عن طريق تمشيط أوراق الشجر.(4) وحتى بعد حصول الإمبراطور يوستنيان على شرانق مهربة لدود القز في القسطنطينية عام (552 م) تطلبت عملية الكشف عن الآليات الغامضة لتربية الدودة تلك، وسحب الخيوط، ومباشرة الإنتاج في الشرق الأدنى، مدة مئة سنة أخرى.(5) أما في أوروبا فقد استغرق تطور إنتاج الحرير وقتاً أطول، الأمر الذي أبقى هذه المادة وطريقة إنتاجها نوعاً من اللغز. صحيح أن ملك إنجلترا جيمس الأول أصدر عام (1608 م) مرسوماً قضى بدعم زراعة التوت (لتوفير الأوراق اللازمة لإطعام دود القز) غير أن ذلك لم يتمخض عنه أية نتائج ذات شأن. كما بادر مواطن إنجليزي إلى إقامة مزرعة للفَراش، ولكنه ما لبث أن اكتشف أنه كان عاكفاً على تربية النوع الخاطئ من الفراشات؛ وبالتالي فإن صناعة الحرير الإنجليزية لم تُقْلِع فعلاً إلاّ مع حلول أواخر القرن السابع عشر، ووصول لاجئي الهُغُنُوت(6) إلى سبيتَفِيلْدْز.(7)

وفي ظل مثل هذه الأشكال من سوء الفهم لم يكن عجز الإنتاج المحلي عن تلبية الطلب على الحرير بصورة مباشرة أمراً غريباً. وبالتالي فقد استمرت حرائر الشرق الأقصى تتدفق على أوروبا، عبر الطريق البري الذي نظمه الوسطاء الفرس في المقام الأول، إلى أن تطورت التجارة الأوربية المباشرة عبر الطرق البحرية، في القرن السادس عشر. ومع الزمن تباينت الأزياء؛ ففي حين بدا الرومان المتحللون ميالين إلى الحرائر الصينية الشفافة كان أوربيو القرن الثالث عشر يفضلون أقمشة الدامسكو (نسبة إلى دمشق) الأثقل، المنسوجة في الشرق الأدنى؛ ومهما يكن فإن الحرير الصيني الأرق ظل جديراً بمكانته التجارية، بفضل ما انطوى عليه من إمكانية الربح.(8)

وهكذا فإن الحرير، ولو بقي ثانوياً بالنسبة إلى التوابل كحافز على الاكتشاف، استمر يوفر دافعاً ذا شأن.

وفي سياق الاتجار مع الشرق، وتجارة البندقية خصوصاً، كان الأخوة بولو في موقع ملائم. فماركو الأكبر (عم الرحالة ماركو بولو) كان يملك بيتاً في القسطنطينية، وآخر في سولدايا (أو سوداك) الواقعة على ساحل شبه جزيرة القرم المطل على البحر الأسود. (ففي وصيته [المسجلة عام 1280 م] ترك بيته في القرم للطائفة الفَرَنْسِيسكانية، وإن أراد لابنه وابنته أن يستمرّا في العيش فيه).[9] صحيح أن التجار الروس كانوا يجلبون إلى سولدايا كل أنواع الفراء، غير أن الاتجار بالتوابل والحرير لم يكن يتم عبر هذه المدينة؛ ومع ذلك فإن سولدايا هذه كانت محطة تجارية رئيسية بين الغرب والشرق.

وحسب ما جاء في مدخل **وصف العالم** فإن رحلة مافيو ونيكولو بولو الأولى انطلقت من قاعدتهما الأخرى في القسطنطينية حيث حملا المجوهرات، وتقدما إلى سولدايا، ومنها إلى «أماكن أبعد». وفي الأسفار الطويلة إلى الشرق الأقصى، البرية منها والبحرية على حد سواء، كانت «التجارة المتسلسلة» هي السائدة. فهذا النمط من التجارة المتمثل بحمل البضاعة إلى المحطة الأولى، وبيعها هناك، وشراء بضائع جديدة، لبيعها في المحطة التالية، كان يمارسه تجار أفراد ومشروعات أكبر مثل شركة الهند الشرقية (بدءاً من القرن السادس عشر) لأسباب منها أن أكثر الأسواق كانت، فيما عدا السلع المشار إليها من قبل، ضيقة الأفق إلى حد ما، ميالة إلى الأشياء المألوفة، المنتجة في أماكن غير بعيدة.[10] وقد تميز هذا الأسلوب بضمان عائد معين لرأس المال الأصلي. فإيصال شحنة جديدة قد لا تروج إلى سوق غير معروف نسبياً، كان من شأنه أن يعني ضياع مجمل المبلغ الموظف في المشروع. وكان تجنب مثل هذه الخسارة الكبيرة، يتم عن طريق عمليات البيع والشراء المستمرة. وهذه المشكلة المتمثلة بجعل الناس يهتمون بالمنتجات غير المألوفة؛ واجهتها سفارة مكارتني إلى الصين (في الأعوام

«1792 - 1794 م»). فهذه البعثة التي جاءت إلى البلاط الصيني، ومعها أحدث المبتكرات العلمية، أملاً في الإبهار وفتح الأسواق، ما لبثت أن فوجئت بأن الإمبراطور بالذات، ولا أحد غيره، رفض بضاعتها، باعتبارها توافه ولعباً سخيفة.[11] أما الأخوان بولو فقد تمكنا، بفضل حملهما مجوهرات خفيفة الوزن، وكماليات رائجة دولياً، من الاطمئنان إلى مصير صفقاتهما المقبلة.

وإضافة إلى وصف تنقلات الأخوين بولو الأكبر سناً في **وصف العالم** وورود ذكر بيتين في مركزي سوداك والقسطنطينية في وصية ماركو العم، ثمة بضع وثائق باقية تشير إلى روابط عائلة بولو التجارية. وأكثر تلك الوثائق، لها علاقة بمنازعات حقوقية وهي تشي بأن أفراد عائلة بولو، رغم ثروتهم الأسطورية، كانوا في الأصل من صغار التجار، إذ أودعوا مبلغاً صغيراً من المال لدى حرفي محلي يدعى ألبرتو باولو جيراردو في عام (1316 م). وهناك وثيقة أخرى تتحدث عن أن سفينة غرقت لولدين اثنين من أبناء نيكولو من عائلة بولو، هما ستيفانو وجيوفاني، وكانا يعملان بالتجارة في كريت، وخسرا مبلغ 4000 دوقاطاً.[12]

وفيما عدا بعض الإشارات العابرة إلى عدد من النزاعات مع تجار آخرين، لا يبدو أن العائلة كانت مشهورة في البندقية، وليس ذلك مستغرباً بالضرورة. فتجار جنوا والبندقية كانوا في القرن الثالث عشر، شديدي الحرص على عدم وضع مخططاتهم على الورق، ربما خوفاً من المنافسة. وفي البندقية كان القسم الأكبر من التجارة الخارجية، يتم وفقاً لنظام الكوليغانزا[13] القائم على نوع من التعاقد بين المسافر الذي يضع ثلث الاستثمار المطلوب من جهة، وشريك له يبقى حيث هو رغم مساهمته بثلثي الأموال المطلوبة من جهة أخرى، مع تقاسم الأرباح المتحققة لاحقاً مناصفة.[14] وتلك العقود خالية من التفاصيل الوصفية. ودليل التجار اللاحق، أي كتاب **براتيكا ديلا ميركاتورا**[15] من تأليف بيغيلوتي (حوالي

عام 1340 م) الذي كثيراً ما يقارن بكتاب **وصف العالم**، لم يكتبه تاجر بل مصرفي. وبيغيلوتي هذا كان يعمل لدى شركة باردي الفلورنسية في كل من أنْتوِرْب ولندن وقبرص وأياس، ولم يكن يصل في أسفاره شرقاً إلى أبعد من الأراضي المقدسة، إلا أنه كان، على ما يبدو، يتدبر أمر تجميع معلوماته حول تفاصيل السفر إلى الشرق الأقصى الأبعد، عن طريق الحديث مع أولئك الذين كانوا قد قاموا فعلاً بمثل تلك الرحلة.(16)

وعلى الرغم من عدم ورود أي ذكر لأفراد عائلة بولو في روايات مختلفة لعدد من الرحالة، فإنها تحوي، رغم ذلك، إشارات مبعثرة إلى تجار إيطاليين آخرين في الصين. فأسقف بكين جون المُنتِيكورفينو (1247 - 1328 م) يتحدث عن تاجر اسمه بِتروس دي لوكالونغو، رافقه في السفر من تبريز إلى بكين عام (1291 م) وقدم فيما بعد تبرعات لبناء الكاتدرائية الكاثوليكية الأولى في بكين. وفي عام (1305 م) أرسل جون المُنتِيكورفينو رسالته الأولى إلى البابا من قره قُرُم مع تجار من البندقية لم يحدد أسماءهم كانوا عائدين إلى الوطن بحماية لوحة أمان ذهبية أو «جواز سفر» في الأراضي الخاضعة للمغول.(17)

ومن أكثر آثار التجارة الإيطالية مع الصين بعثاً للأسى ضريح فتاة إيطالية تم اكتشافه في يانغزُو عام (1951 م). ومع أن هذه الفتاة توفيت في عام (1342 م) فإن شاهدة قبرها نُقلت من مكانها أواخر القرن الخامس عشر لدى بناء أسوار المدينة. وحسب الكتابة القوطية المنقوشة على الرخام، فإن الفتاة هي كاترينا ابنة دومينكو فيليوني من عائلة كانت، فيما يبدو، تمارس التجارة في تبريز في أواسط القرن الثالث عشر. والشاهدة المتقنة التي تجسد مريم، المنحوتة بدورها فوق مشاهد استشهاد القديسة كاترين المقطعة بدواليب مجهزة بالسكاكين، تشي بأن الفتاة لم تكن طفلة صغيرة حين توفيت، وتفترض مراجع معينة أن أباها مات قبلها.(18) ولعل من شأن وجود دير فْرَنْسِيسكاني في يانغزُو في عشرينيات القرن الرابع عشر (أشار إليه أُدُرِك

البوردينوني)[19] أن يلقي ما يكفي من الضوء على تصميم الشاهدة، وإن اتفق أكثر الناس على أن طرازها يوحي بأنها نُحتت فعلاً بأيدي نحاتين محليين من الصين. ومهما يكن فإن هذه الآبدة تبقى شاهداً غامضاً على رحلات تجار الحرير الإيطاليين.

وفي ضوء التجارة الأوربية مع الصين في القرنين السابع عشر والثامن عشر، حين لم يكن النزول إلى البر الصيني مسموحاً به بالنسبة إلى الأجنبيات، فإن وجود إحداهن مع ضريحها أمر يثير الاستغراب.[20]

ومهما يكن، فإن بيغولوتي، كاتب الدليل، المسترخي في أريكته، الذي خاطب التجار الرحالة تحديداً، أوصى باصطحاب النساء، ربما لتوفير الراحة، وإن بدا ميالاً إلى القول بأن على المرء أن يختار نساء يعرفن اللغات المحلية، وذلك يرجح احتمال استبعاد بنات تم تأبينهن باللغة اللاتينية.[21]

وكذلك فإن اسم عائلة الفتاة: (فيليوني) أحدث قدراً من الالتباس لأن أحد أسلاف كاترينا المحتملين، أي: يوهنّس فِليُوني، مذكور أيضاً تحت اسم يوهنّس مِليُون في وثيقة تعود إلى عام (1185 م)؛[22] وبما أن ماركو بولو كان يلقب أحياناً «إل مِليُونِه»[23] فقد قيل إنهما قريبان. ومع ذلك فليس هناك، فيما يبدو، أي شيء، ما عدا قدراً من التشابه في التهجئة، يمكنه أن يقرن الجنوي بالبندقاني.

وإقامة الضريح في يانغزو بالذات لافتة للنظر أيضاً، لأن ماركو بولو قد زعم، كما قيل، أنه حكم المدينة ثلاث سنوات، قبل وفاة كاترينا بحوالي أربعين إلى خمسين سنة. ومع أن سجلات يانغزو لا تأتي على أي ذكر لماركو بولو، فإنها لا تتحدث بالمثل عن أي تجار إيطاليين مقيمين أو عن أسرهم. ومكانة أفراد عائلة بولو بين هؤلاء التجار الآخرين مستندة كلياً إلى الوصف الوارد في مدخل **وصف العالم**. وبالتالي، فليس هناك في يانغزو أي أثر لأفراد عائلة بولو، وقد يكون مؤسفاً ألا يكون أحد منهم قد

توفي هناك لأن ضريحاً جميلاً كان من شأنه أن ينطوي على بعض الفائدة.

وعلى الرغم من قلة المؤشرات الدالة على إقامة تجار إيطاليين، فإن من الجلي أن المغول كانوا أقل حرصاً على استبعاد الأجانب، من الحكام الصينيين اللاحقين. فالاستخدام المتكرر للخبراء من غير المغول والصينيين معروف جيداً عنهم، كما أن سيطرتهم عن طريق الفروع العائلية على الجزء الأكبر من آسيا تعني أن السفر كان، عموماً، أقل قيوداً منه في أوقات أخرى. وكذلك يشير واقع سماحهم لمسيحيين أجانب ببناء كاتدرائيات، وبالإقامة في مدن صينية، (حيث عاش رهبان إيطاليون في كونغجو من عام «1313 م» طوال عقد من الزمن، وفي بكين بين عامي «1307 و 1328 م») إلى غياب النزعة الانعزالية، إلى ذلك الغياب الذي ما لبث، على ما يبدو، أن اتسع حتى بات يشمل حرية سفر التجار وتنقلهم في المناطق المنتجة للحرير حول يَنْغْجُو.

1- F. Fernandez-Arnesto, *Columbus* (Oxford, 1991), p. 39.

2- Roland Latham, *Marco Polo: The Travels* (Harmondsworth, 1958), p. 217.

3- Donald Lach, *Asia in the Making of Europe* (Chicago, 19650), vol. 1, p. 20.

4- Ibid., vol. 1, p.15.

5- Ibid., vol. 1, p.21.

6 ـ البروتستانت الفرنسيون ـ (ز. م).

7- *The Silk Book* (London, 1951), pp. 14, 90.

8- Roberto Sabatino Lopez, 'China Silk in Europe in Yuan Period', *Journal of the American Society*, 72, (New Haven, 1952), p. 75.

9- A. C. Moule and Paul Pelliot, *Marco Polo: The Travels* (London, 1938), vol. 1, p.524 and Philips, *Medieval Expansion*, p. 93.

10- J. Keay, *The Honourable Company* (London, 1993), pp. 18, 52-3, 61.

11- Aubry Singer, *The Lion and the Dargon* (London, 1993), p. 181.

12- Jaques Heers, *Marco Polo* (Paris, 1982), pp. 30-1.

13- Colleganza

14- L. Petech, 'Les merchands iteliens dans l'empire Mongole', *Journal Asiatique* (paris, 19620, p. 551.

15- Pratica della Mercatura.

16- Petech, 'Les marchands', p. 552 and John Critchley, *Marco Polo's Book* (Aldershot, 19920, pp. 48-9.

17- Petech, 'Les marchands', p. 556.

18- F. Rouleau, 'The Yangchow Latin Tombstone as a landmark of medieval Christianity in China', *Harvard Journal of Asiatic Studies*, 17, Cambridge, Mass., 1954, p. 363.

19- Igor de Rachewiltz, *Papal Envoys to the Great Khans* (London, 1971), p. 182.

20- Singer, The Lion, p. 4.

21- Colonel Sir Henry Yule, *Cathay and the Way Thither* (London, 1916), pp. 291-2.

22- Petech, 'Les marchands', p. 557.

23- R. Gallo, 'Marco Polo, la sua famiglia ed it suo libro', Nel *VII centario della nasci di Marco Polo* (Venice, 1955), pp. 447-52.

3) المبشرون في كل مكان

مع أن مدخل **وصف العالم** يبين أن الأخوين بولو جاءا إلى قره قُرُم تاجرين، فإنهما لم يغادراها إلا سفيرين مسيحيين حاملين رسالة موجهة إلى البابا (لم تُحفظ) وواعدين بالعودة مصطحبين رموزاً دينية مختلفة. إن عملية انقلابهما الظاهري من تاجرين إلى رسولين تبشيريين تشي بأهمية الاتصال الديني بين الشرق والغرب وبالرغبة السائدة في معرفة المزيد عن الأوضاع الروحية فيما وراء أوروبا العصر الوسيط.

ومثل تلك الأهداف كان لها أهمية كبيرة في نظر حكام أوروبا المسيحيين حتى بدا وكأن الرحالة التبشيريين في العصر الوسيط كانوا فعلاً منتشرين في سائر أرجاء آسيا الوسطى من أدناها إلى أقصاها. وعلى الرغم من أن **وصف العالم** لماركو بولو هو الوصف القروسطي الأكثر شهرة لمنغوليا والصين، فإن عدد الوثائق التبشيرية الباقية يبعث على الدهشة حقاً. فهناك رسائل بالفارسية والمغولية من خانات المغول محفوظة في الفاتيكان، ومركز الوثائق الوطني الفرنسي،[1] فضلاً عن روايات شهود عيان حول أجزاء من منغوليا والصين، بين الحين والآخر، كتبها مبعوثون تبشيريون مختلفون، بين أواسط القرن الثالث عشر، وأوائل القرن الرابع عشر؛ وفي التاريخ الرسمي للحقبة المغولية، المسمى **يوآن شي**، فإن الأوربي الأول الذي يرد ذكره بالاسم هو جون المارينيولي الذي كان مبعوثاً بابوياً إلى الخانات بين عامي (1330 و 1340 م). وتعدّ المذكرات التي كتبها بعد عودته «عمل عجوز خَرِف، مفتقر إلى الذكاء الحاد، و... بلغة لاتينية بغيضة».[2]

كانت الأسباب الأشد إلحاحاً التي دفعت حكام أوروبا المسيحيين إلى الاتصال بالمغول في الطرف الآخر من العالم متناقضة. فالحملات الصليبية المختلفة التي جُردت بين عامي (1096 و1270 م) بدأت بمبادرات عسكرية لحماية طرق الحج إلى مدينة القدس، ثم ما لبثت أن تحولت إلى عمليات عسكرية مباشرة أكثر صراحة، هادفة إلى «استعادة»[3] أجزاء من الأراضي المقدسة، التي كان حكام مسلمون مختلفون قد وطدوا «احتلالهم» إياها. وفي مواجهة قوة السيطرة الإسلامية، فكر القادة المسيحيون بتحالفات ممكنة مع الحكام المغول الذين كان موطنهم يقع خلف المواقع الإسلامية الحصينة. وفي الوقت نفسه كان ثمة بُعد «استطلاعي» أكثر إثارة للأعصاب لجملة هذه المواقف التجريبية من المغول، الذين كانوا قد برهنوا على أنهم ليسوا أقل مهارة من المسلمين، في فنون تأسيس الإمبراطوريات. ففي عام (1242 م) وصلت جحافل المغول إلى أبواب فيينا؛ وبالتالي كان الحكام المسيحيون يفكرون بإقامة حلف مع قوم بدا مهدِّداً لوجودهم بالذات. ولدى انطلاق أفراد عائلة بولو في رحلتهم الثانية إلى الشرق، كانت ثلاثة أقاليم مغولية رئيسية تأسست في ظل ثلاث من سلالات الخانات هي: «الغرب» أو إقليم الجحافل الذهبية الذي كان يغطي جزءاً كبيراً من روسيا الأوربية؛ و«الشرق» الذي كان يمتد من شرق بلاد فارس إلى البحر الأبيض المتوسط؛ ومملكة تشغاتاي الخانية الآسيوية الوسطى في تركستان.

وفي عملية إرسال المبشرين إلى المغول، كان البابوات، مثلهم مثل الحكام المسيحيين؛ واقعين تحت تأثير الإشاعات الدائرة حول وجود حاكم «مسيحي» في الطرف الآخر من العالم، يدعى (الأب يوحنا).[4] وقد ساد شعور بأن هذا الحاكم المسيحي ربما كان مستعداً لمد يد العون لأولئك الذين يدافعون عن المسيحية في مواجهة الإسلام.

وصل إلى قره قُرُم أوائل المبشرين المسيحيين المسلحين بالرسائل البابوية، والمكلفين العثور على أناس تحولوا إلى المسيحية، وعلى حلفاء محتملين بين

صفوف المغول، قبل قيام الأخوين بولو برحلتهم الأولى إلى الشرق، وهي الأشهر، ببعض الوقت. فالرواية الطويلة الأولى عن المغول وبلادهم، جاءت من الراهب الفْرَنْسِيسكاني جون البلانو كاربيني[5] الذي أوفده البابا إنوسِنْتْ الرابع (إلى قلب الأجزاء الشمالية ـ الشرقية من العالم في عام 1246 لميلاد الرب). وبلانو كاربيني هذا الذي وصفه أحد أصدقائه بالسمنة البالغة، حتى اضطر لامتطاء حمار بالغ الضخامة، بدلاً من جواد،[6] كان من بلدة صغيرة، اسمها بيان دي كاربيني، تقع قرب مدينة بيروجيا، وقد تتلمذ على يد القديس العظيم فرنسيس أسيسي (حوالي الأعوام 1182 ـ 1226 م). ورحلته الأولى كانت مهمة دبلوماسية في روسيا حيث أرسله إنوسِنت الرابع للسعي من أجل إقناع الكنيسة الروسية بالاعتراف بالقيادة البابوية وصولاً إلى تشكيل «تكتل كاثوليكي معاد للمغول».[7] وأما الروس فكانت مثل تلك المسألة تثير حساسيتهم بشدة، لأن قسماً من أراضيهم الممتدة بين نهري الفولغا والدنيبر بات جزءاً من التكتل المغولي، وبالتالي عاجزاً عن الالتحاق بركب أية معارضة معادية لهم. فباتو، حفيد جنكيزخان، كان، مع حلول عام (1240 م) قد احتل منطقة الفولغا المعروفة لدى الروس باسم خانية[8] الجحافل (هُورْد).[9] الذهبية. ويقول ديفيد مورغان إن المفردة (هُورْد) «ربما كان يشير إلى خيمة الخان» (الجزء الذهبي) غير أن هذه الكلمة مشتقة لغوياً من كلمة (أُردُو)[10] التركية التي تعني معسكر.[11] أما المعنى المعاصر للكلمة فلا علاقة له البتة بالخيم، إذ كانت تدل على حشد هائل طائش لا يعرف معنى الانضباط، انطلاقاً من الهواجس التي كان الروس وغيرهم في الغرب يكنونها إزاء الجحافل المدمرة، التي كانت تكتسح الأرياف والسهوب، وتسحق ما ومن عليها بلا رحمة.[12] ومن مخيم باتو رحل الراهب البدين جون البلانو كاربيني على ظهر حماره، وعبر جبال آلطاي، متجهاً نحو قره قُرُم، حيث كان غويوغ معسكراً خارج المدينة. فالجمع الكبير لأمراء المغول الملتئمين لانتخاب غويوغ خاناً، خلفاً لأبيه أوغِدي، كان وشيك الانعقاد (في شهر

آب من عام 1246 م) وجرت استضافة المغول والسفراء في مدينة خيام كبيرة أُقيمت للمناسبة.

صحيح أن غويوغ صرف الراهب الفَرَنْسِيسكاني بعد إعطائه رسالة سلبية موجهة إلى البابا، غير أن إخفاقه الدبلوماسي، مثل العديد من البعثات الدبلوماسية السابقة إلى الشرق الأقصى، ما لبث أن تمت تغطيته بإنجاز مثير، تمثل بوصفه التفصيلي للحياة والعادات المغولية. وعمل الراهب جون هذا مازال محفوظاً في العديد من النسخ المخطوطة باللاتينية، وقد أضيف إلى المجلد الذي جمعه فانسان البوفياني (1190 - 1264 م) تحت عنوان: **سبكيوليوم هِستوريه**،[13] المنشور عام (1244 م). (وقد كان هذا تاريخاً للعالم، من الخلق إلى القرن الثالث عشر، وإن قال بعضهم إن المؤلف، الموصوف بأعظم الجامعين، كان مفتقراً إلى الروح النقدية، في نظرته إلى المواد المشمولة).[14]

وثمة رواية أكمل عن المغول جاءت من المبشر الأول الذي دخل مدينة قره قُرُم فعلاً هو وِلْيَم الرُّبرُكي الراهب الفَرَنْسِيسكاني الذي رافق الملك الفرنسي لويس التاسع في حملته الصليبية على الأراضي المقدسة التي انطلقت عام (1248 م) (ربما كان وِلْيَم قد التحق بالحملة فيما بعد).. ووِلْيَم الرُّبرُكي هذا مر بسولدايا والقسطنطينية (مثل الأخوين بولو بعد بضع سنين) ووصل إلى قره قُرُم، (حيث اشتهر قوله إنه وجدها أقل شأناً من سان دنيس القريبة من باريس) في عام (1254 م). وعلى الرغم من أن الراهب وِلْيَم كان يحمل رسالة من الملك الفرنسي إلى الحاكم المغولي، فإن هاجسه كان، على ما بدا، متمثلاً بوعظ المغول وهدايتهم إلى تعاليم الإنجيل..[15]

ورواية وِلْيَم الرُّبرُكي لقصة رحلاته مع وصفه لحياة المغول باقية في خمس مخطوطات ضم روجر بيكون (1220 - 1292 م) جزءاً منها إلى كتاب **أوبوس مايوس**[16] - أي **المؤلف الأكبر**، لتميزها بالملاحظة الطليعية.

ومما قاله بيكون إن أفضل سبيل للتوصل إلى معرفة خالق العالم، هو قياس العالم وملاحظته بدقة، كما فعل وِلْيَم في تعامله مع منغوليا. وبالرغم من إطراء بيكون، فقد بدا أن الطابع غير الرسمي للرسالة كان يعني أن رواية الراهب وِلْيَم الرُّبرُكي كانت أقل تداولاً من رواية الراهب جون،[17] وهو أمر يدعو للأسف لأن وصف وِلْيَم الأول أشمل، وأكثر اتصافاً بالسمة الشخصية. فقد وَصَفَ مدينة قره قُرُم؛ ،معابدها، أسواقها، أحياءها المنفصلة العائدة للحرفيين المسلمين والصينيين، وسورها، بشيء من التفصيل،[18] في حين أن ماركو بولو لم يكتب عن ذلك كله سوى «قره قُرُم مدينة كلها من الخشب والتراب ومحيطها فيما أرى ثلاثة أميال».[19] ورواية ماركو بولو، المخيبة في إيجازها، تستمر في بعض الطبعات بحديث عن «قلعة كبيرة جداً» تقع خارج المدينة. وتلك الإشارة التي اعتبرها أحد المعلقين «غامضة»،[20] ربما كانت التباساً مع ،وصف للمعسكر الذي زاره الراهب جون البلانوكاربيني، أي «مدينة الخيام» المؤقتة التي أقيمت احتفالاً بتنصيب الخان الجديد في عام (1246 م). ولكن رواية وِلْيَم الرُّبرُكي هي يوميات متكاملة تتحدث عن الناس الذين التقاهم، بمن فيهم المترجم السكير إلى درجة ميؤوس منها، والصائغ الفرنسي بوشِه وشجرته الفضية العجيبة التي تقطر خمراً، الذي كاد يموت جراء خضوعه للعلاج بالراوند على يد كاهن أرمني، ووجبات طعام التي قدمتها امرأة من اللورين، وأخيراً شجارات المؤلف اللانهائية مع الكهنة النسطوريين.

أما أول فْرَنْسِيسكانيين أوفدا بأوامر بابوية، بدلاً من أوامر ملك فرنسا، فلم يصلا إلى أبعد من منغوليا، غير أن عضواً ثالثاً من الطائفة نفسها، هو جون المونتكورفينو (1247 - 1328 م) وصل إلى بكين في عام (1291 م) حيث كان احتمال وجود الأخوة بولو في الصين بل في بكين وارداً. وقد قام ببناء كنيسته الأولى، كاملة مع برج الناقوس، في بكين عام (1299 م) ونظم كوارس إنشاد من الصبية الصغار لتلاوة التراتيل على مسامع الخان.

وقد كتب جون المونتكورفينو رسائل وصف فيها عمله (والصعوبات التي واجهها) ولكنه لم يترك أي نص وصفي عن المدينة. ورسائله هذه تشكل برهاناً على مجيء العديد من الإيطاليين وذهابهم مثل بِتروس اللوكالونغوي الذي تبرع بالأموال للكنيسة الثانية في بكين عام (1305 م) و«الطبيب الجراح اللومباردي» الأقل جدارة بالترحيب، والذي نشر آيات التجديف المعادية للكنيسة وروما في أرجاء بكين عام (1302 م)..[21]

أما أُدُرِك البوردينوني، وهو راهب فِرَنْسِيسكاني يوحي لقبه بأنه ذو علاقة بإيطاليا، ولكنه ما لبث أن اكتشفت في براغ أنه بطل محلي لأنه من أصل بوهيمي، فقد ذهب إلى الصين بين عامي (1320 و 1330 م)؛ وثمة العديد من المخطوطات التي مازالت باقية عن قصة رحلته. وأُدُرِك هذا زار الصين والهند بعد الأخوة بولو، ولكنه ذهب إلى العديد من الأماكن نفسها، .وكانت رحلته ملأى بالأحداث. ففي أثناء مكوثه في الهند جمع رفات أربعة من الشهداء الفِرَنْسِيسكان الذين كانوا يحاولون تأسيس بعثة تبشيرية على شاطئ مالابار، وعزم على إعادة تلك العظام إلى الوطن لدفنها، ولكنه، جراء تعرضه لحالة من القنوط في طريقه بحراً إلى الصين، ألقى بجمجمة أحد الشهداء إلى أمواج البحر: وما إن فعل ذلك حتى هبت ريح شديدة وقذفت السفينة إلى كانتون. وهناك رأى، كما قال، طيور إوز عملاقة تزن الواحدة منها أربعة وعشرين رطلاً كتلك التي وصفها ماركو بولو في إقليم فوجيان (بعد مسافة قصيرة على الساحل). والكاتبان، كلاهما، يصفان الأعراف والنتوءات الموجودة على رؤوس هذه الطيور العملاقة.[22] هذا وقد لاحظ أُدُرِك طيور الغاق الصائدة للسمك ونساء حُبست أقدامهن، وقام، وهو في يَنْغْجُو، بوصف البيت الفِرَنْسِيسكاني الموجود هناك (لعل رهبانه هم الذين أنجزوا ضريح كاترين فيليوني).

ورغم الدقة الظاهرية في الكثير مما يقوله، فإن أُدُرِك البوردينوني ظل عاجزاً عن مقاومة إغراء وصف بلاد الأقزام الغريبة و«الحَمَل النباتي».

«يمكن الحديث عن شيء غريب آخر، شيء لم أره بنفسي على أية حال بل سمعت عنه من أشخاص موثوقين. «يقال... ثمة جبال يُزعم أن بطيخاً كبيراً جداً ينمو عليها. وأن هذا البطيخ حين ينضج ينفلق ويتم العثور في داخله على حيوان صغير يشبه الحمل، وبالتالي يكون هناك بطيخ ولحم على حد سواء! ومع أن بعضهم قد يجدون ذلك صعب التصديق، فإن من الوارد تماماً أن يكون صحيحاً؛ كصحة القول بأن أشجاراً في أيرلندا تنجب طيوراً»..(23)

ومع أن أُدرِك نفسه أقر بأن بعضهم قد يشكون بالبطيخ، فإن المؤرخ السير هنري يُول خاض التجربة بنفسه ليبين أن الإشارة هي إلى نبات السرخس أو الخنشار أو الآسبيديوم باروميز،(24) المغطاة جذاميره بشعيرات حريرية بيضاء من الأسفل والمحشو بحشوة مائلة إلى الحمرة، الأمر الذي يجعله يشبه حيواناً صغيراً ذا فرو. والسير يُول لم يناقش ما إذا كان الخنشار صالحاً للأكل، (فالكثير منه سام) غير أنه أشار إلى مشكلة البعد بين موطن الخنشار (أي إقليم الفولغا) والصين، فأضاع كل أثر للبطيخ.

إذا تركنا الخضار القادرة على إنجاب الحملان جانباً، فإن الأعداد المدهشة لزائري المخلوقات المغولية العجيبة في قره قُرم من ذوي الخيال الخصب، مع التدفق الغزير للرسائل البابوية، والردود عليها، كل ذلك يشي بأن افتراض الأخوة بولو وجود دور للمبشرين المسيحيين كان منسجماً مع العصر، مع أنهم لم يكونوا رواداً طليعيين في مجال الاتصالات الأوروبية ـ المغولية.

1- J. P. Desroches, *Visiteurs de l'Empire Celeste* (Paris, 1994), pp. 72-7.

2- Samuel Couling, *Encyclopaedia Sinica* (1917) (Hong Kong, 1983), p. 327.

3 ـ الأقواس الاعتراضية غير واردة في النسخة الإنجليزية، لكن المؤلفة أبلغتنا في رسالة أليكترونية مسجلة بتاريخ 26 أيار (1999 م) أنها كانت تفكر حين كتابتها ذلك المقطع

بعصر الصليبيين الأمر الذي جعلها توظف مصطلحاتهم هم التي عفّى عليها الزمن، وأنها لم تقصد أبداً الإساءة إلى مشاعر أي كان وبعدم وجود أي اعتراض من جانبها على توظيفنا للأقواس الاعتراضية - (الناشر).

4 - أنظر الملحق (أ) - (ز. م).

5- C. R. Beazley (ed.), *The Text and Versions of John de Plano Carpine and William de Rubruquis* (London, 1903), p. 107.

6- Igor de Rachelwitz, *Papal Envoys to the Great Khans* (London, 1971), p. 90.

7- Ibid., p. 92

8 - أي إمارة أو مملكة - (ف. ج).

9- Horde.

10- Ordu.

11 - وقد أصبحت كلمة أوردو هذه تعني الجيش بالتركية الحديثة - (ف. ج).

12- David Morgan. *The Mongols* (Oxford, 1986), pp. 137-9 and J. R. S. Philips, *The Medieval Expansion of Europe* (Oxford, 1988), p. 69.

13- Speculum Historiae.

14- *Grand Larousse Encyclopdique*, (Paris, 1964), vol. 10, pp. 833-4.

15- Peter Jackson, *The Mission of William of Rubruck* (London, 1990), p. 42.

16- Opus Maius.

17- Ibid., p. 51.

18- Ibid., p. 221.

19- A. C. Moule and Paul Pelliot, *Marco Polo: The Travels* (London, 1938), vol. 1, p. 524; and Philips, *Medieval Expansion*, p. 93.

20- Ronald Latham, *Marco Polo: The Travels* (Harmondsworth, 1958), p. 92.

21- Colonal Sir Henry Yule, *Cathay and the Way Thither* (London, 1916), pp. 197-209. Jack Dabbs identifies him as Johannes Vitodoranus, see Dabbs, *History of the Discovery and Exploration of Chinese Turkestan* (Hague, 1963), p. 19.

22- Latham, *Marco Polo*, p. 234 and Yule, *Cathay*, pp. 106-7.

23- Yule, Cathay, pp. 144-6. The fern is apparently, native to China, see Mark Jones (ed.), *Fake? The Art of Deception* (London, 1990), p. 85.

24- Aspidium baromez.

4) الأب يوحنا والمجوس

سيل من المبشرين والتجار المزودين بالرسائل البابوية الخطيرة والمكلفين جمع المعلومات عن قدرة المغول العسكرية وتنظيمهم الاجتماعي ظل يتدفق إلى قلب المجهول. فمنذ أيام بليني[1] الذي ساهم في صياغة وجهة نظر شكسبير عن «وحوش يأكل بعضهم بعضاً، أكلة لحوم البشر، ورجال نمت رؤوسهم تحت أكتافهم»،[2] لم تكن بلاد الشرق البعيدة عجيبة فقط، بل مرعبة. ومن المثير أن الصينيين كانوا، بالمقابل، يتبنون آراء مشابهة عن سكان الغرب البعيد فيعتقدون أنهم كانوا يحجلون على ساق واحدة، أو أن لهم رؤوساً تشبه رؤوس الكلاب.[3] وفيما عدا هذه الغيلان الخرافية، فإن أهم معتقدات المبشرين المسيحيين الذاهبين إلى آسيا، كانت قائمة على الأساطير الدائرة حول (الأب يوحنا) والرفض البابوي للانشقاق النسطوري الذي لم يكن مسألة خزعبلات بقدر ما كان قضية سياسية. وكان للمسيحيين النسطوريين في لبنان وإيران أهميتهم لاحتمال كونهم قد عملوا مترجمين لدى المبشرين، بل لدى الأخوة بولو ربما، بفضل معرفتهم اللغات الفارسية والعربية واللاتينية والمغولية.

صحيح أن (الأب يوحنا) بات الآن في إفريقية حيث أسس مملكته في أثيوبيا، والفضل في ذلك يعود إلى رايدر هاغارد وجون المارينيولي (في أواسط القرن الرابع عشر)[4] ولكن الاعتقاد الذي كان سائداً في القرن الثالث عشر أنه كان حاكماً مسيحياً ورعاً للشرق الأقصى. وهذه الأسطورة بدأت، على ما يبدو، مع زيارة قام بها في عام (1122 م) كاهن

من الشرق إلى روما. وعلى الرغم من أنه زعم أنه جاء من الهند وتحدث عن المعجزات التي كانت تحدث هناك سنوياً، في عيد القديس توما، حتى ظن كثيرون أن (الأب يوحنا) كان حاكماً للهند، فإن أحداً لا يعرف أي شيء عن أصل ذلك الكاهن وفصله ـ .(يعتقد أن القديس توما كان ذهب إلى الهند للوعظ بعد الصلب، وأن نشاطاته هناك كانت مدونة في سفر توما الأبوكريفي، والمكتوب، كما يبدو، باللغة السريانية في إدسًا أوائل القرن الثالث).[5] وبعد حوالي عشرين سنة من زيارة الكاهن الهندي اللغز تعقدت أسطورة (الأب يوحنا) جراء أنباء وردت عن هزيمة مسلمين في آسيا الوسطى ألحقها بهم كاهن نسطوري. فالمطران أوتو فرايزِنغِن قال، (ربما نتيجة التباس بانتصار صيني على القوات الإسلامية قرب سمرقند في عام «1141 م») إنه سمع النبأ من مطران جَبلَة الواقعة في سورية، الذي التقاه في فيتربو.[6] وكذلك تحدث مطران جَبَلة عن الأخبار المشجعة حول اعتزام (الأب يوحنا) القدوم لمساعدة الصليبيين لولا انشغاله.[7] وقيل أيضاً إن (الأب يوحنا) كان من سلالة أحد الحكماء المجوس الثلاثة. وثمة آخرون رأوا أنه كان نسخة عن القائد العسكري الخيتاني يِلو داشي الذي فر من الصين إلى آسيا الوسطى في عام (1125 م) حين أطاحت سلالة ألجين بحكام شمال الصين من اللياو الخيتانيين. ومثله مثل كثيرين غيره، بمن فيهم أواخر خانات المغول، يبدو أن يِلو داشي كان محاطاً بكرادلة نسطوريين، مسيحيين دانهم بابا روما بالهرطقة.

وحين بدأ الناس عام (1156 م) في أوروبا يتداولون رسالة (مازالت موجودة) موجهة إلى الإمبراطور البيزنطي مانويل الأول كومنينوس (1143 ـ 1180 م) وزُعم أنها صادرة عن (الأب يوحنا) ما لبثت أسطورة ذلك الحاكم الخرافي أن تضخمت. وتلك الرسالة تتحدث عن (الأب يوحنا) باعتباره حاكماً في الهند، على منطقة تمتد من برج بابل إلى الأرض التي تشرق منها الشمس.[8] وقد حفزت رسالة «مزوِّر مجهول» البابا ألكسندر

الثالث على إرسال طبيبه في بعثة للقاء (الأب يوحنا) ولكنه ضاع في فلسطين عام (1177 م) على ما يبدو. وعلى الرغم من هذه النكسة، فإن الإيمان بوجود حاكم مسيحي قادر على مد يد المساعدة للدفاع عن الأراضي المقدسة ضد المسلمين ظل يزود الصليبيين بالأمل.

صحيح أن رواية ماركو بولو حطّت من قدر البُعْد المسيحي للأب يوحنا، ولكنها بينت كيف أن جنكيزخان أراد أن يتزوج ابنته، وقتله في معركة حين رفض (مع أن إحدى النسخ المخطوطة لكتاب **وصف العالم** تقول إن جنكيزخان تزوج الفتاة لاحقاً على أية حال).(9) وتلك القصة وردت أولاً في رواية الراهب الدومينيكي الهنغاري جوليان الذي تحدث عن أسفاره إلى أطراف الإمبراطورية المغولية في عام (1236 م) ويقال إن القصة نفسها كانت شائعة في آسيا الغربية والوسطى في تلك الأيام.(10)

وضع ماركو بولو مملكة (الأب يوحنا) على الطرف الشرقي من منغوليا الداخلية(11) قائلاً: إنها البلاد المعروفة باسم «جوج وماجوج»،(12) دون الإشارة إلى رأي الجغرافيين العرب الذين اعتبروا جوج وماجوج عمالقة حجزهم الاسكندر الأكبر خلف حائط غالباً ما ظُن أنه سور الصين العظيم،(13) الذي تقع أجزاء منه في مملكة (الأب يوحنا) كما حددها ماركو بولو. ومما قاله ماركو بولو أيضاً إن مملكة (الأب يوحنا) هي المملكة التي حكمها حفيده جورج. يا للخلط العجيب بين الواقع والأسطورة! فشخص حقيقي (ولو من نسل جد خرافي على ما يبدو) اسمه جورج، كان حاكماً للأُنغُط، وهي قبيلة اعتنقت المذهب النسطوري منذ زمن طويل، ما لبث أن اعتنق الكاثوليكية الرومانية، على يد جون المونتكورفينو في السنوات الأخيرة من القرن الثالث عشر.(14)

وهداية النسطوريين (حتى ولو كان أسلافهم أصحاب مجد ولكنهم غير موجودين) كانت الهمّ الرئيسي الشاغل للبعثات التبشيرية البابوية لأن تلك

.الكنيسة شكلت مصدر إزعاج كبير. فهذه الكنيسة النسطورية المسيحية، غير المعروفة تقريباً اليوم، والملعونة لهرطقتها من قبل رجال دين أرثوذكس، مثل الفَرَنْسِيسكاني وِلْيَم الرُّبرُكي، كانت شديدة البأس في الشرق، متداخلة مع العالم الإسلامي، وممتدة شرقاً إلى ما وراء هذا العالم، لدى قيام الأخوة بولو برحلتهم إلى منغوليا.

والنسطورية هذه بدأت بمعتقدات نسطوريوس، الذي كان مطراناً للقسطنطينية من عام (428 - 431 م) حين طُرد لهرطقته. أما صدام نسطوريوس مع بطرك الإسكندرية كيريل، فقد كان حول ألوهية المسيح. ففيما أكد كيريل على ألوهية المسيح طرح نسطوريوس فكرة مدهشة في حداثتها، لدحض فكرة ألوهية مريم، قائلاً إنها لم تكن أماً للمسيح؛ إلا «في بعده الإنساني»، مع تأكيد الطبيعة الإنسانية للمسيح. وفيما بعد درج النسطوريون على شجب صور الصلب، (ربما لأنها تجسد المعاناة الإنسانية) كما قاموا بتعطيل مساعي وِلْيَم الرُّبرُكي الرامية إلى إنتاج الصلبان، والرموز المسيحية الأخرى، لصالح البلاط المغولي في قره قُرُم.

والنسطوريون المسيحيون كانوا مسؤولين، إلى حد كبير، عن تبجيل القديس توما في الهند، إذ حافظوا على ضريحه في مدراس، الذي يعزى فضل وصفه للمرة الأولى إلى ماركو بولو،[15] مع أنه، للأسف، لم يصف شيئاً سوى جوز الهند، والمعجزات الخارقة المعروفة جيداً، (مثل كثير من حوادث شفاء المرضى والكساح ودفع الأغنياء البخلاء إلى التوبة).[16] من جانبه، لم يقل .جون المونتكورفينو شيئاً تقريباً عن الضريح، رغم بقائه ثلاثة عشر شهراً في المنطقة حين كان الأخوة بولو هناك، ربما بسبب مقته للنساطرة (وعزمه على دحض معتقداتهم وصولاً إلى هدايتهم)..[17]

أما الحاجة إلى معايشة النسطوريين، رغم إشكالية معتقداتهم الانشقاقية، فقد نشأت، في جانب منها، من نفوذهم القوي، وقربهم من حكام آسيا

الوسطى المختلفين. وربما ثمة أسباب أكثر وجاهة وراء مثل هذه الحاجة: ولأن الرهبان النسطوريين كانوا يعرفون اللغات الشرقية، والطرق العابرة لآسيا، فمن المحتمل أنهم عملوا مترجمين عند العديد من الرحالة. فأسكِلينوس، الذي أوفده البابا إنوسِنْتْ الثالث في عام (1248 م) إلى المغول في أرمينيا، عاد من رحلته مع حاشية ضمت راهباً نسطورياً، لم تكن علاقته به طيبة على الإطلاق فيما يبدو.[18] ولأن تنقل الرسل البابويين وحدهم في هذه المناطق العسيرة، أمر يصعب تصوره، فإن النسطوريين دائبي الترحال، والمنتشرين فسيحاً، ربما كانوا مترجميهم الطبيعيين، رغم أن مثل هذا الاعتماد الإجباري على «الهراطقة» بالنسبة لشديدي الحساسية إزاء الخلافات الدينية، مثل أتباع الطائفة الفَرَنْسِيسكانية، كان عسيراً جداً.

وقدم ماركو بولو اثنتين من المساهمات المشوشة في مجال المعرفة عن المسيحية في الشرقين الأدنى والأقصى. فقد تمكن، أولاً، من تحديد الموطن المفترض للملوك الثلاثة، إذ زار في فارس المدينة التي قيل إن المجوس الثلاثة انطلقوا منها، حيث لم يتمكن السكان الحاليون من إفادته بأكثر من القول بأن أولئك كانوا الملوك القدامى للمنطقة، وأسسوا فيها الديانة الزرادشتية، القائمة على عبادة النار، حين عادوا جالبين معهم حجراً يولد النار.[19] وحقيقة قيام الرحالة الثلاثة المرتبطين ارتباطاً وثيقاً بميلاد المسيح، بنشر ديانة مختلفة تماماً في فارس، من شأنها، بالتأكيد، أن تثير قدراً غير قليل من التشوش والاضطراب، لدى أولئك الذين تمعنوا في قراءة كتاب ماركو بولو.

أما اكتشاف ماركو بولو العظيم الآخر عن الديانة المسيحية فقد تمثل بجماعة من المؤمنين الغارقين في بحر من الرعب في فوجو، عاصمة إقليم فوجيان الجنوبي، بالصين. وهؤلاء لم يكونوا يعبدون النار (ولم يكونوا زرادشتيين بالتالي) أو الأوثان (ولم يكونوا بوذيين بالتالي) كما لم يكونوا، حسب كلام مخبر محلي «مسلم»،[20] يعبدون محمداً أو المسيحية. ولكن

الأخوة بولو ما لبثوا، بعد شيء من عمل الترجمة الصعب، أن تعرفوا كتابهم المقدس، المتمثل بسفر المزامير، فأبلغوهم بأنهم مسيحيون حقاً.[21] ومهما يكن، فإن معظم الباحثين يعتقدون الآن أن «ماركو بولو وعمه كانا قد تعثرا بجماعة من المانويين»،[22] لأن الكنيسة كانت في إقليم فوجيان، بالقرب من كوانغجو، ولكن ليس في فوجو بالضرورة. ومن الواضح أن المانويين كانوا يحتفظون بين كتبهم بأحد كتب المزامير. ولكن التماثيل الثلاثة على المذبح، التي اعتبرها الأخوة بولو مجسدة لثلاثة من الرسل، يُظن أنها ثالوث بوذي صيني شائع (أميتابحا، آفالوكيتسفارا، أو غْوَانْيِن، ومَهَاسثَامَا «المقدسون الثلاثة في الإقليم الغربي») ما لبث المانويون الانتقائيون أن تبنوه.[23] والمانوية هذه قامت على تعاليم ماني (من حوالي عام 216 إلى حوالي عام 276 م)[24] الذي استند إلى الديانة الزرادشتية الفارسية القائمة على عبادة النار، ولكن أتباعه اعتنقوا أيضاً جوانب من الديانتين البوذية والمسيحية، وصولاً إلى اجتراح نظرة تثنوية إلى العالم. فالمانوية درجت على القول بالتعارض بين الرب والعالم الروحاني الوضاء والمتألق من جهة، والشيطان مع العالم المادي المظلم من الجهة المقابلة؛ وبأن البشر ينضوون إلى كلا الجانبين، ولكنهم قادرون على تحقيق قدر أكبر من النور والروحانية، عن طريق الزهد، والعيش على النباتات، والنزوع إلى السلم، والتبتل، (لأن المرأة شر يقيد الرجل بالجسد). والمانوية هذه قد تبدو، بجوانبها الزرادشتية (النور، النار) والبوذية (الزهد، النزوع إلى السلم) غريبة الآن، غير أن القديس أغُسطين كان «مانوياً» طوال تسع سنوات (وإن شجبها فيما بعد). كما أن وجهات نظرها التثنوية اعتُبرت مستمرة في هرطقات لاحقة مثل آراء البوغوميل، والألبيجينسيين، والكاثار، وأشواكاً في جسد الكنيسة الأوربية الأرثوذكسية خلال العصور الوسطى.[25]

من شأن اقتصار ورود رأي ماركو بولو الذي يعتبر المانويين مسيحيين وفق إحدى فقرات مخطوطة طليطلة، العائدة إلى القرن الخامس عشر، أن

ينطوي على مشكلة. أما الآثار المانوية الأخرى في إقليم فوجيان فتشمل برهاناً أكثر ملموسية وهو ضريح عُثر عليه مع مزار قريب في كوانجو، الأمر الذي يلغي جميع الشكوك، حول حقيقة وجود المانويين؛ ولكن مسألة ما إذا كان ماركو بولو رآهم تظل قضية أكثر إثارة للشك، لأن المخطوطة الطليطلية تتضمن فقرات أخرى، غير موجودة في أية من الطبعات السابقة لكتاب **وصف العالم**، وذلك قد يشي بأنها ليست إلا إضافات إلى النص.

وأياً كان كاتبها فإن الفقرة التي تظهر المانويين كما لو كانوا مسيحيين، مثلها مثل أسطورة (الأب يوحنا) برهان واضح على رغبة أوربيي العصر الوسيط في رؤية مسيحيين في الشرق الأقصى. فعملية نشر المسيحية وما يعقب ذلك من إمكانية بناء علاقات مع مسيحيين في أماكن بعيدة من العالم (شرط ألا يكونوا من النسطوريين) لم تكن محض حافز على الرحلات التبشيرية إلى الشرق الأقصى، بل مادة إثارة قوية بالنسبة لقراء العصر الوسيط الذين ربما كانوا يجدون ما يريحهم في القصص الواردة في مختلف طبعات **وصف العالم**..[26]

---

1 - كاتب روماني عاش في الأعوام (23 - 79 م) صاحب مؤلف **التاريخ الطبيعي** - (ز. م).

2- R. W. Southern, *The Making of the Middle Ages* (London, 1967 = , p. 67.

3- John Goodall, *Heaven and Earth: 120 album leaves from a Ming encyclopaedia* (London, 1979).

4- Leonardo Olschki, *Marco Polo's Asia* (Berkely, 1960), p. 382.

5- Donald Lach, *Asia in the Making of Europe* (Chicago, 1965), vol. 1, pp. 25-6.

6- Olschki, *Marco Polo's Asia*, p. 383.

7- Igor de Rachewiltz, *Papal Envoys to the Great Khans* (London, 1971), p. 31.

8- Ibid., p. 35.

9- Roland Latham, *Marco Polo: The Travels* (Harmondsworth, 1958), pp. 93-6.

10- Rachewiltz, *Papal Envoys*, P

11- Paul Pelliot, *Notes on Marco Polo* (Paris, 1959-63), vol II, p. 850.

12- Latham, *Marco Polo*, p. 106.

13- Ibid., p. 22.

14- Olschki, *Mrco Polo's Asia*, p. 192.

15- Ibid., p. 228.

16- Latham, *Marco Polo*, pp. 274-6.

17- Olschki, *Marco Polo's Asia*, pp. 228-9.

18- Rachewiltz, *Papal Envoys*, pp. 228-9.

19- Latham, *Marco Polo*, pp. 58-9.

20 ـ وظفت المؤلفة هنا المفردة (saracen) للدلالة على العرب والمسلمين ـ أنظر كتاباً جديداً سيصدر عن الدار يحوي دراسة حول أصل هذا المصطلح ومعناه ـ (الناشر).

21- A. C. Moule and Paul Pelliot, *Marco Polo: The Travels* (London 1938), vol. I, p. 350.

22- S. N. C. Lieu, *Manichaeism in the Later Roman Empire and Medieval China* (Tübingen, 1992), pp. 297-8.

23- Olschki, *Marco Polo's Asia*, pp. 204.

24 ـ لفتنا انتباه الكاتبة إلى الغلط المطبعي في النسخة الإنجليزية حيث أشير إليه على أنه عاش قبل الميلاد، وقد وافقتنا السيدة فرنيس وود على هذا التصويب (الناشر).

25- Sir Stephen Runiciman, *The Medieval Manchee* (Cambridge, 1947).

26- John Critchley, *Marco Polo's Book* (Aldershot, 1992), pp. 148-57.

5) لا، ليس هذا دليل رحالة!

إذا كان بُعْدُ **وصف العالم** الديني يحدد بشكل صارم إطار هذا الكتاب الزمني، على خلفية بواكير أشكال الانفتاح المسيحي على المغول، فإن وصف منتجات سائر بلدان الشرقين الأدنى والأقصى مع جنوب ـ شرقي آسيا يشي بالاهتمام التجاري الأوروبي المتنامي بالتوابل والأقمشة الغربية. ووصف هذه التفصيلات يأتي بعد المدخل الذي يحدد خلفية رحلتي الأخوة بولو التي تشكل منطلق رؤية باقي الحكاية. ومع أن العديد من طبعات كتاب ماركو بولو الشعبية تحمل عنوان «الرحلات»، فإن قراءة أكثر إمعاناً لنص ما بعد المدخل لا تشير إلى وجود أي دليل رحالة منطقي. فما يشبه عملية الانتقال من الغرب إلى الشرق ثم العودة لا تأتي على شكل يوميات أسفار، بل وصفاً لكتل جغرافية. ومع أن الرحلات الاستكشافية «في أعقاب ماركو بولو» تستمر، فإن رحالة مرموقين يعترفون، إذا حوصروا بالأسئلة، بالاستحالة العملية لتعقب مسار ماركو بولو خطوة خطوة فيما وراء بلاد فارس..[1]

والكتلة الرئيسية للنص تبدأ باستعراض مراوغ للشرق الأوسط يقدم وصفاً للمنتجات والسكان ومعتقداتهم، دون أي تسجيل لكيفية انتقال الأخوة بولو من مدينة إلى أخرى، في سرد أقرب إلى جغرافيا عامة منه إلى سجل رحلة في الحقيقة. ثمة ذكر للمسافات، «يجب أن تعلم أن بين بغداد والبحر رحلة ثمانية عشر يوماً كاملاً»،[2] «فالرحالة الذي يغادر هذه المدينة (يَزْد) لمتابعة السير يركب سبعة أيام كاملة عبر سهل ليس فيه سوى ثلاثة

أماكن مأهولة يستطيع أن يأوي إليها»[3] ـ ولكن هذه التفاصيل تُقدَّم كما لو كانت أموراً واردة في دليل عام، (كان من شأن أية رحلة من بغداد إلى البحر، في هذه المرحلة، أن توجه الأخوة بولو نحو الوطن قبل الأوان).

وفي آسيا الوسطى يجري وصف المدن في تتابع ممكن: يارقند، خوتان، بيم، تشرتشان، لوب، وشاجو، قبل استطراد مفاجئ نحو الشمال حيث يقال: «سأحدثكم الآن عن بعض المدن الواقعة إلى الشمال ـ الشرقي قرب طرف الصحراء»[4] ـ وبعد ذلك يعاد القارئ إلى شاجو قبل التحول شمالاً نحو «المحيط» ـ (مع عدم تحديد هذا المحيط وإن كان الاتجاه يشي بشمال سيبيريا). وبعده ينثني النص عائداً مرة ثانية إلى غانجو لينطلق من جديد نحو الشمال الشرقي ـ هذه المرة إلى شانغدو (كسَنَندا). ويتبع ذلك استطراد حول قوبيلاي خان مع وصف لبكين وتفاصيل عن ولائم ورحلات صيد وتقرير شهير عن النظام البريدي الصيني حيث يقوم سعاة البريد الصينيون، في منطقة تركستان، باستخدام الكلاب لجر الزحافات البريدية..[5]

وداخل الصين تغيب التواريخ على الرغم من أن المقاطع، شأنها شأن نظيرتها عن الشرق الأدنى وآسيا الوسطى، منظمة عموماً بطريقة جغرافية حيث يجري إيراد بعض التفاصيل عن الزمن اللازم للانتقال من مدينة إلى أخرى: «من شأن ركوب سبعة أيام من تايوانفو باتجاه الغرب (الجنوب في الحقيقة)... أن يوصلك إلى بينغيانفو»..[6] ويبقى الاتجاه التقريبي عموماً نحو الجنوب الشرقي، عبر النهر الأصفر، مروراً بتشنغدو الواقعة في مقاطعة سيتشوان، إلى يانغتسي، ومن هناك وصولاً إلى قلب إقليم التبت. وبعد إقليم التبت تأتي يونان والحدود البورمية، وبعد بورما البنغال. ولا يسع المرء إلا أن يفترض أن المسافر كرّر رحلته ثانية حتى ينجز عودته الشاقة إلى بكين من البنغال قبل الانطلاق إلى رحلة أخرى على امتداد الشاطئ الشرقي عبر نانجينغ، سُوجُو، يَنْغْجُو، وهانغجو إلى إقليم فوجيان الذي لا يلبث وصفه أن يتوقف فجأة إذ يقال: «سنتابع الآن لنجعل طريقنا يتوغل في الهند»..[7]

ولدى معاينة المسافات بين الأماكن (حيثما توافرت إمكانية تحديدها) ثارت مشكلات مزمنة في وجه السير هنري يُول الذي كان يعمل في أواخر القرن التاسع عشر حيث كانت وسائط النقل في الصين ما تزال شديدة الشبه بنظيرتها في القرن الثالث عشر (مع تخلي سعاة البريد عن الزحافات التي تجرها الكلاب). فحول إمكانية الوصول من يونغجانغ إلى العاصمة البورمية في سبعة عشر يوماً ونصف اليوم يقول: «أقرّ بأن الإشارات الواردة في هذا الفصل وبداية الذي يليه مثقلة، بنظري، بالصعوبة»..[8] وفيما بين بورما ولاوس يضطر لأن يقول: «لا أعتقد أن... [ماركو] بولو يسير الآن في طريق سبق له أن قطعه شخصياً».[9] وفيما بعد يعلق على مضض قائلاً: «حقاً نحن مضطرون للتخلي عن محاولة اتباع خط من الأنهار المتصلة على امتداد فترة الأربعة والعشرين يوماً كلها. كذلك لست أرى أية إمكانية للالتزام الحرفي بذلك الشرط دون الانتهاك المادي للنص»..[10]

وبعد نوع من الاستطراد عن الهجوم البحري المغولي المخفق على الصين، الذي يبدو واضحاً أنه قائم كلياً على الشائعات، تقوم الرحلة (وهي ما تزال توصف من منطلق غير شخصي) بنقل «المسافر» من فيتنام إلى جاوة، إلى جزر أندامان، إلى سيلان، إلى الهند (حيث القديس توما) إلى سيلان ثانية، وإلى الهند مرة أخرى، وبعد ذلك إلى بحر العرب والجزيرتين الغامضتين ـ: جزيرة الرجال وجزيرة النساء، حيث يحل التراث الشعبي محل الجغرافيا، فإلى سوقطرة، مدغشقر، زنجبار، الحبشة وعدن. ومدن جنوبي شبه الجزيرة العربية وفارس (هرمز وكيرمان) يصفها قبل انعطاف مفاجئ آخر وعود على بدء: «لأننا خرجنا عبر طريق آخر... فإننا لن نتسكع هنا الآن، بل سنتابع كلامنا عن تركستان...».[11] وقبل أن ينتهي الكتاب بغتة، هناك سلسلة من الصور الوصفية الطويلة عن حروب التتر تتبعها صورة وصفية أخرى عن روسيا.

أما رحلة العودة التي قد يتوقع المرء أن يجدها خاتمة ملائمة للنص ولكنها لا تظهر، في الحقيقة، إلا في المدخل، فيبدو أنها أوصلت الأخوة بولو إلى

الخليج الفارسي عن طريق سومطرة، شاقين طريقهم إلى تبريز بصحبة سيدة مغولية رفيعة النسب عازمة على الزواج من آرغون. وبعد تحررهم منها سافروا على ظهور الجياد إلى طرابزون وأبحروا منها إلى القسطنطينية فالبندقية التي وصلوها في عام (1295 م).

وأحد الجوانب المثيرة لـ **وصف العالم** هو قصة جلب الأميرة من الصين إلى فارس فهي لا تصل إلا لتجد زوجها المحتمل قد مات، ،وهذه القصة واردة أيضاً في **تاريخ العالم** الذي كتبه رشيد الدين[12] في عام (1306 - 1307 م) بتكليف من الإلخان قازان الذي تزوج الأميرة.[13] وكذلك ترد القصة في نص صيني رسمي مشمول بموسوعة مخطوطات إمبراطورية تحمل اسم **يُونغلِه دَدْيَان** (22877 فقرة جمعت بين عامي «1403 و 1408 م»). وفي نظر بعض المؤرخين الصينيين أن ورود حكاية آرغون وعروسه المحتملة في وثائق صينية رسمية يشكل دليلاً هاماً على مصداقية ماركو بولو.[14] ولكن المشكلة الوحيدة التي عاناها هذا الاكتشاف المثير هي أن أياً من الروايتين: الرواية الصينية ورواية رشيد الدين على حد سواء، لا تأتي على أي ذكر لوجود أوروبيين أو إيطاليين برفقة الأميرة، وقد جرت العادة على تفسير هذا النقص بإحدى طريقتين: إما أن ماركو بولو كان يبالغ بأهميته خادماً لدى الخان الأعظم قوبيلاي، أو أن رشيد الدين كان يعبّر عن تحامله الإسلامي المألوف على الأوروبيين؛[15] غير أن القول بأن القصة مقتبسة من مصدر آخر ممكن أيضاً.

وفضلاً عن عدم كونه دليل رحالة فإن الشيء الثاني الذي وجدته بالغ الإثارة لدى النظر إلى النص في مجمله هو أنه، فيما عدا المدخل، لا يتضمن إلا القليل جداً من الإشارة إلى الأخوة بولو أنفسهم: إنه عمل جغرافي أو تاريخي أكثر بكثير من كونه وصفاً شخصياً لأشياء تمت رؤيتها. فالفصل الأول: «الشرق الأوسط»[16] الذي يبدأ بعبارة «اسمحوا لي أن أبدأ بأرمينيا»،[17] لا يتضمن إلا ثلاث إشارات إلى ماركو بولو، ترد الأولى في

مقطع طويل عن بلاد فارس يصف المجوس الثلاثة الوارد ذكرهم في الإنجيل خارجين من سافه، حيث «سأل السيد ماركو بولو عدداً من السكان عن أصل هؤلاء المجوس؛ ولكن أحداً لم يستطع أن يفيده بأكثر من أنهم كانوا ثلاثة ملوك دُفنوا هناك في غابر الأزمان»..[18] وتأتي الإشارة الثانية بعد حديث عن جذور عبادة النار الكامنة في قيام المسيح الوليد بتقديم حجر هدية إلى المجوس الثلاثة: «ذلك هو ما قاله أهالي هذه المدينة لماركو بولو»؛[19] أما الإشارة الثالثة فتلي قصة قطاع الطرق القاواروونا من رودبار: «أؤكد لكم أن السيد ماركو بولو لم ينج من أسر هؤلاء اللصوص إلا بصعوبة»،[20] مما يشي بأن فرصة رواية قصة مثيرة قد ضاعت.

والفصل الثاني «الطريق إلى كاتاي» يتضمن، هو الآخر، ثلاث إشارات إلى الأخوة بولو، تنطوي إحداها على الإيحاء الوحيد بأن من شأن الراوي «أنا» أن يكون ماركو بولو. وربما أشارت الأولى إلى مرض أصاب ماركو بولو إذ ورد: «يجزم السيد ماركو.... من تجربته الخاصة»[21] أن هواء بالاشان النقي (حيث كان جواد الاسكندر بوكافالوس يشب على الأفراس المحلية) كان كافياً للتعافي من المرض دونما حاجة لأي دواء. وتقدم الإشارة الثانية رفيق درب عجيب: «كان لي رفيق تركي اسمه زورفيقار [ذو الفقار]، رجل حاد الذكاء أمضى في هذا الإقليم ثلاث سنوات في خدمة الخان الأعظم، مشغولاً باستخراج... السمندل والأوندانيك[22] والفولاذ وغيرها من المنتجات الأخرى».[23] وفي قصص الحيوان العائدة إلى العصر الوسيط كان السمندل البرمائي الشبيه بسمندر الماء قادراً على مقاومة النار، وفي تفسير يترجّح بين السمندل والحرير الصخري (الأسبستوس) يقال لنا إن «الناس كانوا ومازالوا يتحدثون عنه على أنه حيوان، ولكن هذا ليس صحيحاً»، لأن ما يجري الحديث عنه إن هو إلا «مادة» تُستخرج من الجبل وتخرج من النار دون أي خدش، بعد طحنها وتحويلها إلى قماش، وهي مطهرة في الحقيقة..[24] أما الإشارة الثالثة في الفصل الثاني فتذكر أن

الأخوة بولو قضوا سنة في مدينة غانجو (جانغيه الحالية الواقعة في إقليم غانسو) و«لكن دون أية أحداث جديرة بالتسجيل».[25] وما بقي من الفصل مشغول بقصة (الأب يوحنا) وعلاقته القاتلة في النهاية بجنكيزخان، وبأحاديث عن عادات ومخيمات مغولية شديدة الشبه حقاً بنظيرتها الواردة على لساني المبعوثين التبشيريين وِلْيَم الرُّبْرُكي وجون البلانو كاربيني.

وفي الفصل الثالث: «قوبيلاي خان»، لا يرد ذكر الأخوة بولو إلا مرة واحدة لدى التذكير باللقاء الموصوف في المدخل بين مافيو ونيكولو والخان. أما ما تبقى من الفصل فيتضمن وصفاً لبكين، لعادات أهل الصين، ولإدارة الدولة.

والفصل الرابع: «من بكين إلى البنغال»، يأخذ منحى سردياً مختلفاً. فبدلاً من الإشارة إلى «الرحالة» وإلى ما يمكن له«» أن يراه أو يجده في آسيا الوسطى، يبدأ بإلقاء الضوء على أن «السيد ماركو بولو نفسه كان مبعوثاً من الخان الأعظم رسولاً إلى الغرب في رحلة من خانبالق [بكين] مدتها أربعة أشهر كاملة. وبالتالي فإنه سيحدثكم عما رآه في الطريق إياباً وذهاباً».[26] غير أن الرواية لا تلبث، بعد هذه الانطلاقة الشخصية الواعدة، أن تستأنف نمط «الرحالة» المألوف القائم على رؤية هذا وذاك، أو المرور اللاحق بهذه المدينة وتلك. ويعود ماركو بولو إلى الظهور على الصفحة 189 لدى الإشارة إلى البنغال، لكنه، على غير عادته، يأخذ صفة المتكلم: «في عام (1290 م) حين كنت، أنا ماركو، في بلاط الخان الأعظم، لم يكن [البنغال] قد أُخضع بعد». أما الجزء الباقي من وصف البنغال فيظل، مرة أخرى، وصفاً غير شخصي. ويمكن أن نضيف أن الرحلة من بكين إلى البنغال مع رحلة العودة كان من شأنها، إذا اعتبرنا هذا الفصل وصفاً تخطيطياً لمهمة ماركو بولو الاستكشافية، أن تستغرق مدة أطول بكثير من أربعة أشهر؛ بل كان من شأن رحلة الذهاب أن تظل صعبة التحقيق في مثل ذلك الوقت على ظهور الخيل وعن طريق البحر.

ونجد الفصل الخامس: «من بكين إلى آموي»، كثير الانشغال بالأشياء التي يمكن لأي «رحالة» أن يتوقع رؤيتها، ولا يأتي على ذكر ماركو بولو إلا مرة واحدة: «فقط المدن التي مررت بها في رحلتي أنا، ماركو، عبر الإقليم هي التي جرى وصفها».[27] وثمة إشارة أخرى إلى وثنية الأهالي تصف أسلوباً للعثور على الأشياء المفقودة. ويذكر النص أربعة وثمانين صنماً، قد تكون المجموعات الكبرى من اللوهان، أي (القديسين البوذيين) الموجودة عموماً في المعابد، وإن كانت تتكرر عادة في مجموعات مؤلفة من اثني عشر، ثمانية عشر أو خمسمئة، مع التركيز على التمثالين اللذين كان يجري التوسل إليهما للاهتداء إلى الممتلكات المفقودة. وبعد وصف هدايا من القماش قُدمت إلى الأصنام، يبادر ماركو بولو إلى إقحام إحدى مساهماته الماكرة [حيث يقول]: «بهذه الطريقة تمكنت، أنا ماركو، من العثور على خاتم كنت قد أضعته ـ ولكن دون تقديم الولاء أو أية هدايا للأوثان».[28]

ومهما يكن، فإن الفصل الخامس يتضمن بالفعل بعض الإشارات القليلة الدالة على قيام الأخوة بولو بالخدمة في إدارة الخان الأعظم إذ يقال عن يَنْغْجُو «إن ماركو بولو، الذي هو نفسه بطل هذا الكتاب، حكم هذه المدينة مدة ثلاث سنوات»،[29] (رغم أن المراجع الصينية لا تقر بذلك). وحول حصار كْسيَنغْيَنْغ يقال: «إن السيد نيكولو والسيد مافيو والسيد ماركو أعلنوا: (سندلكم على طريقة تمكنكم من إجبار المدينة على الاستسلام)... كان في حاشية السادة نيكولو وأخيه وابنه ألماني ومسيحي نسطوري ماهران في هذا الفن (فن صنع المجانيق) فأمروهما بصنع منجنيقين أو ثلاثة قادرة على إطلاق قذائف صخرية تزن الواحدة منها 300 رطل».[30]

وفي وصف خانغجو، إحدى ألطف مدن الصين، وهي تقع على ضفة البحيرة الغربية الكبرى وكانت العاصمة الثانية لسلالة سُنغ (من عام «1127» إلى عام «1279 م» حيث احتلها المغول) يجري الاقتباس من ماركو

بولو بصورة مباشرة في مناسبتين اثنتين. فهو يقوم، أولاً، بوصف رسالة صادرة عن «ملكة المملكة» إلى القائد العسكري المغولي بايان الذي احتل الإقليم،(31) وهو نص يكاد أن يكون غير محتمل، إذ يشبه، كما جاء في الاقتباس، دليلاً عن مخطط خانغجو وإدارتها. وهو، رغم طبيعته الدلالية، يعدّ أحياناً دعوة لبايان إلى الامتناع عن تدمير المدينة الأنيقة. ولكن ماركو بولو يؤكد صحة مضامين الوثيقة الغامضة قائلاً: «هذا كله صحيح كما رأيتُ، أنا ماركو بولو، بوضوح وبأم عيني لاحقاً». ويضيف فيما بعد أنه كان في المدينة لدى إجراء إحصاء معين، وأنه رأى رأس سمكة عملاقة يبلغ طولها مئة خطوة وهي مكسوة بالشعر، عُثر عليها جانحة إلى الشاطئ في أثناء حصار بايان لمدينة خانغجو. صحيح أن هناك إحصاء جرى في عام (1270 م) وقد ورد في السجلات أن حوتاً بطول يصل إلى حوالي ثلاثين متراً جنح إلى الشاطئ في عام (1282 م) ولكن احتلال المغول لخانغجو كان في عام (1276 م) الأمر الذي يجعل التوفيق بين التواريخ والأحداث أمراً بالغ الصعوبة، ما لم يكن الأخوة بولو قد قضوا فترة طويلة من الزمن وعانوا محنة تعرضها للاحتلال.(32)

أما إشارة الفصل الخامس الأخيرة إلى الأخوة بولو في الصين فهي تلك المثيرة الدالة على «اكتشافهم» جماعةً من المسيحيين في فوجو، وهي الجماعة التي باتت الآن تعتبر أنها كانت مانية، لا مسيحية.

وتتصدر الفصل السادس،: «من الصين إلى الهند»، العبارة التي تقول في ختام الفصل الخامس إن «السيد ماركو أطال البقاء في الهند وبات ضليعاً في الشؤون والعادات والتجارة الهندية حتى عز وجود من هو أفضل منه تأهيلاً لإعطاء صورة صحيحة عن البلد».(33) ولا يتضمن الفصل السادس سوى إشارة واحدة إلى ماركو بولو خبيراً لا نظير له في الشؤون الهندية، وذلك عند ذكر سومطرة حيث يقال: «قضيت، أنا ماركو بولو، خمسة أشهر منتظراً الأجواء التي من شأنها أن تتيح لنا فرصة متابعة رحلتنا».(34)

وفي اثنتين من الطبعات يتابع (ماركو بولو) وصف الحياة في حظيرة محصنة.

وهناك في الفصل السابع: «الهند»، إشارة شخصية يتيمة إلى ماركو بولو في مملكة معبر، حيث رأى (الأب يوحنا) نفسه يقع ضحية قوانينه المتعلقة بتسديد الديون.(35) أما الفصل الثامن:، «بحر العرب»، فلا يتضمن أية إشارة شخصية إلى الأخوة بولو، ومثله في ذلك مثل الفصل التاسع، «الأقاليم الشمالية وحروب التتر».

وثمة في طبعة توسكانية تعود إلى القرن الرابع عشر ذيل يختم الكتاب بالعودة إلى المدخل، يلقي الضوء على الصعوبات التي واجهها الأخوة بولو لدى مغادرة الصين وعلى «المناسبة السعيدة» التي أفضت إلى رحيلهم. ولا يتضمن الذيل أي جديد، وإن بدا تتويجاً أكثر أناقة من خواتم الطبعات الأخرى لمجمل مجموعة الحكايات.

إن امتناع الأخوة بولو عن التورط في عملية السرد، فيما عدا المدخل والإشارات القليلة آنفة الذكر، يضفي مسحة موضوعية مع نكهة دليل رحالة قوية. فالأماكن توصف لا بالتتابع المنطقي المألوف في أي دليل، بل في إطار مجمعات جغرافية تقريبية. وفي الجزء الخاص بفارس توصف المدن وصفاً عاماً: «كوربينان (كوه ـ بانان) مدينة كبيرة أهلها يعبدون محمداً [!] ويصنعون مرايا كبيرة جميلة وكذلك مادة «التّتشيا الجيدة لعلاج أمراض العيون».(36)

من هناك يسافر المرء اثني عشر (ثلاثة عند لَثَم) يوماً، فيصل مدينة اسمها تايجان (تاليخان) حيث يباع القمح الجيد في السوق. إنها تقع في منطقة جميلة والجبال الجنوبية عالية ومكونة كلها من الملح، وسائر أنواع البشر يقومون برحلات تستغرق ثلاثين يوماً ليصلوا إلى هناك. إنه أفضل أنواع (الملح) في العالم ولكنه بالغ الصعوبة وتحتاج إلى المساعدة حتى تصل إليه..

الجبال غنية أيضاً باللوز والفستق الحلبي اللذين يباعان بكميات كبيرة في السوق..[37]

وفي مدينة آركِنغا (إرزنكان) بأرمينيا، توجد أفضل أنواع البقرم (بَتشرِخ) في العالم، وقريباً من البصرة «تنبت أفضل أنواع النخيل في العالم»،[38] ومعظم اللآلئ المستوردة من الهند إلى العالم المسيحي مثقوبة في بغداد.[39]

ومثل هذا الوصف للسلع الكمالية، لمصادرها وعمليات تصنيعها، ربما كان مصدر إلهام كتاب مدن غير مرئية لمؤلفه: إتّالو كالفينو، حيث يعكف قوبيلاي خان المفجوع، المغموم بظلال الغروب و«عبير الفيلة بعد المطر»، على الإصغاء إلى ماركو بولو وهو يروي حكايات مدن هزيلة، مدن تجارية وغير مرئية، مفضلاً قصص البندقاني «الخرافية» على نظيرتها الأكثر اتزاناً لرحالة آخرين غارقين في الحديث عن أطنان من الملح وأماكن بعيدة وتفاصيل أخرى غبية..[40]

ومن سوء الحظ أن أولئك الذين يقرؤون **وصف العالم** فعلاً سيكتشفون أن جزءاً كبيراً مما قاله ماركو بولو عن الشرق ليس إلا أطناناً من الملح والمسافات. وعلى الرغم من أن أشكال الوصف هذه متداخلة أحياناً مع قصص عن خلفاء ومجوس، فإنها عملية أساساً، وأن الكتاب، حتى دون اتباع المسار المنطقي لأي مخطط، تعبير عن نظرة تاجر، لا كاتب مبدع، إلى العالم.

1- See, for example, Jin Buhong, *In the Footsteps of Marco Polo* (Peking, 1989).

2- Ronald Latham, *Marco Polo: The Travels* (Harmondsworth, 1958), p. 51.

3- Ibid., p. 62.

4- Ibid., p. 87.

5- Ibid., p. 330.

6- Ibid., p. 165.

7- Ibid., p. 259.

8- Sir Henry Yule, *The Travels of Marco Polo: the complete Yule-Cordier edition* (1903, 1920; New York, 1993), vol. 2, p. 107.

9- Ibid., vol 2, p. 117.

10- Ibid., vol 2, p. 130.

11- Lattham, *Marco Polo*, p. 312.

12 - رجل دولة ومؤرخ فارسي (1247 - 1318 م) كتب مؤلف جامع التواريخ - (ز. م).

13- Francis Woodman Cleaves, 'A Chinese source bearing upon Marco Polo's departure from China and a Persian source on his arrival in Persia', *Harvard Journal of Asiatic Studies*, 36 (Cambridge, Mass., 1976), pp. 181-203.

14- Yang Zhijiu, 'Make Polou li hua de yi duan hanwen jicai' in Xu Shixiong, *Make Polou jieshau yu yanjiu* (Peking, 1983), pp. 169-78.

15- Cleaves, 'A Chinese Source', p. 192.

16- The texts are generally brocken into short sections, but for convenience, I am following the chapter headings used by Latham in his edition *Marco Polo: The Travels*.

17- Latham, *Marco Polo*, p. 45.

18- Latham, *Marco Polo*, p.58.

19- Latham, *Marco Polo*, p.60.

20- Latham, *Marco Polo*, p.65.

21- Latham, *Marco Polo*, p. 77-8.

22- According to Yule, 'an expression on which no light has been thrown since Ramusio's time,' but which he nevertheless defines as 'a sort of steel surpassing value and excellence'. Colonel Sir Henry Yule, *The Travels of Marco Polo: the complete Yule-Cordier edition* (1903, 1920; New York, 1903), vol. 1, p. 93.

23- Latham, *Marco Polo*, p. 89.

24- Ibid., pp. 89-90.

25- Ibid., p. 92.

26- Ibid., p. 163.

27- Ibid., p. 201.

28- Ibid., p. 199.

29- Ibid., p. 206.

30- Ibid., pp. 207-8.

31- Ibid., p. 213.

32- Jacques Gernet, *Daily Life in China on the Eve of the Mongol Conquest* (Stanford, 1970), pp. 19, 30, 38.

33- Latham, *Marco Polo*, p. 240.

34- Ibid., p. 254.

35- Ibid., p. 266.

36- Ibid., p.264.

37- A. C. Moule and Paul Pelliot, *Marco Polo: The Travels* (London, 1938

38- Ibid., p. vi.

39- Ibid., p. viii.

40- Italo Calvino, *Invisible Cities* (London 1974), p. 5.

6) كاتب الظل وأول المعجبين

لعل أحد الأسباب التي تجعل **وصف العالم** لماركو بولو يبدو وكأنه كتاب رحلات غير شخصي بعض الشيء، رغم عنوانه الشعبي، كامن في المدخل. فعلى الدوام يُعزى فضلُ كتابة **وصف العالم** إلى ماركو بولو؛ وما من اسم آخر يظهر على صفحة العنوان بما لا يبقي أي سبيل للاهتداء إلى حقيقة أنه نتاج كتابة ظل بالفعل خطَّته يدُ أحد كتاب القصص المعروفين في ذلك الزمان. وهذه المعلومة ترد في المدخل حيث يرد: إنه [ماركو بولو] «في السنة (1298 لميلاد سيدنا المسيح) فيما كان سجيناً بجنوا، رغبة منه في ملء وقت فراغه فضلاً عن توفير التسلية للقراء، أملى كل هذه الأشياء على روستيتشيللو البيزوي الذي كان في السجن نفسه»..[1]

وروستيتشيللو هذا المعروف كأحد مواطني بيزا، لدى الفرنسيين على الأقل، كان، على ما يبدو، قد أُسر عام (1284 م) في معركة لامِلُورْيا البحرية التي جرت بين أهالي ميدنتي بيزا وجنوا؛ (وهي معركة عرفت باسم جزيرة صغيرة مقابل شواطئ إقليم توسكانا). وقد جرى إطلاق سراح أكثر الأسرى الجنويين من عام (1298 م) وصاعداً، ومن المحتمل أن بيزوياً هو روستيتشيللو قد تم إطلاق سراحه أيضاً في الوقت نفسه تقريباً في عملية التبادل مع الأسرى الجنويين.

ما يعرف عن روستيتشيللو قليل إلى درجة العذاب، وهو ما جعل السير والتر سكوت ميالاً إلى الاعتقاد بأن الاسم ما كان إلا من «نسج الخيال»،[2] مع أنه كان معروفاً لدى نقاد الأدب في القرن التاسع عشر. ففي كتابه متع

الأدب[3] (الصادر في لندن عام «1840 م») الذي بات الآن منسياً، وصفه اسحق ديزرائيلي على أنه مرتزق أطرى فروسية البلاط البريطاني حين «تم حفزه بآيات السخاء مع قصر بديع».[4] ومن الواضح أن آيات السخاء والقصر كانا قد اختفيا مع حلول عام (1284 م) ولكن روستيتشيللو ترك وراءه «روايتين» باقيتين، كانتا، كلتاهما، عن المغامرات الأسطورية الآرثرية[5] كما يشي عنواناهما: **الجاسوس جيرون وجميع حكايات فرسان المائدة المستديرة ومجموعة من قصص الفروسية عن أعمال الملك آرثر وغيره من فرسان المائدة المستديرة.**

يبدو أن روستيتشيللو قضى جزءاً كبيراً من حياته بعيداً عن إيطاليا وأن روايتيه الآرثريتين كانتا بالفرنسية، على الرغم من أن ارتباطه الأجنبي الرئيسي كان، كما لاحظ ديزرائيلي، بالبلاط الإنجليزي حيث كان الكاتب المفضل لدى إدوارد الأول. ومن المعروف أن روستيتشلو رافق الأمير إدوارد (الملك إدوارد الأول فيما بعد) في حملته الصليبية إلى عكا (في الأعوام 1270 - 1273 م). ولغة إدوارد الأول كانت الفرنسية لأنها لغة البلاط الإنجليزي، فضلاً عن أن أمه إليانور البروفانسية كانت فرنسية. وفي ذلك العصر كانت العلاقات بين بريطانيا وفرنسا متشابكة؛ ففي عام (1249 م) مُنح إدوارد، وهو في العاشرة من عمره، إقليم غَشكونيا الواقعة في جنوب غرب فرنسا كلها (وفي الخامسة عشرة من العمر حصل على أيرلندا مع أماكن أخرى مختلفة). ومع أن إليانور البروفانسية كانت تمتلك مجموعة ذات شأن من الروايات،[6] فإنها لم تستطع أن تُورِّث ولَعَها بالكتب على ما يبدو لأن تقارير عام (1300 م) أكدت أن إدوارد لم يكن يملك إلا كتاباً واحداً، هو رواية مغامرات مغفلة العنوان، لعلها بقلم روستيتشيللو.[7]

وفيما كان الأمير إدوارد وروستيتشيللو عالقين في صقلية (في الأعوام 1270 - 1271 م) في طريقهما إلى الأرض المقدسة، يبدو أن الثاني استعار من الأول كتاباً عن مغامرات آرثر الأسطورية، وجعله أساساً لمجموعته

مِليادُس[8] التي يشي ذيلها بأنها كُتبت بأمر ملكي.[9] وفي الكتابة عن الملك آرثر، (أو روي آرتوس) كان روستيتشيللو قادراً على الاطمئنان إلى النجاح لأن إدوارد الأول زار قرية غلاستونبوري في (1278 م) وأوعز باستخراج جثماني آرثر وزوجه المفترضة جِنيفر من مدفنهما لإعادة دفنهما أمام المعبد الكبير كما لو كان صاحباهما من القديسين..[10]

وأسلوب روايتي روستيتشيللو الآرثريتين نجده في **وصف العالم** ولاسيما المدخل، حيث دعوة «السادة، الأباطرة والملوك، الدوقات والماركيزات، الكونتات، الفرسان وأهالي المدن...» شبيهة بمطلع قصصه البطولية الخاصة. والباحث الإيطالي بنديتو وضع العديد من فصول **وصف العالم** والروايتين جنباً إلى جنب فكشف عن أوجه شبه[11] ذات شأن، مما يرجح احتمال أن روستيتشيللو كان مسؤولاً، إلى حد بعيد، عن أسلوب العمل، الأمر الذي قد يفسر، ولو جزئياً، لهجة الراوي المتسمة في الغالب بقدر من المراوغة.

ولعل أسلوب السرد هو أحد أغرب جوانب العمل. فالنص لا يرويه المتكلم كما لو كان من إملاء ماركو بولو أو حديثه. ومع أن ملاحظة شخصية من قبيل ـ: «لقد رأيت هذا بنفسي» ـ ترد بصورة عرضية جداً بين الحين والآخر، فإن الجزء الرئيسي من النص يبقى وصفاً مباشراً ـ «ثمة قلعة»، «هناك جبال»، «الناس هنا وثنيون» ـ مع قيام شخص ثالث بطمأنتنا إلى أن ماركو بولو رأى هذا أو ذاك، بل يبقى الكثير أشد غرقاً في الموضوعية حيث يجري وصف ما قد يراه «الرحالة» على الطريق. ومن الوارد جداً أن يكون الأمر نتيجة التأليف المشترك.

إن تصور كيفية حصول مثل هذا التعاون أمر مراوغ حقاً. فجيوفاني باتّيستا رَموزيو، الذي كان أحد ناشري كتاب ماركو بولو وأول المعجبين به، والمتوفى عام (1557 م) طرح رأياً يقول إن ماركو بولو كان راوياً مؤثراً، وتناول لقب «إل مِليُونِه»[12] الذي أُضفي على ماركو بولو في حياته على ما

يبدو، (وهو اللقب الذي ترسخ عبر التسمية الشعبية لبيت عائلة بولو في البندقية، كورتِه دِه مِليُونِه[13]) قائلاً إن السبب يعود إلى أنه كان، كلما تحدث عن ثروات خانات المغول الهائلة، يحصيها بملايين القطع النقدية الذهبية.[14] وبالنسبة لمستمع ماركو بولو الأول، أي :روستيتشيللو، يفترض أن المغول الخطرين والغامضين كانوا شبه مجهولين كما أن الصينيين، مخترعي الحرير، كانوا غريبين بالقدر نفسه. ومع أن كتابهما مملوء بحكايات عجيبة وغريبة وبكميات هائلة فإن المدخل يؤكد الطبيعة التربوية والإعلامية للتعاون الذي أقدم عليه ماركو بولو «رغبة منه في تمكين الآخرين الذين لم يروها ولا يعرفونها من الإطلاع عليها».[15] ومهما يكن، فإن مثل هذه الثروة الأسطورية والحكايات الرائعة عن أماكن بعيدة كانت قادرة تماماً على جذب اهتمام كاتب قصص المغامرات إلى حد جعله يقترح التعاون.

ومع أن كلاً من روستيتشيللو وماركو بولو يتحدثان عن سجنهما في «زنزانة»، فإن المؤرخ الفرنسي القروسطي جاك هيرز يرى أن ماركو بولو، ومعه سجناء آخرون «ذوو مراتب» من البندقية، ربما كان رهن نوع من الاعتقال المنزلي في بيت إحدى العائلات الجنوية..[16] ومثل هذا الشكل من السجن كان، على ما يبدو، دارجاً في تلك الأيام وغالباً ما تم اعتماده تمهيداً لتبادل الأسرى، الأمر الذي جعل الأسَر الجنوية ذوات الأسرى لدى البندقانيين حريصة على استضافة الأسرى أملاً في تبادل لاحق. وكان من شأن مثل هذا الاعتقال المريح نسبياً أن يجعل التعاون لتأليف كتاب أكثر يُسْراً، وإن لم يكن يتماشى مع بعض الأساطير الدائرة حول ماركو بولو. ولعل أشهر هذه الأساطير تلك التي نسجها رَموزيو في القرن السادس عشر حين وصف عودة الأخوة بولو إلى البندقية بأنهم كانوا ملفوفين بثياب تترية بالية، وبائسين يتعذر التعرف عليهم، ومجردين من كل الممتلكات، عدا أحجار الياقوت والزمرد المثبتة خياطة في درزات أثوابهم المتهرئة.[17] ولكن معاصراً قريباً، يدعى جاكوبو دا آكوي،[18] لا يؤيد هذه العودة الكئيبة إذ

يقول إن ماركو بولو، حين سُجن، كتب إلى أبيه طالباً دفاتره وأوراقه ليستعين بها في تأليف كتابه. ومثل هذه الدفاتر والأوراق تبعث على الارتياب لأن من شبه المتعذر أن تكون مجلوبة من الشرق الأقصى من قبل من كان في أسمال بالية يكاد لا يمتلك أية أمتعة أخرى.

ومهما يكن، فإن معاصري ماركو بولو نعتوه بأنه راوية حكايات مرموق؛ وبالفعل فقد أشار دا آكوي إلى أنه لم يكن قد روى إلا نصف ما كان يعرفه، على الرغم من أنه كان دائم الاستعداد لصب قائمة الأعداد المدهشة من الجسور، وأكوام النقود الذهبية، والعربات الملأى بالفلفل، والفيلة القتالية، على مسامع كل من كان يبدي رغبة في الإصغاء. والعدد الهائل من المخطوطات الباقية للنص، رغم أن أكثريتها مكتوبة بعد وفاة ماركو بولو، دليل واضح على تنامي حرص الأوربيين على قراءة المزيد. ومع ذلك فإن عدد النصوص يطرح أحد أكثر جوانب وصف ماركو بولو للعالم ولأسفاره إرباكاً. وكما يقول أحد الخبراء، فإن هذه النصوص «موجودة في معظم لغات أوروبا الغربية دون استثناء اللغة الايرلندية»[19] أو، ربما، بما فيها الايرلندية.

من الصعب إعطاء رقم دقيق عن عدد النسخ المبكرة الباقية: فقد تم تعرف 143 نسخة مخطوطة ومطبوعة،[20] إضافة إلى سبع نسخ منفصلة أو مترابطة. وأوجه الاختلاف من حيث مكانتها تستند إلى التباينات في اللغة أو اللهجة المعتمدتين، لأن بعض اللهجات الإيطالية شديدة القرب إحداها من الأخرى. و«لغات» الطبعات المختلفة هي الرومانسية (الفرانكو ـ إيطالية) لغة البلاط الفرنسية، اللاتينية، البندقانية، التوسكانية، الألمانية، الأسبانية، البوهيمية، الآراغونية، القشتالية (القطلونية) الايرلندية (ثمة نسخة مطبوعة تعود إلى عام «1460 م» في مجموعة تشاتسوورث) والإنجليزية (هي نسخة جون فرامبتون المطبوعة عام 1579 م). وتواريخ هذه الطبعات تتدرج من عام (1351 م) إلى القرن التاسع عشر ويكشف العديد منها، رغم أنها مصنفة

تقليدياً في عائلتين كبيرتين: فرنسية أو لاتينية، عن وجود أوجه اختلاف مذهلة في المضمون.

ولأن أياً من المخطوطات الموجودة لا يحمل توقيع كاتب الظل روستيتشيللو أو ماركو بولو، يقال عادة إن المخطوط «الأصلي» لم ينج من الزوال. وفي سائر عمليات نقل المخطوطات ثمة مشكلات أغلاط النساخ القابلة للتكرار، أو للمزيد من التشويش في عمليات النسخ اللاحقة، وفي كل ثقافة مكتوبة هناك تقاليد عريقة تحض على السعي المتخصص في مجال معاينة خطوط الكتابات القديمة توخياً للدقة. وفيما يخص المخطوطات البولوية، ثمة جملة من المشكلات الإضافية الناجمة عن الترجمة من لغة إلى أخرى وعن الأسماء الأجنبية غير المألوفة. وهذه المشكلات، مضافة إلى الفواصل الزمنية بين الأحداث، وتجميع العمل، وأبكر النسخ الباقية، أفضت إلى التباين الشديد في مضامين المخطوطات التي يراوح تعدادها بين 143 و 150.

أما أقدم الإشارات المؤرخة إلى النص فترد في ملاحظة ملحقة بمخطوطة فرنسية موجهة إلى شارل دوفالوا ابن الملك الفرنسي فيليب العادل. وهذه الملاحظة تقول إن مبعوث شارل،: تيبولت دي شيبوا، أخذ النسخة من ماركو بولو شخصياً في عام (1307 م): (حصل تيبولت دي شيبوا على هذه النسخة من ماركو بولو، مواطن مدينة البندقية والمقيم فيها في شهر آب من عام «1307 م»).[21]

ويبدو أن تيبولت حصل على العديد من النسخ من نسخته، وقد تعرف بنديتو إحداها في مجموعة تضم نصوصاً أخرى في الجغرافيا وأدب الرحلات، مثل رحلات السير جون ماندفيل ودليل أدرك البوردينوني، المحفوظ في بيرن الآن؛ غير أنه اعتبرها مخطوطة عائدة إلى القرن الخامس عشر مما يجعلها نسخة لاحقة عن إحدى النسخ. وعلى أية حال، فإن نص

تيبولت ليس هو الطبعة التي يجمع الخبراء على أنها «أفضل» النصوص؛ بمعنى أنه ليس إلا مخطوطة فرانكو ـ إيطالية أخرى، كُتبت في إيطاليا في النصف الأول من القرن الرابع عشر، وهي محفوظة الآن في المكتبة الوطنية[22] بباريس..[23]

هناك مجموعتان رئيسيتان مبكرتان من النصوص؛ ولعل الأقدم هي الفرانكو ـ إيطالية التي كانت أصل الترجمات إلى لغة البلاط الفرنسية واللغات اللاتينية، البندقانية، والتوسكانية. وبنديتو، الذي روى القصة الكاملة للمخطوطات المعروفة حتى عام (1928 م) في كتابه: **إل مِليُونِه**،[24] يقدم «شجرة نسب» مميزة للمخطوطات حيث توصف الباقية منها على أنها نسخة جيل ثالث أو رابع أو خامس عن طبعات مفقودة عديدة.[25]

أما الطبعة اللاتينية الأولى الباقية فقد اجترحها الراهب فْرَنْسِيسكو بيبينو من نسخة مكتوبة بإحدى اللهجات، ربما في حياة ماركو بولو لأن بيبينو هذا يقول إن العمل تم بعد عام (1315 م) ويضيف: «ترجمت كتاب ماركو بولو البندقاني إلى اللاتينية عن اللومباردية المبتذلة»..[26] وترجمة بيبينو هذه كانت إحدى الطبعات الأوسع تداولاً لكتاب **وصف العالم**.

إن المروّج الأول لأسطورة ماركو بولو كان جيوفاني باتِّيستا رَموزيو الذي توفي في عام (1557 م).. فقد أصر هذا على أنه استند إلى مخطوطة لاتينية قديمة لـ**وصف العالم** يعود تاريخها إلى عام (1438 م) لكن مضمون طبعته المنشورة مختلف تماماً عن مضمون طبعة بيبينو؛ (من المحزن أن العديد من أوراق رَموزيو التهمتها النيران في عام (1557 م) على ما يبدو، وبالتالي فمن غير المحتمل أن تعود نسخته اللاتينية الأصلية إلى الظهور).

أما حماس رَموزيو لماركو بولو فقد تولد من بحثه عن كتب تدور حول السفر والاستكشاف حين بادر إلى تصنيف مجموعة من هذه المؤلفات تمهيداً للنشر. فكتابه: **الأسفار البحرية والرحلات**، وفيه إحدى طبعات

كتاب ماركو بولو، طُبع عام (1559 م) بعد عامين من وفاته. وقد صدر الكتاب في وقت كان فيه الرحالة الأوربيون قد بدؤوا يصلون إلى زوايا العالم البعيدة. فكريستوفر كولُمْبُس (ومعه نسخة من كتاب ماركو بولو، إضافة إلى كتب رحلات أخرى) كان وصل إلى أمريكا في عام (1492 م) كما أن السير جون فروبيشر اصطحب عدداً من كتب الرحلات في العالم عندما قام باكتشاف خليج بافين عام (1576 م).(27)

يبدو أن القراء القابعين في البيوت بدؤوا يتذوقون أدب الرحلات ويستمتعون به فيما كان معاصروهم منشغلين باكتشاف العالم. فالجغرافي الإنجليزي ريتشارد هاكلويت (1551 - 1616 م تقريباً) قضى، مثل رَموزيو، سنوات من حياته وهو يجمع أخبار الرحلات التي نُشرت في عامي (1589 و 1590 م) في كتاب: **الأسفار البحرية والرحلات وعمليات النقل والاكتشاف الرئيسية للأمة الإنجليزية.**(28) وربما كان ماركو بولو وروستيتشيللو، لدى مبادرتهما إلى التعاون، يتوقعان اهتماماً شعبياً بالسفر والاستكشاف، ولكن الولع المتأجج بكتب الرحلات لم يتطور، لسوء حظهما، إلا بعد حوالي قرن كامل من الزمن.

وعلى امتداد حوالي أربعة قرون ظلت طبعة رَموزيو لكتاب ماركو بولو إحدى الطبعات الأكثر حيوية لأنها تضمنت قصصاً عن ماركو بولو، وحديثه القائم على المبالغة، وقصة عودته الرومانسية إلى البندقية، مروية «بأفضل أساليب ألف ليلة وليلة»، حيث أخفق أفراد عائلة بولو في تعرف أقاربهم الملفوفين بالثياب البالية «مع مسحة تترية لا يعلمها إلا الرب».(29) وقد أورد رَموزيو عدداً كبيراً من المقاطع التي لا تظهر في أية طبعات أخرى باقية، مثل أحزمة الرهبان الشافية في سان بارسامو بتبريز،(30) وصف مدينة هانغجو الصاخبة، وزواج جنكيزخان من ابنة (الأب يوحنا). وهذا الأخير كان مستحيلاً بالتأكيد لأن (الأب يوحنا) لم يكن إلا أسطورة وبالتالي فإن ابنته كان يتعذر عليها هي الأخرى أن تكون من لحم ودم. وعلى أية حال

فإن زوج جنكيزخان كانت شهيرة، ولكن تلك كانت طريقة بارعة لأنها إحدى قصص المعارك المتصلة الطويلة بين الخان و(الأب يوحنا).[31] ولعل إحدى أكثر الفقرات المميزة المتناغمة حقاً مع الطابع المثير لهذه الطبعة في نسخة رَموزيو هي الفقرة الطويلة التي تصف قصر جنكيزخان وسراريه (جواريه) والأسلوب المتبع في انتقائهن..[32]

وأن تكون طبعة رَموزيو، وهي مستندة إلى مخطوطة لاتينية مفقودة ومنشورة بعد موت ماركو بولو بما يزيد على مئة سنة، أشمل وأكثر إثارة للاهتمام من مخطوطات باقية أقدم منها، أمر يدعو للقلق. ويبدو من المحتمل أنه أدخل مواد إضافية ليجعل العمل أكثر إثارة. صحيح أن بعض ما أضافه، مثل قصة العودة الرومانسية إلى البندقية، مقبول كجزء من «أسطورة» ماركو بولو نفسه، ولكن إقحام مقاطع طويلة عن جواري جنكيزخان وقصره المزين بسخاء وبذخ في صلب النص أمر أكثر خطورة. ولما كانت المخطوطة اللاتينية، التي زعم أنه اعتمدها، قد تَلِفَتْ، فإن الاهتداء إلى هوية كاتب هذه المقاطع بات مستحيلاً، ولكن احتمال أن يكون ماركو بولو أو روستيتشيللو هو الكاتب أمر غير وارد. ولعل راموزيو كان يشعر بأنه كان يقدم المساعدة للبطل عن طريق جعل الكتاب أشمل وأكثر إثارة للاهتمام.

وطبعة رَموزيو تلك ليست الوحيدة التي بدت متعرضة لعملية «التحسين». فثمة طبعة لاتينية أخرى، من الواضح أنها مترجمة عن الفرانكو - إيطالية أو الرومانسية ومنسوخة في القرن الخامس عشر، تم اكتشافها في مكتبة كاتدرائية طليطلة عام (1932 م). وهناك مقارنة أجراها السير إدوارد دنيسون روس (دبلوماسي، أمين مكتبة، محاضر جامعة بالفارسية، «1871 - 1940 م») تلقي الضوء على مدى تعقّد العلاقات حتى بين المخطوطات الأشمل. وقد أشار روس هذا إلى أن مخطوطة طليطلة تضم مئتي فقرة غير موجودة في مخطوطة المكتبة الوطنية، غير أن ثلاثة أخماس تلك الفقرات ترد في نسخة رَموزيو المطبوعة، وثمة ما يقرب من ثمانين فقرة تنفرد بها

مخطوطة طليطلة. وإحدى هذه الفقرات هي تلك الطويلة التي تصف روسيا والتي لا يفترض أحد أن ماركو بولو زارها. ودون مساءلة عن سبب إضافة هذا البلد البعيد غير المهم، يقول روس ببساطة إن «أحداً لا يستطيع إلا أن ينبهر إزاء دقة ووفرة التفاصيل التي يتعذر أن تكون مختلقة».[33]

وأفضل الطبعات الحديثة للعمل، مثل طبعات لَثَم ومول وبِليُوت، تتضمن فقرات من طبعات مختلفة، وتعوّل كثيراً على رَموزيو ومخطوطة طليطلة لسبب بسيط هو أن العديد من «أفضل» الفقرات لا ترد، على ما يبدو، إلا في الطبعات المتأخرة منها (القرن الخامس عشر) حيث يجري الإتيان مثلاً، على ذكر «أشباه المسيحيين» أو المانويين في فوجو الذين لا نجدهم إلا في مخطوطة طليطلة، وحيث يرد وصف رَموزيو المسهب لهانغجو.[34] ومن السهل أن نقف على ملابسات اجتراح طبعة مثيرة لدى النظر إلى ترجمة مول وبِليُوت، حيث ينطوي التباين المربك للمخطوطات المعتمدة لإبداع نص متناسق ومثير على إيراد ما يصل إلى أربعين إشارة لطبعات مختلفة في كل صفحة.

ولتحديد عدد الكتاب المشاركين في عملية تصنيف النص جرى إخضاع طبعات مختلفة لـ**وصف العالم** للتحليل الحاسوبي،[35] فتم الكشف عن التباين المفرط في استخدام المفردات وتوصل المحلل إلى استنتاج يقول بأن كاتب ظل ثان ربما حل محل نظيره عند إحدى النقاط. وهذا أمر يصعب تقديم البرهان القاطع على صحته لأن أياً من النصوص المحللة ليس «أصلياً»، ليس مكتوباً بخط يد ماركو بولو بالذات. وإذا أخذنا عاملي مرور الزمن والتطور السريع للمعرفة عن الشرق في العصر الوسيط بنظر الاعتبار، فإننا لا نستطيع إلا أن نستنتج أن الطبعات الباقية تتضمن إضافات آخرين إلى نص أساسي ما ضاع منذ زمن طويل، كما بين بنديتو، فلم يعد معروفاً إلا عبر نُسَخ النُّسَخ.

وهناك طبعات بديعة **لوصف العالم** تضم رسوماً مأخوذة من مخطوطات تعود إلى القرن الرابع عشر، تصور الأخوة بولو، الخان والعديد من الأماكن الموصوفة. ولعل أجمل الرسوم موجودة في «النص الأفضل» المحفوظ في المكتبة الوطنية والذي كان، ذات يوم، عائداً لدوك دو برّي،(36) وفي مخطوطة أواخر القرن الرابع عشر المحفوظة في المكتبة البودليانية بأكسفورد، التي هي تصنيف يشتمل أيضاً على كتابات رحلات تبشيرية مثل تلك العائدة إلى أُدرك البوردينوني مع إحدى حكايات الاسكندر الأكبر. ولكن هذه الرسوم، على سحرها، تبقى مضلّلة لأن تاريخها يعود إلى ما لا يقل عن مئة سنة أو أكثر بعد الأحداث. وتنطوي هذه الرسوم، ولاسيما تلك التي تصور عدداً من الحيوانات الخرافية مثل الرخ والغرفين ووحيد القرن (أو الكركدن السومطري المهجّن؟) على قدر استثنائي من الجاذبية، كما تنبئنا عن خيال العصر الوسيط المتأخر وإيمانه بالحيوانات الخرافية، وبالبلاد المأهولة ببشر لا رؤوس لهم، أكثر من اطلاعنا على الصورة التي كان من المحتمل أن يبدو فيها الأخوة بولو فعلاً.(37)

1- Roland Latham, *Marco Polo: The Travels* (Harmondsworth, 1958), pp. 33-4.

2- Colonel Sir Henry Yule, *The Travels of Marco Polo: The complete Yule-Cordier edition* (1903, 1920; New York, 1993), vol. 1, p. 58; and John Citchley, *Marco Polo's Book* (Aldershot, 1992), pp. 2-8.

3- Amenities of Literature.

4- Luigi Foscolo Benedetto, *Il Milione* (Florence, 1928), p. xviii.

5 - نسبة إلى الملك الأسطوري الإنجليزي آرثر - (ف. ج).

6- Michael Prestwich, *Edward I* (London, 1988), p. 6.

7- Ibid., p. 118.

8- Meliadus.

9- Ibid., p. 118.

10- Ibid., p. 120.

11- Leonardo Olschki (ed.), *Il Milione* (Firenze, 1928).

12- Il milione.

13- Corte de Milione.

14- Yule, *The Travels*, vol. 1. Pp. 5-6. See also Sir Edward Denison Ross, *'Marco Polo and his Book'* (London, 1938).

15- Latham, *Marco Polo*, p. 33.

16- Jaques Heers, *Marco Polo* (Paris, 1982), pp. 277-8.

17- Ramusio, quoted in Yule, *The Travels*, vol. 1, p. 4.

18- Thirteenth-century author of *Imago Mundi*, a collection of travellers' tales, quoted in Luigi Foscolo Benedetto, *Il Millione* (Florence, 1928), p. cxciv.

19- Latham, *Marco Polo*, p. 33.

20- A. C. Moule and Paule Pelliot, *Marco Polo: The Travels* (London, 1938), vol. 1, pp. 509-520; and Shinobu Iwamura, *Manuscripts and Printed Editions of Marco Polo's Travels* (Tokyo, 1949).

21- Benedetto, *Il Milione*, p. xxxix.

22- Bibliothque Nationale.

23- Latham, *Marco Polo*, pp. 24-5.

24- Il Milione.

25- Benedetto, *Il Milione*, p. lxxv. His list is summarised with the inclusion of the Toledo manuscript in Moule and Pelliot, *Marco Polo*, vol. 2, p. 509.

26- Ibid., p. cix. Ramusio said the version was produced in 1320, though according to the Yule, citing Pipino, it was possibly slightly earlier, some time after 1315, see Yule, *The Travels*, vol. 1. p. 25.

27- C. W. R. D. Moseley (ed.), *The Travels of Sir John Mandeville* (Harmondsworth, 1983), p. 9.

28- Jack Beeching (ed.), Richard Hakluyt: *Voyages and Discoveries* (Harmondsworth, 1983), p. 19.

29- Latham, *Marco Polo*, p. 16.

30- Ibid., p. 58.

31- Ibid., p. 96.

32- Moule and Pelliot, *Marco Polo*, vol. 1, pp. 205, 206.

33- Ibid., vol. 1, 49.

34- Latham, *Marco Polo*, pp. 25-6.

35- Critchley, *Marco Polo's Book*, p. 12, et seq.

36- J. P. Desroches, *Visiteurs de l'Empire Celeste* (Paris, 1944), plate 18.

37- R. Wittkower, 'Marco Polo and the Pictorial Tradition of the Marvels of the East' in R. Wittkower, *Allegory and the Migration of Symboles* (London, 1977).

7) لغة النص

باستثناء رَموزيو، تتفق الأكثرية على أن لغة المخطوطة الأصلية المفقودة لـوصف العالم كانت بالضرورة إحدى اللهجات القروسطية للفرنسية، «لغة فرنسية قديمة جداً وفظة»، كما يقول موري،[1] لأنها اللغة التي كانت الأكثر طبيعية بالنسبة إلى كاتب الظل روستيتشيللو. ومع ذلك فإن رَموزيو بقي مصراً على أنها كانت لاتينية، بينما رأى آخرون أنها كانت باللهجة التوسكانية بالضرورة.[2] وفي تاريخ مبكر يصل إلى عام (1827 م) قام الباحث الإيطالي بالديللي بوني بمقارنة أقدم المخطوطات الفرنسية والإيطالية الباقية وكشف عن الطابع المحرف للمجموعة الثانية، أي: الإيطالية. فالترجمة عن الفرنسية أو الرومانسية إلى اللهجة الإيطالية قادت إلى بعض الأغلاط الخالية، بالضرورة، من أي معنى ذي شأن في عدد من المواقع: جرى قلب وصف مدينة كُسيَنغْيَنْغ أي «تريه نوبل سِيتِه»[3] بمعنى «المدينة الأكثر نبلاً» إلى «دِلاّ تريه نوبليه تشيتا»[4] بمعنى «ثلاث مدن»، و«اِبه»[5]، بمعنى «الوحل» إلى «بُلز»، أي «ثيران»، و«فِيلز»[6]، أي «السُمّار المخلصون» إلى «فِلز»[7]، أي «أبناء».[8]

ولدى قيام روستيتشيللو بالكتابة، لم تكن اللغة الفرنسية كما نعرفها قد تطورت تطوراً كاملاً. ولعل أفضل وصف لهذه اللغة بعد الاطلاع على المخطوطات القديمة الباقية هو أنها «فرانكو ـ إيطالية» لأنها وقعت بين الاثنتين. والمترجمون الأوائل واجهوا صعوبات معينة، ربما لأن استعمال روستيتشيللو للغة لم يكن، على ما يبدو، متزمتاً. فثمة دراسة جادة لأسلوب

روستيتشيللو تلاحظ «طَلّيَتَة» الأواخر الصوتية، مع وجود «التباسات» ذات شأن. وقوائم صيغ الأفعال الموجودة تبين مدى الحرية المفرطة التي كان التعامل مع اللغة يتميز بها. ففعل «يطهو» يرد في الصيغ التالي ذكرها، بما فيها المصدر وصيغ الماضي المختلفة:[9] (بين المطبوخ والساخن؟)..؟. وقد قام أحد الخبراء بإخضاع العديد من المقاطع المأخوذة من طبعات النص المختلفة للتحليل الحاسوبي فوجد أن العمل ربما كتبه عدد من كتاب الظل فأدخل كل منهم نهايات الأفعال المفضلة لديه إلى الكتاب،[10] بدلاً من أن يقرر أن روستيتشيلو كان، بالضرورة، مفتقراً إلى التناسق. وإذا سلمنا بمنهج التصنيف الموصوف في المدخل، فإن وجود سيل من المتعاونين أمر يصعب تصوره، حتى مع توسيع شروط «الاعتقال المنزلي»، كما أن العمل على تطوير اللغات الرومانسية يشي بقدر غير قليل من السلاسة. وبما أن المخطوطة «الأصلية» لم تعد موجودة، على أية حال، والطبعات الباقية تبدو موسعة في العديد من الحالات، فإن من الصعوبة بمكان تعقب الاستخدام اللغوي المتباين بصورة مطردة. ومع ذلك فإن اللغة، رغم أنها تعاني عدم الاتساق في صيغ الأفعال ونهاياتها، سهلة القراءة تماماً ومسلية جداً، وأيسر على الفهم من لغة الإسبرانتو بما لا يقاس.

وثمة جهد هائل في دراسة لغة النصوص بذله بول بِليُوت (1878 - 1945 م) الذي يعتبر أحد أشهر المتخصصين الفرنسيين في الشؤون الصينية، حيث قام في بداية حياته العملية برحلة عبر آسيا الوسطى، مثل الأخوة بولو، ولو بحثاً عن وثائق وآثار عن حضارات بائدة سبق لها أن ازدهرت في المنطقة قبل قرون من صعود المغول في القرن الثاني عشر.[11]

وقد تعاون بِليُوت هذا مع إنجليزي اسمه آ. ك. مول على إنجاز ترجمة جديدة لـ**وصف العالم**، أوحى بها الاكتشاف الحديث للطبعة اللاتينية العائدة إلى أوائل القرن الخامس عشر التي هي «مخطوطة طليطلة»، بمحتوياتها الجديدة المدهشة. ومساهمة بِليُوت في هذا الجهد المشترك

كانت مجلدين من الملاحظات حول أسماء الأماكن والأشخاص الواردة في مختلف المخطوطات والإصدارات المطبوعة. وقد كشف بِليُوت عن اختلافات كبيرة في التهجئات أفضت إلى قدر مماثل من الاضطراب، ولكن أكثر استنتاجاته إثارة للاهتمام كانت تقول إن أكثرية الأسماء المستعملة في النصوص كانت، مهما اختلفت تهجئاتها، مستندة إلى كلمات فارسية.[12]

وملاحظات بِليُوت مرتبة أبجدياً يتصدرها عشرة إلى عشرين بديلاً وارداً في مختلف النسخ المخطوطة. فكلمة «فاكفور»[13] التي يعتبرها «نقلاً صحيحاً عن الفارسية... تسمية شائعة لإمبراطور الصين في المراجع الإسلامية»، ترد في القائمة على أنها أخذت شكل فاكفُر بالفرنسية (أو الفرانكو ـ إيطالية كما يدعوها مول) وأليفُر أو فاتفُر[14] في بعض الطبعات البندقانية، وفانفُر[15] عند رَموزيو، وسكافودجي[16] في طبعة بندقانية محفوظة في لوكا، وسِيبِيفِي[17] في طبعة ألمانية كتبها ناسخ شارد الذهن.

تلقي هذه الاختلافات الهوجاء الضوء على مشكلات نقل المخطوطات لأن من شأن الناسخ المفتقر إلى الدقة أن يغير المعنى بشكل حاسم أو يخلق تشويشاً كاملاً. والنقل الشاذ لأسماء الأعلام ربما لم يكن مشكلة كبيرة بالنسبة إلى قراء القرن الخامس عشر، لأن هذه الأسماء الغريبة كانت عجيبة في خلوها من أي معنى، بصرف النظر عما إذا تمت كتابتها بشكل جيد أو رديء، ولكن ورود كلمتي سكافودجي وفوسكور،[18] كلتيهما، في نسخة لوكا كان من شأنه أن يدفع قراء هذه النسخة إلى الاعتقاد بأن ابن السماء الصيني كان يُلقَّب بالعديد من الأسماء العجيبة وغير القابلة للفهم.

والاستعمال الواسع لأسماء الأعلام الفارسية أو العربية أو التركية يشكل أحد الألغاز الرئيسية الأولى لكتاب ماركو بولو، كما في قيام الكاتب باستخدام كلمة فارسية للدلالة على إمبراطور الصين وأنت تتوقع منه، ربما،

أن يكون قد استخدم كلمة مغولية أو صينية مكتسبة خلال أعوامه السبعة عشر في البلاط بيكين.

من الممكن، على أية حال، أن يكون أحد أسباب استبعاده اللغتين الصينية والمغولية كامناً في الاستخدام القروسطي للغات عالمية مختلفة، لأن المتطلبات العملية للاتصال بالأجانب كانت، كحالها اليوم تماماً، تفرض اعتماد لغات «مشتركة» في العصور الوسطى. ومما قد يثلج صدور الفرنسيين (الذين بادروا مؤخراً، لمواجهة عملية الأنْجلَزَة المفرطة للغتهم، إلى استصدار تشريع يصر على أن الفرنسية يجب أن تكون لغة جميع المؤتمرات الفرنسية) أن الفرنسية كانت في العصر الوسيط، عملياً، لغة عالمية في أجزاء كبيرة من أوروبا وقد استخدمها الحجاج والصليبيون الأوربيون في الأراضي المقدسة. ومن الواضح أن الفارسية والتركية كانتا مستعملتين استعمالاً مماثلاً إلى جهة الشرق وصولاً إلى مواطن المغول الأصلية لأن تجاراً ورهباناً يتحدثون اللغتين الفارسية والتركية كانوا مسيطرين على الطرق التجارية العابرة لآسيا الوسطى.[19]

ومعظم من كتبوا عن ماركو بولو يتفقون على أن اللغة السائدة فيما يخص أسماء الأعلام هي الفارسية. وليوناردو أولشكي، هو الآخر، يؤكد أن الفارسية كانت اللغة التي استخدمها الأجانب العاملون في خدمة المغول على الرغم من أنها لم تكن تتمتع بالمكانة الرسمية التي كانت للغة الأويغورية التركية.[20] وثمة أيضاً اتفاق عام على أن ماركو بولو ربما كان يعرف الفارسية التي كان من شأن إتقانها، في عائلة احترفت الاتجار مع القرم وما وراءه، مهارة مفيدة، إن لم نقل ضرورية. وبالتالي فإن استعمال كلمات فارسية ليس غريباً بالضرورة. وفي أحد النصوص يتحدث ماركو بولو عن «مسلم حكيم»[21] أطلعه على أحياء فوجو. ولا بد من افتراض أنهما تحدثا بالفارسية، كما أن ذلك، وإن كان تلميحاً وحيداً إلى وجود مترجمين وأدلاء، يثير السؤالين التاليين: أولاً، كيف كان الرحالة يشقون

طريقهم عبر آسيا الوسطى؟ وثانياً، من أولئك الذين كانوا يصطحبونهم معهم؟

إن مشكلة الترجمة هذه آثارها جون البلانوكاربيني الذي أوفده البابا إنوسِنْتْ الرابع في عام (1246 م) إلى بلاط خان المغول غويوغ (حفيد جنكيزخان).[22] فرسالة البابا إنوسِنْتْ المكتوبة باللاتينية والمترجمة إلى المغولية لغويوغ من قِبَل كَتَبة بلاطه، كانت تعبر عن القلق إزاء قيام المغول بذبح الهنغاريين وغيرهم من المسيحيين وتدعو خان المغول إلى اعتناق الديانة المسيحية والتعمد.

وبعد كتابة مسودة الرد بالمغولية، يبدو أن غويوغ سأل عما إذا كان لدى البابا من يستطيع أن يقرأ بالمغولية أو الفارسية أو الروسية، فأجاب الراهب جون قائلاً إن هذه اللغات لم تكن دارجة وطلب أن يقوم كتبة البلاط بشرح مضمون المسودة له هو حتى يتمكن من ترجمته إلى اللاتينية هناك وعلى الفور. وهناك إشارة إلى النسخة اللاتينية في محفوظات الفاتيكان التي ،تحوي طبعة فارسية. أما مضمون المسودة فلم يكن معبراً عن تطلعات البابا المحتملة. فبدلاً من قبول السيادة البابوية كان غويوغ يطالب البابا بموالاة المغول والمجيء إلى بلاطه لتلقي الأوامر المغولية. ومما قاله الخان في الرسالة إن موت الهنغاريين لم يكن، مثله مثل سيادة المغول، إلا تعبيراً عن «مشيئة الرب».[21] وأسرة غويوغ، مثلها مثل حاشيته، كانت تفضل المسيحيين النسطوريين الذين ربما كانوا، حسب أقوى الاحتمالات، يعملون لغويين في سلك الترجمة بين اللاتينية والمغولية لأن من المفروض، وهم من أصل شرق أوسطي بالدرجة الأولى، أن يكونوا عارفين بالاثنتين.

أما وِلْيَم الرُّبرُكي المسكين (الذي كان في منغوليا بين عامي «1253 و 1255 م») فقد ذاق المر من مترجم كان دائم السكر، الأمر الذي حرم

وِليَم الرُّبرُكي معرفة ما إذا كانت آراؤه منقولة إلى الخان بشكل صحيح...[24]

من الممكن أن يكون الأخوة بولو قد سافروا مع مترجمين نسطوريين أو مع آخرين من التجار الفرس مما قد يفسر طغيان المفردات الفارسية أو التركية. ويناقش بِليُوت عدداً كبيراً من الأسماء الدالة على الأشياء والمترجمة إلى كلمات أوربية مستخدمة، مع أن هذه نفسها لا تمثل في الغالب إلا اقتباسات مبكرة من الفارسية، تعكس لغة التجار الذين كانوا أوائل من جلبوا تلك البضائع إلى أوروبا الغربية. فكلمة «كَلَمَنْز»، (والتي تعني الحبّار أو المحبرة) كانت «لاتينية أو فارسية»؛ وكلمة «أزُورو، أزُورُّو» أو «أكُور» كانت تعني اللازورد، وهي دلالة معروفة ومقبولة على لون المادة؛ وكلمتا أمْبْرَا أو أمْبْرُم تعنيان العنبر، وهما شديدتا الشبه بالكلمتين اللتين مازالتا مستعملتين في اللغتين الفرنسية والإيطالية، وخشب الكافور يطلق عليه اسم كَنفُور أو فَنسُور، استناداً إلى اقتباس من اللغة العربية الدارجة في ذلك الزمان، على الرغم من أن كلمة فَنسُور قد تكون ملتبسة بالمصدر (في سومطرة). وكذلك يجري تحريف كلمة كريموزي (كَرموزي، كَارِمكسيني) إلى كلمة كَرَمْوَازِي الفرنسية وكرِمزُن الإنجليزية، وهي كلمة تدل على أحد الألوان ومقتبسة منذ زمن طويل من التركية (ربما العربية) ومستعملة بشكل واسع للدلالة على القماش ذي اللون الأحمر الفاقع.

لعل إحدى أكثر الكلمات المستعملة في النص إبهاراً هي كلمة «بورسلين»[25] (بورسِيلِن، بورسِلانِه، بورسِلّنا، بورسِليانِه). واستعمالات الأخوة بولو لها تعكس الالتباس الحاصل آنذاك بين المحارات التي كانت تستخدم في إفريقية والصين القديمة كشكل من أشكال النقد (وقد دام استخدامها في إقليم يونان إلى القرن الثالث عشر) من جهة، ومن جهة أخرى بين الخزَف الصيني الذي ما زال معروفاً باسم «بورسلين»؛ وكلاهما

كانا في أوروبا يعرفان بالاسم نفسه الذي كان يدل أيضاً على الخزف، محدثاً قدراً من الالتباس بين وعاء عِرْق اللؤلؤ ونبات الرِّجلة العشبي. وماركو بولو نفسه يستخدم الكلمة ذاتها للدلالة على كل من أصداف الوَدَع والخزف. وهذه الكلمة تتمخض عما يقرب من ثماني صفحات من الكلام المسبوك سبكاً محكماً من قبل بِليُوت،[26] الذي يناقش استعمال المصطلح «بورسلين» للدلالة على أصداف الودع إشارة إلى أنها شبيهة إما بظهر الخنزير (بوكوس: خنزير باللاتينية) أو عضو التناسل النسوي (بوسيلاج: عذر، بكارة، بتولة بالفرنسية). ويبدو أن أصداف الودع استوردت إلى أوروبا الغربية قبل كتابة **وصف العالم** لأنها واردة في «**كونسلات دِل مار**» (الصادر في مدينة برشلونة حوالي عام 1250 م). كما أن استعمال عبارة بورسلين للدلالة على الخزف الصيني، أي (السيراميك) ملحوظ في سياق وصف البضاعة من قبل الرحالة العربي سليمان (القرن التاسع). ومثل هذا الالتباس في التسميات ربما أفضى إلى اعتقاد أوربي دام طويلاً بأن الخزف الشفاف، الرنان، والغامض بروعته، كان مصنوعاً من الصدف المسحوق، مع أنه كان، في الحقيقة، مصنوعاً من صلصال خاص، وهو ما لم ينتبه إليه الأوربيون حتى عام (1712 م) بفضل تقرير كتبه الأب اليسوعي دانتركول.[27] ولسوقنا إلى المزيد من التشوش حول أصل الكلمة، يقوم بِليُوت باقتباس وصف يكاد يكون معاصراً لماركو بولو جاء في كتاب **ليبِّلوس دي نوتيتا أوربيس**[28] (الصادر عام 1402 م) يقول إن المادة، أي :البورسلين، كانت تعرف باللاتينية باسم بورسِلاَنُم، لأن آنية رمادية مائلة إلى الخضرة من الخزف من النمط المعروف الآن باسم سِلادون؟[29] كانت بلون العشب.[30]

وثمة مفردة أخرى تجعل البروفيسور بِليُوت يسوِّد صفحات في استرجاع البنية اللغوية المعقدة ألا وهي كلمة «كَمْلِت»[31] (كامبِلُّوتي، شاميل، دجيانبلُّوتِّي، زَمبِلُوتِّي، الخ......)[32] الدالة على نوع من القماش. وقاموس

الدكتور جونسون يحدد معنى كلمة «كَمِلُت»[33] على أنه «حرير أو وبر الجمل؛ كذلك كل أصناف الحرير أو المخمل، خصوصاً الناعم أو الرقيق». أما بِليُوت فيميل إلى معنى وبر الجمل ويشير إلى أن جون الماريني ولي (المبعوث البابوي إلى الخانات بين عامي «1330 و1340 م») جلب معه عند عودته عباءة من الكَمَالِّي،[34] لم تكن، حسب كلامه، مختلفة عن تلك التي كان يوحنا المعمدان يلتف بها، وربما شبيهة بالملابس التي ظُن أن آدم وحواء كانا يرتديانها، وإن كنت، شخصياً، أعتقد أن مشكلاتهما نشأت من الافتقار إلى الثياب.

وهناك كلمة نسيجية محيرة أخرى هي «سِندَل»[35] الدالة عادة في النصوص العائدة إلى العصر الوسيط على التفتة الحريرية (وترد بصيغة زِندَادو[36] في دليل بيغيلوتي التجاري). ففي مصارعة بين ابنة قايدو العملاقة (من نسل تْشَغَاتّاي بن جنكيزخان) وزوج محتمل (سيتزوجها إذا فاز) يقول ماركو بولو وروستيتشيللو، كلاهما، إن المتصارعين كانا مرتدين ثياباً من «السِندَل».37 ولكن النص يثير شكوك بِليُوت الأكثر ميلاً إلى تفضيل مكتب زاخر بصفوف الكتب على مواجهة بطلات مصارَعة من العمالقة. ومضاعفات اللباس يعاينها بِليُوت عبر هذا الأسلوب العجيب في اختيار الأزواج ويتأمل أفضليات التفتة الحريرية على الجلد (الذي يرد في اثنتين من المخطوطات) «قد لا تبدو التفتة مادة ملائمة جداً للمتبارين في أية مصارعة، غير أن الجلد ليس أكثر، بل أقل، ملاءمة، وعلينا أن نبدي ما يكفي من التسامح إزاء وقار المسابقة ونوعية المشاركين...».[38] وبصرف النظر عما إذا كانت ملفوفة بالحرير الناعم أو محمية بالجلد، فإن الأميرة فازت بنقطتين مقابل لاشيء ولم تتزوج قط، مفضلة مرافقة أبيها في الحرب وقلب عادة الاغتصاب والسلب الذكورية المألوفة رأساً على عقب عن طريق اختطاف الفرسان وجلبهم إلى خيمتها هي.[39]

وبعض الكلمات التي لها علاقة بالمغول والواردة في النص كانت وردت

لدى عدد من الكتاب مثل وِلْيَم الرُّبرُكي وجون البلانوكاربيني. فلبن الفرس المخمر، أي «قُمُز»،[40] الذي كان المغول يشربونه، يرد بصيغ مختلفة مثل تشرانِس (غُومِس، تشِيمينز، وتشِيْنُس)[41] في تنويعات على أوتار كلمة قُمُز التركية (كُمُس عند وِلْيَم الرُّبرُكي). والكلمة المغولية هي أسوك أو أُسُوك، ولكن صيغتها التركية كانت قد انتقلت إلى الفارسية والعربية في وقت مبكر.

ويسلم البروفيسور بِليُوت بأن المفردات هي شرق أدنوية خالصة في العديد من المناسبات. فالقطاة (الطيهوج)[42] وهو طائر يكثر وجوده في الأقاليم الصحراوية، واسمه في اللغة الصينية شَجِي، أي (دجاج الرمل) يشار إليه على أنه باغرلاق، وهي تسمية تركية. ومن السهل أن نتصور رحالة إيطاليين رأوا طائراً في الصحراء فسألوا زملاءهم الرحالة ممن سبق لهم أن عرفوا ذلك الإقليم (ويبدو استدلالاً أنهم من أصل شرق أدنوي) عن الطائر واعتمدوا اسمه على أنه باغرلاق.

وللأسماء الشخصية المذكورة، ولاسيما الصينية والمغولية منها، أهمية خاصة. فمع أن ماركو بولو أمضى في الصين في خدمة الخان سبعة عشر عاماً، فإن بِليُوت الذي يعاين ستين أو أكثر من الأسماء الشخصية لا يكتشف إلا ثلاثة في صياغات صينية غامضة. أما أكثرية الأسماء الأخرى فهي مغولية يتكرر تطابق صياغاتها مع نظائرها الواردة عند الكاربيني ووِلْيَم الرُّبرُكي، كما لدى الفارسي رشيد الدين (1247 ـ 1317 م). وقد كان رشيد الدين معاصراً لماركو بولو بصورة شبه مطابقة، ويبدو أن تاريخه عن المغول كُتب للمرة الأولى في عام (1306 / 1307 م) بعد انقضاء ما يزيد على العقد من إبداع **وصف العالم**. وبالتالي، فإن أوجه الشبه بين كتابي رشيد الدين وماركو بولو، من حيث المصطلحات والأغلاط على حد سواء، مصادفات متزامنة، غير أنها تبدو مشيرة إلى أن صياغات فارسية لأسماء مغولية كانت قد باتت دارجة.

وفي فصل عن الصين بالذات يرد ذكر اسمين هما لي تان ووانغ جو، من الثلاثة التي تبدو صينية. أما الثالث، أي فونسامسين، فيرد في فقرة لها علاقة باليابان التي يتفق الجميع على أن الأخوة بولو لم يزوروها.

كان لي تان (الذي يرد اسمه على شكل بيتان، سَنغُون، لْيَاسِن، ليتام سَنغُن، لُوكَنسُر ولُوفا) ابن لي كوان (توفي في عام «1231 م») مفاوضاً بارعاً سبق له أن قاتل لصالح حكومة سُنغ الصينية وكوفئ بمنصب رسمي في عام (1218 م) مكنه من بناء قاعدة نفوذ شخصي كبير، ولكنه ما لبث في عام (1227 م) أن استسلم للمغول الذين غزوا شمال الصين، فكوفئ بمنصب آخر في إقليم شَندُنغ. وبعد وفاته في يَنْغْجُو عام (1231 م) في هجوم شنه جيش سُنغ الجنوبي، خَلَفَه ابنُه (يقال بالتبني) لي تان في شَندُنغ حيث قام في عام (1262 م) بتجريد جيش خاص به، ولكنه ما لبث أن حاصره في جينان (عاصمة إقليم شَندُنغ) شي تاينزي وقُتل.[43] ورواية ماركو بولو الواردة في عدد كبير من المخطوطات، تخطئ بعشر سنوات من حيث التاريخ (أي في عام 1272 م) كما تخطئ من حيث المكان حيث تقول إن الحدث جرى في دونغينغفو، بل تزيد من تشويش القضية إذ تقول إن لي تان أُعدم مع آخر اسمه نَنغيَتّاي.

ومسألة نَنغيَتّاي هذه «صعبة»[44] كما يقول البروفيسور بِليُوت. فثمة حوالي عشرة أشخاص باسم نَنغيَداي (بالدال في صياغة مغولية أصح) يرد ذكرهم في يوآن شي (تاريخ سلالة يوآن) وهو التاريخ الرسمي الذي صنَّفته سلالة مِنغ التالية على أساس المحفوظات الرسمية، يُعزى لأحدهم فضل التميز بأسر لي تان وإعدامه، بدلاً من تعرضه للإعدام معه. وهناك التباس آخر يلف قضية نَنغيَتّاي/ نَنغيَداي، ألا وهو ما إذا كان ماركو بولو يعني بالفعل مُنغَتّاي (وقد ورد عشرون بهذا الاسم في يوآن شي). وإذا كان بالفعل يعني مُنغَتّاي، فإن البروفيسور بِليُوت يلاحظ، وبشغف كبير، أن المُنغَتّاي الأقوى احتمالاً ربما لم يكن على أية علاقة بالحملة ضد لي تان.

ومع ذلك فإن البروفيسور بِليُوت يعتقد أن الغلط ربما نشأ من حقيقة أن جَدَّ مُنغَتّاي الذي كان قد عُين «مقيماً»، (وخلفه فيما بعد عم مُنغَتّاي) كان نظرياً أكثر أهمية من عائلة يان في دونغبِنغفو، على الرغم من أن هذه العائلة كانت تحكم دونغبِنغفو (الواقعة إلى الشمال من جينان مباشرة في إقليم شَندُنغ) وأن من شأن ذلك أن يكون قد تسبب ببعض أغلاط ماركو بولو، وإلا فماذا؟

أما وانغ جو (فانتشو) فلا يرد إلا عند رَموزيو، وهو اسم يلفه قدر من الغموض. فإلى وَنغ جُو هذا، مع صيني آخر، يُعزى فضل قتل أحمد (أكمَت) أقوى وزراء قوبيلاي خان في عام (1282 م). وهنا، مرة أخرى، يكاد تفكيك ملابسات الأسماء والأشخاص والأحداث أن يكون مستحيلاً خصوصاً أن المصادر الصينية تشي بأن رشيد الدين لم يكن أقل من ماركو بولو غرقاً في الفوضى والارتباك. فمن المعروف أن أحمد كان من مواطني مدينة باناكات القريبة من طشقند، وسيرته واردة في **يوآن شي**. وهو يوصف في سائر المراجع بأنه اعتمد السحر ليتمكن من التعايش مع قوبيلاي خان، فضلاً عن أن ماركو بولو يغوص في الكلام عن عادته المتمثلة باقتناص الحسناوات. ومن الواضح أن أحمد هذا استطاع أن يتدبر أموره طوال ما يقرب من عشرين سنة كحاكم ،فعلي لبكين، حتى قرر «كاتايانيان» (صينيان) أن يتخلصا منه في غياب قوبيلاي خان عن المدينة. وقد انطوت انتفاضة هذين الصينيين على الكثير من قتل ذوي اللحى (من المغول والمسلمين والمسيحيين، ولكن دون الصينيين حليقي الذقون) قبل تمكنهما من قطع رأس أحمد عبر خداعه وجعله يركع أمام شخص توهمه ابنَ قوبيلاي خان. والصينيان (الكاتايانيان) هما كِنتشو (غير وارد إلا عند رَموزيو) وفانتشو.[45] ورواية ماركو بولو تقول إن أم كِنتشو وابنته وزوجه تعرضن جميعهن للاغتصاب على يد أحمد،[46] وكان معه ألف رجل. ولصعوبة التوفيق بين كِنتشو وأي شخص صيني معروف، فإن بِليُوت

يفترض أن الكلمة ليست اسماً بل صفة :هي قيان هو[47] (وتعني ألف شخص أو عائلة بالصينية) أو كِليارتش[48] وهو لقب من يكون قائداً لألف من الجنود.

أما المتآمر الآخر، فانتشو، فيعطيه مول لقب ميريارتش[49] (قائد عشرة آلاف من الجنود) مع اعتبار «الاسم» فانتشو إحدى صيغ وان هو (التي تعني عشرة آلاف بالصينية). وثمة التباس ثانوي (نظراً للفوضى العامة) هو أن وانغ جو، إن كان هو ذاته، لم يكن، حسب ما تقول السجلات الصينية، ميريارتش بل تشيليارتش (وهو القادر على تجنيد ألف لا عشرة آلاف من الرجال). وإذا اعتبرنا فانتشو اسمه الشخصي، فإن من المعروف أن وَنغ جو شارك في مؤامرة استهدفت قتل أحمد، وبالتالي فإن رواية رَموزيو تصبح مؤيدة فيما يخص المضمون (وإن حصلت على علامات متدنية جراء الأغلاط الإملائية والحسابية).

ومما يدعو للأسف أن القصة لا تنتهي هنا. فوانغ جو والتشيليارك، أعدمهما حارس القصر الذي حال دون اغتيالهما. ويطلق رشيد الدين على الحارس هذا اسم طُرغان أو طَرغان، فيما يرد الاسم في طبعة رَموزيو لنص ماركو بولو على شكل كُغَتاي، وهو اسم مغولي يستنتج البروفيسور بيلبو، ولو على مضض، أنه «ورد خطأ»،[50] إذ يرى أن الشخص المذكور كان يجب أن يكون غاو ـ كسي (من المعروف أنه كان حاضراً وورد ذكره في يوآن شي). ويستبعد بِليُوت الرأي الذي يقول بأن كُغَتاي إن هو إلا صياغة صوتية أخرى لغاو ـ كسي، ويأسف لأنه كان يحمل اسماً مغولياً جيداً يخصه هو سيرا، أنعم به عليه قوبيلاي خان. وهناك مرشحان آخران معروفان من مراجع صينية قيل إنهما كانا حاضرين هما بُدُون المغولي، الذي لا يحتمل أن يكون قد حمل لقباً، وجْيَنغ جْيُوسِي الذي كان صينياً خالصاً دون أي اسم مغولي.

أما الاسم الشخصي «الصيني» الثالث الوارد فهو فونسَمسِن (الذي يرد في سلسلة من المخطوطات على شكل إيونسِمسَيم، نُنسَن، سَمِن، فونسَنهِم، فَنسَنكُن، وفوري). وما يلبث بِليُوت أن يحرفه ليجعله قائداً عسكرياً (توفي في عام «1301 م») اسمه: فان ـ وِنهُو انتقل إلى صفوف المغول وقاد، بأمر من قوبيلاي خان، حملة على اليابان في عام (1281 م) رُدت على أعقابها جراء أحد الأعاصير الاستوائية. أما عدم التطابق بين فان وِنهو وفونسَمسِن فيتم تفسيره بوجود عبارة مركبة مؤلفة من اسم عائلة فان ـ وِنهُو، وأحد ألقابه وهو كَنزِنغ (مستشار دولة). وحصيلة الحملة الكارثية يصفها ماركو بولو بحيوية بالغة، على الرغم من أنه يكاد أن يدمر التأثير عن طريق إيراد الاسم الآخر خطأ مرة أخرى، إذ يقول إن المستشار فان ـ وِنهُو كان مصحوباً بشخص اسمه «أبَكان».[51] أما بِليُوت فيترجم ذلك إلى ألَقَان (1233 ـ 1281 م) مع ملاحظة أن ألَقَان هذا كان شديد المرض بما حال دون اشتراكه في الحملة التي كان قد عُين قائداً لها، فحل شخص يدعى أتَهَاي محله. ويختتم بِليُوت كلامه عن أبَكان لصالح الشك قائلاً: «كعادته يغلط ماركو بولو الدقيق حول الأحداث الرئيسية والأسماء حين يصل الأمر إلى دور محدد اضطلع به كل من الأفراد».

وبالنسبة إلى الأخوة بولو كان متعذراً أن يعرفوا إلا واحداً من الصينيين الثلاثة المشار إليهم بأسماء صينية إن كانوا في بكين لدى اغتيال أحمد عام «1282 م». وبالنظر إلى غياب التواريخ ونصوص وصف الرحلات إلى يونَّان وبورما والجنوب، تستحيل معرفة ما إذا كانوا في العاصمة آنذاك. أما حوادث انتفاضة لي تان ووفاته فقد جرت قبل وصول الأخوة بولو المزعوم إلى الصين، ولما كانت المراجع كلها تتفق على أنهم لم يذهبوا قط إلى اليابان، فإن حملة المستشار فان المخفقة ما كانت قابلة لأن تصبح معروفة إلا عبر الأقاويل والإشاعات، أو من خلال روايات كتبها آخرون.

وتشكل الأسماء الجغرافية الوارد ذكرها في **وصف العالم** تعقيدات من

ناحية ترجمتها وتحديد مواقعها. ففي إطار العمل الذي يبدأ بجملة: «اسمحوا لي أن أبدأ بأرمينيا» وهناك من ترجمها على النحو التالي: «وأولاً عن هيرمينيا الصغرى»[52] وهو يغطي كل الأماكن من القسطنطينية إلى سومطرة مروراً بالهند وآسيا الوسطى، هناك عدد هائل من أسماء المواقع. وصياغة العديد من هذه الأسماء تتم بطريقة كانت مألوفة لدى معاصري ماركو بولو الأكثر حذلقة والأوسع ترحالاً. وقد قارن البروفِسور بِليُوت صياغات ماركو بولو بتلك الواردة في الخرائط المعاصرة والأخرى المستعملة من قبل رحالة معاصرين. ومازال التعرف على الكثير منها ممكناً؛ :بَوداك (بغداد) كَسكار (قَشغار) بابيلوني (وإن كان ماركو بولو يقصد مصر) بَنغالا (البنغال بنظر بِليُوت وإن خالفه آخرون) ترِبِسُند (طرابزون) موغِداكسو (ربما مقديشو) وجاوة. وبعض الأسماء كانت أكثر شهرة بسبب الصليبيين (القدس وعكا) والعديد من الأسماء مشتقة من العربية نتيجة النفوذ الكبير للرحالة العرب مثل أنغَمان (أندَمان) بَصُورة (البصرة) وكوتان (خوتان).

أما الأسماء التي كانت أقل شهرة فهي تلك العائدة لأماكن صينية، وبعضها يربك بِليُوت فيسجل في العديد من المناسبات أن الصيغة المعتمدة كانت «معروفة لدى الأوساط الناطقة بالفارسية». فالصيغ المعبرة عن محاولات رَومَنَة الأسماء الصينية لم ينفرد بها ماركو بولو وحده، بل ظلت تشكل محاولات فارسية للفظ هذه الأسماء. ومن أمثلة هذا النمط تشيماينفو بدلاً من كايِينغفُو، بيانفو بدلاً من بِنغينغفو، كونغيَنغفو بدلاً من كسيانفو، وتايانفو بدلاً من تياوانفو. ويرد عدد كبير من هذه الأسماء بصيغ مماثلة في كتاب رشيد الدين، مما يؤكد صحة نظرية بِليُوت التي تقول بأن تلك الصيغ كانت مستندة إلى تلك الدارجة بين الناطقين بالفارسية. فمن الأسماء التي تظهر بصياغة مماثلة لدى رشيد الدين: توندينفو بدلاً من دونغبينغفو، يَنغيو بدلاً من يَنجو، وغيوغيو بدلاً من جوجو. وهناك أمثلة

كثيرة ترد في كل من كتاب رشيد الدين، والرواية التي قدمها أُدُرِك البوردينوني، مثل فودجيو بدلاً من فوجو، سِنغوي ماتو بدلاً من كيِسنجو ماتو أو ميناء كيِسنجو، وتايدو بدلاً من دَدُو. وهناك أسماء هي نفسها لدى رشيد الدين ووِلْيَم الرُّبْرُكي، كليهما، مثل كاولي بدلاً من كوريا (ربما، انطلاقاً، من الاسم الصيني القديم لكوريا، أي: غاولي).

وقد وردت الصين نفسها بأسماء عديدة. فماركو بولو استخدم كلمة كَتَاي (أكاتِ، ألوتشايراي، أنكاسِس، أتان، تشَتّاو ولادوكاتا في مخطوطات مختلفة) أو كَتَاي، للدلالة على الصين الشمالية كما فعل كثيرون من معاصريه. ومن المعتقد أن الاسم مشتق من خيتان الدالة على قبيلة ألطائية أسست سلالة جين وحكمت شمال الصين من عام (905 إلى عام 1125 م). وكل من ماركو بولو ورشيد الدين، فضلاً عن رحالة آخرين، أطلقوا على الصين الجنوبية اسم مَنغي أو مَنزي، مفترضين (خطأ) في الغالب أنه مشتق من كلمة مانْيي الصينية التي كانت تعني: «البرابرة الجنوبيين». كما أطلق ماركو بولو على الصين اسم كِن (تشودجي، كينو، زينو، كيري) وهو أحد الاسمين اللذين كانت الصين تُعرف بهما في أوروبا، ويعتقد أنه مشتق من تسمية هندية بالغة القدم للصين مأخوذة من سلالة كين (221 - 206 ق. م)؛ والاسم الآخر هو سِرِس الدال على الحرير.

أما استخدام ماركو بولو لكلمة كامبالوك القائمة على المفردة التركية التي تعني: مدينة مَلَكية (هَن - بَلِق) للدلالة على بكين فقد كان طبيعياً تماماً لأن الاسم نفسه وارد عند كل من رشيد الدين وجون المونتكورفينو (1291 - 1293 م) وأُدُرِك البوردينوني (في عشرينيات القرن الرابع عشر) ومن الواضح أنها كانت شائعة في آسيا الوسطى وكانت تعني بكين في ذلك الزمان. وقد عُرفت بكين (وهي ترجمة يسوعية تعود إلى القرن السادس عشر لبِجينغ أو «العاصمة الشمالية») بأسماء كثيرة عبر تاريخها من يانجينغ (عاصمة السنونو) إلى جونغدو (العاصمة الوسطى) ونَنجِنغ (العاصمة

الجنوبية) مع أنها في أيام الأخوة بولو كانت معروفة لدى الصينيين باسم دَدُو، أي «العاصمة الكبرى».

وجسر وَنبِنغ الحجري الطويل المعروف لدى الأجانب باسم جسر ماركو بولو، وعند الصينيين (اليوم) باسم جسر لُوغُوكْيَاو، أو لُوغُو، يمثل أحد معالم بكين الحالية. أما الاسم الذي يطلقه ماركو بولو على هذا الجسر فهو بوليسَنغِهِن الذي ترجمه بِليُوت إلى «الجسر الحجري» بالفارسية، أو «جسر سَنغْغَن» بالفارسية ـ الصينية (لأن سَنغْغَن هو اسم النهر في ذلك العصر) وكان بِليُوت يعتبر العبارة ذات أصول فارسية قوية.

وثمة أغلاط في عدد من الأماكن: فبِليُوت ينسب كاسيونفو إلى هِجُنغفُو، في حين يضعها ماركو بولو على الشاطئ الخطأ للنهر الأصفر: قد تكون كايسيو هي جِيجُو أو جِيَنغْجُو، غير أنها في المكان الخطأ في الحالين؛ وفُوغون عند بِليُوت تتماهى مع يَنبِنْغ، ولكن المسافات والأزمان لا تكون، مرة أخرى، مناسبة؛ وبقدر أكبر من اليسر يجري إحلال فودجيو (وُجُو) محل لَنْجِي، مع أن الاسمين لا يتطابقان.

وماركو بولو لم يكن الكاتب الوحيد الذي غلط في أسماء المكان. فأحاديث رشيد الدين عن أماكن مثل إقليم يونان الجنوبي ـ الغربي كانت، هي الأخرى، غير دقيقة، ومن المثير أنها تبدو تكراراً لأغلاط ماركو بولو. أما اعتماد ماركو بولو التسميات الفارسية فمن شأنه أن يشي باحتمال تعويله على مراجع فارسية. ونحن نعلم أن رشيد الدين لم يكن عاكفاً على تأليف كتاب رحلات بل أراد أن ينجز دراسة عن الإمبراطورية المغولية بالإفادة، إلى حد كبير، من مراجع ثانوية. وكما كانت روايتا الرجلين (ماركو بولو ورشيد الدين) لحادث وَنغجُو متشابهتين، وإن اختلفتا عن المراجع الصينية، فإن من الصعب تحديد إشارتيهما إلى غَاينذُو على أنها واقعة في أحد أصقاع يونان. والأمر نفسه يتكرر في الإشارتين إلى إياتشي (بولو) وياتشي

(رشيد الدين) القريتين، برأيهما، من يُنّنفُو. وبعد إخفاقه في الاهتداء إلى ما يشبه الاسم ولو من بعيد، يميل بِليُوت إلى اعتباره دالاً على عاصمة مملكة دالي الملاصقة والمشاطئة لبحر إر هاي («بحر الأذن» والاسم مشتق من الشكل). وبحر إر هاي هذا كان معروفاً لدى المغول على ما يبدو، باسم «بحيرة البط» الذي يترجمه بِليُوت إلى كلمة ياتشي الصينية التي تعني «بركة البط». ومساحة إر هاي الكافية لتجعله بحراً، من حيث الطول على الأقل، إذ أن الشاطئ المقابل بعيد وغير مرئي، من شأنها أن تلغي احتمال اسم «بركة البط»، وقد يكون من الأفضل اعتبار الأمر محض مشكلة أخرى يتعذر حلها عن بعد، محض همسة صينية مترجمة عن الفارسية.

1- Hugh Murray, *The Travels of Marco Polo* (Edinbourgh, 1847), p. 27.
2- Jacques Heers, *Marco Polo* (Paris, 1982), p. 293.
3- tres noble cite.
4- tre nobile citta.
5- bue.
6- feels.
7- filz.
8- Ibid, p. 293.
9- coucere, cucire, cuet, cuittes, cot.
10- M. G. Capuzzo, 'La Lingua del Divisament dou Monde di Marco Polo, 1, Morfologia Verbale', *Biblioteca degli Studii Mediolatini e Volgari* (new ser.), v, (Pisa, 1980), p. 33 and John Critchley, *Marco Polo's Book* (Aldershot, 1992), pp. 12-19. See also Robert Hughes, *Barcelona* (London, 1992), pp. 58-9.
11- Peter Hopkirk, *Foreign Devils on the Silk Road* (London, 1980).
وأنا مدينة بالكثير من التشجيع لبيتر هوبكيرك الذي فوجيء بأول إشارة مني لاحتمال أن ماركو بولو لم يقم بالرحلة، ولاستمرار اهتمامه بها لمدة تقرب من عشرين عاماً.
12- Quotations and content of this chapter are very much based on Paul

Pelliot, *Notes on Marco Polo* (Paris, 1959-63).

13- facfur, fatfur.

14- alefur.

15- fanfur.

16- scafogi.

17- Synifey.

18- fuschur.

19- Leonardo Olschki, *Marco Polo's Asia* (Berkely, 1960), p. 81.

20- Ibid., pp. 86-7.

21- A. C. Moule and Paul Pelliot, *Marco Polo: The Travels* (London, 1938), vol. 3, p. 349.

22- Igor de Rachewiltz, *Papal Envoys to the Great Khans* (London, 1971), p. 102.

23- Ibid., p. 103.

24- J. R. S. Philips, *The Medieval Expansion of Europe* (Oxford, 1988), p. 77.

25 ـ أي الخزف الصيني ـ (ف. ج).

26- Pelliot, Notes, vol. 1, pp. 805-12.

27- I. and J.-L. Vissire (eds.), *Lettres edifiantes et curieses de Chine par des missionaires jsuites* 1702-1776 (Paris, 1979), p. 183.

28- Libellus de notitia orbis.

29- Celadon.

30- Pelliot, Notes, vol. 1, p. 808.

31- Camlet.

32- Cambelloti, chamelles, Gianbellotti, Zambellotti.

33- Camelot.

34- Camalli.

35- Sendal.

36- Zendado.

37- Roland Latham, *Marco Polo: The Travels* (Harmondsworth, 1958), pp. 317-8.

38- Pelliot, *Notes*, vol. 1., p. 831.

39- Latham, *Marco Polo*, p. 319.

40 ـ هذه مفردة تركية مستعملة حتى يومنا هذا ـ (ف. ج).

41- charanis, guemis, chemins chenus.

42- Syrrhaptes Pallassi.

43- Cihai dictionary: the appearance of the father and son in this suggests a reasonably prominent position in Chinese popular history, perhaps because of the occasional anti-Mongol stance.

44- Pelliot, *Notes*, vol. 1, p. 781.

45- Cenchu, *Vanchue*.

46- Latham, *Marco Polo*, p. 132.

47- Qian hu.

48- chiliarch.

49- Myriarch.

50- Pelliot, *Notes*, vol. 1, p. 781.

51- Latham, *Marco Polo*, p. 244.

52- Moule and Pelliot, *Marco Polo*, vol. 1, p. 93.

8) بين الحذف والإضافة

يبقى إخفاق ماركو بولو الواضح في التقاط ولو بضعة أسماء أمكنة صينية أو مغولية خلال سنواته السبع عشرة في الصين أمراً يبعث على الحيرة. فمن الجلي أن فضوله الظاهري بشأن الأماكن والأشياء التي رآها لم يتسع ليشمل اللغات التي أحاطت به.

ودراسة بِليُوت المعقدة لمسألة اللغة أثارت عدداً كبيراً من الشكوك حول دقة ماركو بولو، كما بشأن أساس معلوماته، غير أنه، ظل على الدوام، رغم ارتباكه المتكرر، حريصاً على تفسير الشك لمصلحة ماركو بولو. ولكن المتخصص الألماني بالدراسات المغولية البروفِسور هِربِرت فْرَنْكِه ما لبث أن أثار الشكوك حول صدق ماركو بولو بالانطلاق، جزئياً، مما تضمنه كتابه وبالأخص تلك الأشياء التي أسقطها من وصفه الصين.(1)

لا شك أن مواهب ماركو بولو الوصفية وفّرت، على صعيد الخيال الشعبي، فيضاً من المعلومات الهامة عن اختراعات الشرق وبدعه. ففي وصف سلع الترف النادرة والمُكْلِفة الآتية من الشرقين الأدنى والأقصى، كانت عين ماركو بولو تعود لتاجر أدمن التعامل بمثل هذه السلع، لا عين مراقب بابوي؛ إذ يُلاحَظ أنه كان مهتماً بقيمة المال التي لم يأت المبشر وِلْيَم الرُّبرُكي على ذكرها. وبعض الأشياء التي وصفها ماركو بولو، مثل الخزف الصيني، لم تكن إلا في بدايات معرفتها في أوروبا، ومن المجدي النظر إلى الأشياء التي أوردها، جنباً إلى جنب مع الأشياء التي أغفلها، لأن من شأن ذلك أن يساعد على تكوين فكرة عن الجمهور المولع بالاستحواذ الذي كان بولو يكتب له.

من المؤكد أن وصفه للخزف الصيني، على تشوشه لغوياً، كان ذا أهمية معاصرة كبيرة. ولا شك أن نماذج أواني الخزف الصيني القليلة التي شقت طريقها عبر البر الآسيوي، حين كان الأوربيون يستخدمون أواني فخارية ثقيلة، صمّاء، ولكنها سهلة التشظي، بدت، بالضرورة، متسمة بقدر غامض من الخفة والرشاقة والمتانة. فالخزف الصيني مصنوع من صلصال بالغ النعومة ومعالج بدرجة عالية من الحرارة. وهو يتميز بتزاوج المادة والبريق، بومضة رنين حين يُدق، وبكونه شفافاً لدى تحقيق الرقة الكافية، وهذه كلها ميزات تفتقر إليها الأواني الفخارية والحجرية الأغلظ المستخدمة في أوروبا ماركو بولو. وكان يزيد سحر الخزف الصيني أضعافاً مضاعفة أن طريقة تصنيعه كانت مجهولة تماماً؛ (فعملية الكشف عن السر تطلبت من الخزافين الأوربيين الذين ظلوا يقعون في غلط استعمال الأصداف والعظام المطحونة للحصول على المادة حوالي خمسمئة سنة من التجارب غير الناجحة).[2]

والخزف الأبيض كان يُصدَّره من الصين بكميات هائلة التجار العرب في عهد سلالة تَنغ (618 ـ 907 م) لأن الأواني البيضاء المتينة والأنيقة كانت تفوق أي شيء مصنوع في أي مكان آخر من العالم في ذلك الزمن. ومن شبه المؤكد أن مثل هذه النماذج النادرة التي تمكنت من الوصول إلى أوروبا القرن الثالث عشر تم شراؤها من وسطاء عرب.

ومن وصف ماركو بولو للخزف الصيني يبدو أنه يحدّد مكان ظهوره في إقليم فوجيآن. وعلى الفور تثور جملة المشكلات التي ظلت تقض مضجع الأستاذ بِليُوت لأن ماركو بولو جعل إنتاج المادة في مدينة تِنغيُو (أو لِينيغُوِي، تِرَنغواي، تيونغوي، تينغويزِه في مخطوطات مختلفة) ذات التسمية الغامضة. ولدى وصفه طريقة إعداد الصلصال،[3] قال ماركو بولو إن الخزف كان «لازوردياً» و«زجاجياً»، الأمر الذي أضاف مشكلة تحديد اللون إلى صعوبة الاهتداء إلى المصدر الأتوني. وبِليُوت يرى أن كلمة

«أكّوري» أو لازورد تعني أخضر، ويعتبر الخزف سيلادونا أشد خضرة من النوع الذي كان يُنتج بكثرة في الصين الجنوبية في ذلك العصر. ومثل هذه المطابقة تجعل تعرّف المدينة المنتجة أكثر صعوبة لأن أياً من مراكز السيلادون لم يكن يحمل اسماً قريب الشبه بيِتنغيو (أوترَنغوَاي أو لِينِيغْوِي).

ولعل زهرية كِنغْبَاي، المعروفة الآن باسم زهرية فونتهِل، هي إحدى أولى أواني الخزف الصيني المسجل وصولها إلى أوروبا. وموعد وصول هذا الإناء كان متطابقاً تقريباً مع تاريخ عودة ماركو بولو، أي حوالي عام (1300 م) وقد جرى تزيينه فيما بعد بأغلفة فضية تنفيذاً لأمر الملك المجري لويس الأكبر (1348 - 1382 م) وآل، مع مرور الزمن، إلى المتحف الوطني الايرلندي في أواسط القرن التاسع عشر.[4] وزهرية فونتهِل هذه قد تُقدِّم دليلاً على تحديد ماركو بولو مكان تصنيع الخزف الصيني، لأن لخزف الكِنغبَاي، وهو خزف أبيض منتج في العديد من الأفران الصينية الجنوبية، لمعاناً زجاجياً يتماوج بين الزرقة والخضرة في الغالب، وذلك يوفر إمكانية وصفه باللازوردي «أكّوري»، حين يتجمع في قواعد الزبادي أو في قطرات. وقد تم العثور على قطع من خزف الكِنغبَاي العائدة إلى عهدي سلالتي سُنغ (960 - 1279 م) ويُوآن المغولية (1279 - 1368 م) في مواقع أفران دِهْوَا،[5] السابقة في إنتاج «أبيض الصين»[6] الأبيض القشدي. وبتوسيع دائرة احتمالات نطق الاسم، قد تكون تُنْغَن الواقعة أيضا في، فوجيان التي كانت تنتج أواني خزفية خضراء وأواني قِنغباي في عهدي شُنغ ويوآن،[7] ومتخصصة، على ما يبدو، في تصدير الأواني الخزفية، كما قال ماركو بولو، أحد المواقع المرشحة للمكان.

والمثال الآخر ذو العلاقة هو «جرة ماركو بولو» المزعومة والمحفوظة في خزينة سانت مارك بالبندقية.[8] فهذه الجرة البيضاء مفصصة ومغطاة بزخارف نباتية مقولبة وطلاء أملس لماع. ويقال إنها تعود إلى القرن الثالث عشر أو الرابع عشر، على الرغم من عدم وجود أي شيء، عدا الروايات،

يربطها بماركو بولو، ومن المؤكد أنها لا تنسجم مع قصة عودته بالثياب التي كان يرتديها فقط. ومن المثير أنها نموذج مبكر عن 'أبيض الصين،'، ذلك الخزف الأبيض بقوام أسمك ومظهر قشدي (دون القطرات الزجاجية الخضراء المرئية على آنية كِنغبَاي) المصنوع في أفران دِهْوَا في فوجيان، لا في تُنْغَن. وبالتالي، فإنها لا تتطابق مع الأواني الخضراء أو مع آنية كِنغبَاي بتوسيع نطاق اللازورد، الموصوف، ربما، من قبل ماركو بولو.

وعلى الرغم من أن ماركو بولو أسرف في وصف سلع الترف من المنتجات الأجنبية، فإنه لم يورد بعض الخصوصيات الأكثر منزلية مثل استعمال الفحم. فاستعمال الفحم الحجري في الصين وقوداً دام عشرين قرناً من الزمن قبل أن يأتي ماركو بولو ليصفه؛ ومع أن الفحم الحجري كان، على ما يبدو، معروفاً في ويلز العصر البرونزي، فإن استعماله في إنجلترا لم يتم حتى القرن الرابع عشر أو الخامس عشر. وربما لم يكن الفحم معروفاً لدى إيطاليي تلك الأيام، ولكنه موصوف بكثير من الدقة في **وصف العالم** على أنه «نوع من الحجارة السوداء الكبيرة المستخرجة من الجبال على شكل عروق تشتعل مثل جذوع الأشجار، وتحترق احتراقاً كاملاً مثل الفحم النباتي».[9] ومن الجدير بالذكر أن هذا الوصف يبدو أفضل قليلاً من نظيره الذي جاء بعيده على لسان الرحالة العربي ابن بطوطة (1304 - 1377 م) الذي وصف الفحم الحجري على أنه بلون الصلصال وبتماسكه (ووقع في خطأ القول بأن المادة نفسها كانت تستخدم في صنع البورسلين) غير أنه عمد أيضاً إلى استخدام مقارنته بالفحم النباتي.[10]

وأحد الإنجازات التجديدية العظيمة لصين سلالتي سُنغ (960 - 1279 م) ويوآن (1279 - 1368 م) كان متمثلاً باستخدام النقد الورقي. وهذا الأمر لم يكن يقف عند حد ممارسة استخدام بدائل القطع النقدية المعدنية ذات القيمة المستندة إلى قيمة المعدن الفعلية، بل يتعداه إلى المادة نفسها التي

كانت غير مألوفة، لأن معرفة الأوربيين الورق كانت حديثة، بادئة لتوها، لدى قيام ماركو بولو بالكتابة. أما اختراع الورق فكان قد تم في الصين في إحدى فترات عهد سلالة الخان القديمة (206 ق. م - 220 م) واتسع نطاق استعماله في ظل سلالة تَنْغ (618 - 907 م) ليشمل الوثائق الرسمية والكتب المطبوعة، فضلاً عن استعمالاته البيتية لكتابة الرسائل والملاحظات. وكان العرب قد تعلموا كيفية صناعة الورق من الصينيين، ربما في القرن التاسع، ونقلوها إلى أوروبا حيث جرى تصنيعه للمرة الأولى في أسبانيا أوائل القرن الثاني عشر. وقد كان معروفاً في إيطاليا أوائل القرن الثالث عشر، رغم حظر استخدامه لكتابة الوثائق الرسمية عام (1221 م) بحجة أنه شديد الهشاشة بما يجعله غير قابل للدوام. أما مصنع الورق الأول في إيطاليا فقد تأسس في فابريانو بين عامي (1268 و 1279 م)؛ وبالتالي فإن الورق كان، بالضرورة، ما يزال سلعة نادرة،[11] حين كان ماركو بولو في الصين. وبما أن أوروبا كانت تشك بأمر الورق، كمادة، فقد شكل العثور عليه مستخدماً نقداً أمراً باعثاً، بالضرورة، على قدر استثنائي من الاندهاش.

وكان اعتماد التجار والأجهزة الحكومية الأول للحوالات أو السندات التعهدية أو الكمبيالات المطبوعة (التي عرفت باسم «الأموال الطائرة») بالصين في القرن التاسع الميلادي. وقد قام هذا النظام على النقابات المهنية العريقة والراسخة للتجار الذين كانوا يجوبون البلاد مقيمين في صالات نقابية خاصة شيدت في سائر المدن الكبرى لصالح تجار كل من الأقاليم. فالصالة النقابية المخصصة للتجار القادمين من إقليم غْوَنْغْدُونْغ الجنوبي مازالت موجودة في تيانجين، مؤكدة بنقوشها المزخرفة الغنية مدى ثراء نقابات التجار. وتوفيراً لراحة التجار المسافرين إلى أماكن بعيدة، كانت «السندات والكمبيالات» الورقية تستخدم بدلاً من المصكوكات البرونزية الثقيلة أو السبائك الذهبية أو الفضية المصبوبة على شكل قوارب، والمستخدمة عادة في المبادلات المالية. أما «النقد الورقي» الحقيقي، لا هذه

السندات التعهدية والكمبيالات، فقد ظهر في أوائل القرن الحادي عشر. ففي أثناء الحقبة المغولية جرى اعتماد العديد من إصدارات النقد الورقية المطبوعة على قطع صغيرة من الورق الداكن عبر استخدام اللوحة الخشبية التي نُقش عليها النص الصيني معكوساً، والمرخصة، آخر المطاف، بختم أحمر يحمل كتابة مغولية.

وفي **وصف العالم** يجري الحديث، وبالتفصيل، عن النقد الورقي على صعيدي قابليته للتحويل وقيمته النسبية.[12] وكذلك يتم وصف أسلوب صناعة الورق، إلا أن تعقيدات الطباعة بالألواح الخشبية (قبل غُتِنْبِرغ بما يزيد على مئة سنة) لا يتم سبرها، والقطع النقدية لا توصف إلا بأنها «مختومة». ولعل الإشارة إلى «الختم» كانت للدلالة على عملية الترخيص المطبوع بالختم، أو ربما على اللوح الخشبي الطابع بالذات ككل. (ووِلْيَم الرُّبرُكي، هو الآخر، قام بوصف النقد الورقي الذي رآه في منغوليا قبل ماركو بولو بحوالي ثلاثين سنة، قائلاً: «النقد اليومي في كاتايا مصنوع من الورق، بطول الكف وعرضها، طبعت عليه خطوط كما على ختم مانغو...»)[13] ولكنه لم يحاول قط، أن يغوص في تفاصيل معدلات التبادل، ربما لأنه لم يكن تاجراً.

ولدى المقارنة بكلام آخر عن المغول والصينيين كتبه زوار أوروبيون معاصرون أو قريبون من المعاصرة، يتضح أن هناك نواقص بالغة الأهمية في نص ماركو بولو. فالسطر الثاني من حديث الرُّبرُكي عن النقد الورقي بالذات (النقد الورقي الذي لم يره إلا في منغوليا لأنه لم يصل إلى الصين) يتابع الكلام بوصف الكتابة الصينية التي تبقى أحد الأشياء الأشد غرابة في اختلافها حول البلد، والتي لا تبدو، مع ذلك، قد أثارت دهشة ماركو بولو.

ومقدمة وِلْيَم الرُّبرُكي عن نظام الكتابة الصينية، وهي مقدمة متطرفة في الإيجاز، كانت من وحي الأحرف الصينية المطبوعة على الأوراق النقدية:

«يكتبون بفرشاة من النوع الذي يستعمله الرسامون، ويصنعون من رمز أبجدي واحد عدداً من الحروف التي تؤلف كلمة».[14] إنه وصف جيد تماماً، وإن كان مبالغاً في إيجازه، لنظام الكتابة الصينية الذي لا يقوم على أية أبجدية بل على ما لا يقل عن أربعين ألفاً من الرموز المستقلة التي تمثل الكلمات. وهذه الرموز المطورة من الصيغ المعبرة عن الأشكال والأفكار كما في منظومة معقدة من الاقتباسات الصوتية، تتألف من سائر أشكال الحركات المتدرجة بين الواحدة وما يزيد على العشرين، وكانت، كما قال وِلْيَم الرُّبْرُكي، تُكتبَ تقليدياً بالفرشاة.

وليوناردو أولشكي الذي شعر بأن اللغة كانت عصية تماماً على ماركو بولو «لافتقاره التام إلى المبادرة الأدبية أو الروحية...»،[15] يدافع عن غياب الإشارة في **وصف العالم** إلى الكتابة الصينية المختلفة اختلافاً غير عادي. ولكن إغفال هذه الكتابة، حتى إذا كانت غير قابلة للفهم، كان أمراً غير يسير بالتأكيد، لأن المغول أنفسهم كانوا يتهيبون أمام اللغة الصينية المكتوبة. فالمغول الذين كانوا للتو فقط قد تبنوا نظامهم الكتابي الخاص في القرن الثالث عشر،[16] وهم بداة لم يكونوا بعد قد طوروا جهازاً بيروقراطياً قائماً على استهلاك الورق، ما لبثوا، لدى مواجهة تحدي إحكام السيطرة على الصين كلها، ومهمة جمع الضرائب وتطبيق القوانين في عام (1279 م) أن باتوا مضطرين لتبني الموقف الصيني من الورق ومسك الدفاتر. لقد قُدر أن التخمينات الضريبية لواحدة فقط من الوزارات (مجلس الواردات) تطلبت نصف مليون من صحائف الورق سنوياً خلال حكم سلالة تَنْغ (618 - 907 م)[17] وتعين على المغول أن يلتحقوا بركب جبال الورق. ومن المحتمل أن يكونوا قد ضاعفوا من حجم تلك الجبال لأن الوثائق صارت تكتب بالأحرف المغولية، وتترجم بعد ذلك إلى الصينية (وهذا بالذات أثار مشكلة حقيقية لأن الصينيين لم يكن مسموحاً لهم عادة أن يتعلموا المغولية).[18] وعلى الرغم من الاعتقاد بأن قوبيلاي خان لم يكن يطمئن إلى الصينية

الكلاسيكية المكتوبة، فإن خلفاءه ما لبثوا أن تصينوا أكثر فأكثر وتفوقوا في الخط والتأليف الصينيين.(19)

من المعلوم، أيضاً، أن الصينيين كانوا، على الدوام، يفوقوننا كثيراً في سعة استخدام اللغة المكتوبة، وبقدر أكبر من الإبداع. فكتابات تطري جمال الطبيعة لمشهد بعينه كثيراً ما كانت تُنقش على صخور سفوح الجبال وفي حدائق شوجُو، وعلى الصخور المحيطة ببحيرة هانغجو؛ وثمة كتابات شعرية لأباطرة وخطاطين مشهورين منقوشة في الحجر. وعملية التزيين وإضفاء المزيد من الأهمية عن طريق إضافة الكلمة المكتوبة بأسلوب جميل لم تقتصر على الطبيعة وحدها؛ فالأسماء الشاعرية للسرادقات ومقصورات المعابد كانت مخطوطة على لوحات فوق المداخل، مدعمة أناقة الهندسة بالخط، ومضيفة عمقاً في المعنى إلى المناظر ومجمعات المباني. وبالتالي فإن إغفال الكتابة الصينية كان، ولو بالنسبة لرحالة غير معني بشؤون الحكم، أمراً صعباً بالضرورة. فمن غير اليسير أن نتصور شخصاً، بل أجنبياً، كان قادراً على الزعم بأنه عمل في الجهاز البيروقراطي الحكومي، ولكنه إما أخفق في الانتباه إلى نظامي الكتابة المغولي والصيني أو اعتبرهما قليلي الأهمية، في البلد الذي أوجد الورق وأدمن على تقديس الكلمة المكتوبة أكثر من أي مكان آخر تقريباً.

ومع أن **وصف العالم** يتضمن إشارات إلى استخدام شخوص ورقية، خيول وجمال مسرجة بسروج مغطاة بأغطية مزركشة، وأوراق نقدية محروقة في الجنائز،(20) فإن الطباعة بالألواح الخشبية ذات الانتشار الواسع (وهي ما تزال مجهولة في أوروبا في تلك الأيام) لا يرد لها أي ذكر. ومن المؤكد أن أسواق البلدات التي يصفها ماركو بولو كانت زاخرة بأكشاك الكتب الصغيرة المتخصصة ببيع الكتيبات الشعبية والأعمال الروائية ذات الطبعات الرخيصة التي كان كثير منها موضحاً بالصور. فإقليم فوجيان الساحلي الجنوبي (الموصوف من قبل ماركو بولو بشيء من الإطالة) كان

مركزاً لإنتاج الكتب في عهد سلالة سُنغ، واشتهر بتصدير الكتب المطبوعة إلى سائر أرجاء البلاد. وفي هانغجو (كينساي بولو) عاصمة سُنغ الجنوبية، كانت إحدى السبع عشرة سوقاً للكتاب يحتشد فيها باعة الكتب حول سرادق حديقة البرتقال.(21) ومع ذلك فإن ماركو بولو لم يصف إلا الأطعمة والحرائر المعروضة للبيع، رغم حديثه عن الأسواق.

ومما قد يثير قدراً أكبر من الدهشة أن ماركو بولو لم يذكر الشاي قط، على الرغم من اهتمامه الكبير بالمنتجات الغذائية المعروضة في أسواق هانغجو، وبمختلف المشروبات والخمور المقدمة في الولائم الملكية. فالشاي المحضر من أوراق شجيرة صينية جنوبية من عائلة الكاميليا كان مشروباً يحتسيه الصينيون منذ أيام سلالة خان (206 ق. م - 220 م) ولكنه لم يصبح شعبياً على نطاق واسع في الصين الشمالية إلا في أواخر القرن الثامن، حسب ما جاء في المراجع المكتوبة، بما فيها **تاريخ تَنْغ الرسمي وتشا جِنْغ** (وهو كتاب قياسي عن الشاي) من تأليف لو يو. والعديد من الأماكن الواردة في **وصف العالم** تشتهر بأنواع مختلفة من الشاي مثل الوُوُلُنغ من إقليم فُوجْيَن واللونغجينغ الأخضر من منطقة هَنغجُو، الذي كان يحضر بماء الينابيع المحلية. كما أن البقع الجميلة التي زارها ماركو بولو، مثل هَنغجُو وسُجُو، كانت ملأى ببيوت الشاي من جميع المستويات، متواضعة بالقرب من سوق اللحوم، وأنيقة أكثر في أماكن التسوق الأفضل. وثمة وصف لهَنغجُو يعود إلى عام (1275 م) كُتب في الوقت الذي يفترض فيه أن يكون ماركو بولو قد أقام فيها، يقدم صورة للصواني المطلية، ولفناجين الخزف، ولأنواع الشاي (من زهر الخوخ إلى المنقوعات الطبية) ولمعروضات الرسوم والخطوط والورد والبونزاي المزينة لبيوت الشاي.(21) ولو كان الأخوة بولو على صلات حميمة مع الأهالي، كما يلمح ماركو بولو، لكانت استضافتهم في مثل هذه المحلات لشرب الشاي، شبه مؤكدة لأن الصينيين لم يكونوا يستقبلون الضيوف في بيوتهم، بل لكان من الصعب إغفال

بيوت الشاي المصفوفة على جانبي الطريق بصرف النظر عن الاستضافة. من الصعب أن نتصور شخصاً أمضى سبعة عشر عاماً في الصين وفاتته ملاحظة مدى شعبية الشاي في تلك البلاد. ولكن بولو الذي يصف أنواعاً من الخمرة المصنوعة من العنب والأرز وقصب السكر لا يأتي على ذكر الشاي الذي ربما لم يكن يهم قراءه الأوربيين، وإن بدا العرب والفرس الذين تذوقوا طعمه في الصين شديدي الولع به.

ومن الصعب، على أية حال، حتى لو أمكن الزعم بأن كاتب الظل روستيتشيللو استبعد الأوراق المسلوقة بوصفها غير مقنعة أو غير مثيرة للاهتمام، أن نتصور عزوف كاتب روائي عن الإشارة إلى عادات نسوية عجيبة بما فيها عادة ربط الأقدام الغريبة.

ومع ذلك ليس هناك في **وصف العالم** إلا إشارات قليلة نسبياً إلى النساء، فضلاً عن أن ممارسة ربط الأقدام لا ترد في أي مكان من الكتاب، ولو بصورة عابرة. وماركو بولو، في الإشارات القليلة، ينعت نساء فوجيان بالجمال الفائق وزوجات تجار هانغجو بالغرق في الحرائر والمجوهرات.[23] ففي مقطع لا يرد إلا عند رَموزيو، ثمة وصف لمومسات هانغجو[24] وفنونهن الإغوائية، ولكن دون الإشارة، مرة أخرى، إلى أقدامهن التي يفترض فيها أنها (محصورة).

وعادة حصر الأقدام هذه أصبحت شائعة بين منتسبي الطبقات العليا خلال فترة حكم سلالة سُنْغ (960 - 1279 م) إذ كانت أصابع أقدام الفتيات الصغيرات تُطوى تحت بسطة القدم وتُربط بضمادات مبلولة (تنكمش بالطبع حين تجف) بغية الحصول على قدم مروسة صغيرة.[25] وبعد تحقيق النجاح في تشويه القدم، كانت الفتيات يعجزن عن المشي الطويل بل حتى عن الوقوف دون أربطة القدم، لأن الضمادات كانت تشكل دعامات ضرورية للأقدام الشبيهة بالحوافر. وما لبثت هذه العادة أن

انتشرت مع مرور الزمن حتى باتت، مع حلول أوائل القرن العشرين، شبه شاملة للجميع عدا أفقر الأسر الفلاحية التي كانت تحتاج إلى النساء ذوات الأبدان السليمة للعمل في الحقول. ولكن المانشو، الذين حكموا الصين بين عامي (1644 و 1911 م) مثلهم مثل المغول، لم يتبنوا، هذه العادة قط. وبالتالي فإن من الممكن القول بأنها لم تكن واسعة الانتشار إلى حد كبير خلال الحقبة المغولية حين كان الأخوة بولو في الصين، كما يفترض، وبأن النساء كان يتعذر عليهن، لعجزهن عن قطع المسافات الطويلة بأقدامهن المربوطة، أن يكن مرئيات من قبل الرحالة الأجانب.

يمكن أيضاً أن يقال إن حجز النساء كان يعني أن ماركو بولو لم يستطع أن يرى إلا القليل من النساء الصينيات المنتميات إلى الطبقات العليا، الأمر الذي قد ينطوي على معنى أنه يصف زوجات التجار، لأن هؤلاء كانوا محتقرين ولا يُسمح لأولادهم بالدخول في سلك الطبقة البيروقراطية (ما لم يغيروا وضعهم إلى مُلاك أراضٍ عن طريق توظيف أموالهم في شراء الأرض). وهكذا، فإن زوجات التجار ربما لم يتأثرن مباشرة بعادة ربط الأقدام العائدة للطبقة العليا، فبقين أكثر قدرة على التباهي بثرواتهن في الشوارع الأمر الذي أتاح للغرباء فرصة مشاهدتهن.

وفي الصين التقليدية اللاحقة، كان من النادر أن يستطيع أي أجنبي أو غريب رؤية نساء محترمات عدا الخادمات. وعلى الرغم من دعوة كونفوشيوس (حوالي عام 500 ق. م) المبكرة إلى الفصل بين الرجال والنساء (إلى حد أن قيام الرجل بمد يده لإنقاذ أخت زوجه من الغرق كان يعتبر منافياً للأخلاق) فإن الحجز الصارم للنساء لم ينتشر انتشاراً واسعاً، على ما يبدو، حتى عهد مِنغ (1368 - 1644 م). وثمة لوحة شهيرة تصور العاصمة كايفنغ في المراحل الأولى من حكم سُنغ (حوالي 1100 - 1130 م) لا تتضمن إلا القليل جداً من النساء في شوارع المدينة،(26) ولكنها لا تلغي وجودهن على الأقل. ومع مجيء سلالة مِنغ،

كان الحجز قد أصبح أكثر صرامة إذ باتت نساء الطبقات العليا محجورات في الباحات الجانبية والخلفية للبيوت العائلية، ولا يجري تقديمهن للزوار الذكور حتى داخل البيوت. ومن الممكن تماماً، على أية حال، أن ماركو بولو ربما رأى، في أيام حكم المغول الأقل تشدداً، نساء بأقدام غير مربوطة في شوارع المدن الصينية.

ومهما يكن فإن الراهب البوردينوني الذي جال في الصين بدءاً بعام (1320 م) وأملى مذكراته في عام (1330 م) يصف عملية ربط الأقدام في الصين الجنوبية جنباً إلى جنب مع عادة مبالغة الرجال في إطالة الأظافر التي كانت دارجة في ذلك الزمان.(27) والأظافر الطويلة المحمية بواقيات الأظافر المرصعة بالجواهر، بقيت دارجة بين النساء حتى عهد سلالة كينغ (1644 - 1911 م) مع أن السادة كانوا باتوا يكتفون بإطالة ظفر أو اثنين للدلالة على عدم اضطرارهم للمشاركة في العمل الجسدي. وفي أواسط القرن الرابع عشر قام السير جون ماندفيل بانتحال فقرة أُدرِك عن ربط الأقدام كلها انتحالاً يكاد أن يكون حرفياً إذ كتب يقول: «وعلامة النبالة في النساء هناك هي القدم الصغيرة؛ وبالتالي ما إن يولدن حتى يتم ربط أقدامهن ربطاً محكماً حتى يتعذر عليها أن تنمو كما ينبغي لها أن تفعل».(28) ومما يبدو غير قابل للتصور أن العادات الدارجة استطاعت أن تتبدل بهذه السرعة في غضون خمسين سنة الأمر الذي حال دون رؤية ماركو بولو لأية أقدام مربوطة، في حين عكف الراهب المتدين أُدرِك، الذي لم تتوافر له فرصة الدخول في الأوساط الاجتماعية التي زعم بولو أنه دخلها، على وصفها بشيء من التفصيل.

وإضافة إلى النساء، ثمة نشاط آخر أخفق ماركو بولو في ملاحظته أو افتقر إلى الاهتمام به ألا وهو صيد السمك عن طريق طائر الغاق. فأحد المشاهد التي تشد أنظار سياح هذه الأيام وهم في المركب النهري من غويلين، هو مشهد استخدام صيادي السمك طيور الغاق المروضة. فهذه

الطيور المطوقة أعناقها التي يتعذر عليها ابتلاع الأسماك الكبيرة، تغوص منطلقة من الطوافات الخيزرانية وتعود حاملة صيدها. وقد أدهش المشهد أعضاء سفارة مكارتني في الصين (1292 - 1294 م) إذ قيل: «هذا الطائر شديد الشبه بنوع آخر من البطريق...أو الغاق المعروف... هذه الطيور ستقتنص فراخ السمك السريعة التي ليست أقل منها وزناً وتمسك بها بقوة...».[29] ولاحظها أيضاً الراهب أُدِرك الذي خلّف أول وصف يصل إلى أوروبا عن طيور الغاق «القادرة على اصطياد أعداد كبيرة من السمك لتبادر، كعادتها دائماً لدى الإمساك بها، إلى وضعها تلقائياً في السلال»..[30]

ومما يقال رداً على الباحث الألماني المتخصص بالدراسات المغولية ودفاعاً عن ماركو بولو إن هذا الأخير ربما نسي أشياء معينة جراء مرور وقت طويل قبل الشروع بتصنيف **وصف العالم**. وبعض الأمور، مثل شرب الشاي، ربما وضُعت أمام روستيتشيللو ولكنها تعرضت للإهمال لعدم انطوائها على أية أهمية بنظر العامة، أو أن عمليات محو ربما حصلت نظراً للتباينات الموجودة في النصوص وللعدد الكبير من النساخ. وبدرجة موازية ربما كان [ماركو بولو] شديد الافتقار إلى الاهتمام بالثقافة الصينية أو شديد التعصب في نظرته الأوربية الضيقة، حتى صار نظام الكتابة، مثلاً، أمراً عديم الأهمية بنظره، رغم الزعم الوارد في المدخل حيث يقال إنه كان يتقن اللغة المغولية على الأقل وأنه تحدث مع قوبيلاي خان حديثاً مباشراً. وكما جاء في هذه الطروح، يبدو أن الإخفاق في وصف ربط الأقدام كان الأكثر غرابة لأنه الأمر الذي فاق الأشياء الأخرى كلها تقريباً في إبهار الرحالة اللاحقين. فالأقدام المربوطة التي شوهدت في العامين (1793 - 1794 م) خلال فترة سفارة مكارتني.[31] وصفها بارو كما وردت في تقرير سْتُنْتُون عن الرحلة.[32] وأوائل المصورين في الصين كانوا حريصين على أخذ صورها الضوئية، وانطباعي، بعد استعراض المجموعات، هو أن أكبر المجموعات

المنفردة للآثار المحفوظة في المجموعات الصينية لدى متحف الإنسان بلندن هي مجموعة الأحذية المطرزة الصغيرة المصنوعة للأقدام المربوطة، وقد جلبها بالمئات زوار ومبشرون أوربيون في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

وبالتالي فإن ما يبعث على الحيرة حقاً هو أن الشاي والبورسلين والأقدام المربوطة، أي الأشياء الثلاثة التي ترمز إلى الصين في الخيال الغربي، سقطت جميعاً من نص يُزعَم وبقوة أنه شعبي. وكذلك فإنه لا يأتي على أي ذكر لاستخدام العيدان....[33]

1- Herbert Franke, 'Sino-Western relations under the Mongol Empire', *Journal of the Royal Asiatic Society Hong Kong Branch*, 6, Hong Kong, 1966, pp. 49-72.

2- Böttger of the Meissen factory finally succeeded in the mid eighteenth century: see Margaret Medley, *The Chinese Potter* (Oxford, 1980), p. 261.

3- A. C. Moule and Paul Pelliot, *Marco Polo: The Travels* (London, 1938), vol. 2, p. 352.

4- Shelagh Vainker, *Chinese Pottery and Porcellain* (London, 1991), p. 143.

5- Rose Kerr and Penelope Hughes-Stanton. *Kiln Sites of Ancient China* (London, 1980), pp. 22-38.

6- blanc de chine

7- Ibid., pp. 26-9.

8- See John Ayers, 'Blance de Chine', *Transactions of the Oriental Ceramic Society*, 51 (London, 1986-87), pp. 16-17.

9- Moule and Pelliot, *Marco Polo*, vol. 1, p. 238.

10- Colonel Sir Henry Yule, *Cathay and the Way Thither* (London, 1916), vol. 4, p. 113.

11- Tsien Tsuen-hsuin, 'Paper and Printing', in J. Needham (ed.) *Science*

and Civilisation in China, vol. 5, part 1 (Cambridge, 1985), p. 299.

12- Moule and Pelliot, *Marco Polo*, vol. 1, p. 238.

13- Peter Jackson, *The Mission of William of Rubruck* (London, 1990), p. 203.

14- Ibid., p. 203.

15- Leonardo Olschki, *Marco Polo's Asia* (Berkeley, 1960), p. 154.

16- M. Rossabi, *Khubilai Khan*, p. 15.

17- D. C. Twitchett, *Printing and Publishing in Medieval China* (London, 1983), p. 12.

18- Rissabi, *Khubilai Khan*, p. 15.

19- Herbert Franke, 'Could the Mongol Emperors read and write Chinese?' *Asia Major*, new series 3, 1 (London, 1932), p. 30.

20- Moule and Pelliot, *Marco Polo*, vol. 1, p. 337.

21- Twitchett, *Printing and Publishing*, pp. 45-52.

22- Jaques Gernet, *Daily Life in China on the Eve of the Mongol Conquest* (Stanford, 1970), p. 49.

23- Latham, *Marco Polo*, p. 217.

24- See P. B. Ebrey, *The Inner Quarters: marriage and the lives of Chinese women in the Sung period* (Berkeley, 1993).

25- Ebrey, *The Inner Quarters*, pp. 26-7.

26- Yule, *Cathay*, vol. 1, p. 153.

27- Ibid., vol. 1, p. 153.

28- C. W. R. D. Moseley (ed.), *The Travels of John Mandeville* (Harmondsworth, 1983), p. 187.

29- Sir John Barrow, *Travels in China* (London, 1804), pp. 506-7.

30- Yule, *Cathay*, vol. 1, p. 112.

31- Barro, *Travels*, pp. 75-7.

32- Sir John Staunten, *An authentic account of the embassy from the King of Great Britain to the Emperor of China* (Dublin, 1798).

33 - بدلاً من الشَّوْك والملاعق في تناول الطعام - (ف. ج).

9) البوظة والسباغيتي

يبدو واضحاً، من غياب الإشارات في روايته، أن ماركو بولو لم يعد إلى بندقية القرن الثالث عشر جالباً معه أية استساغة للشاي (ولم تصبح أوروبا مهووسة بالشاي إلا بعد أربعة قرون) ولكن بعض أكثر الأساطير الشعبية انتشاراً عنه تتعلق بإمكانية استيراده (السباغيتي) و(الرّفيولي) و(البوظة) من الصين إلى أوروبا. إلا أن تأثير ماركو بولو على فنون المطبخ الإيطالي (أو الصيني تبعاً لانتمائك الصيني أو الإيطالي) ليس أمراً يمكن حله بسهولة عبر القراءة الممعنة لكتابه.

فالفلفل والإجاص ولحم الكلاب وسائر أنواع السمك ترد جميعاً في معرض وصفه لأسواق هانغجو، ولكنه، للأسف، لم يعتمد الأسلوب التفصيلي ذاته في وصف الطعام الذي لابدّ أن يكون قد تناوله. صحيح أنه أتى على ذكر (المعكرونة) المسطحة واستهلاك الأرز وسائر اللحوم (بما فيها لحم البشر في فوجيان) غير أنه لم يبادر قط إلى وصف طريقة طهو المواد وتقديمها (كما لم يذكر شيئاً ذا بال عن طرائق تناول الخضار). وماركو بولو ليس وحده في هذا، لأن الزائرين البريطانيين للصين كانوا مثله غافلين أو مقصرين في إيراد التفاصيل. فآندرياس آندرسون، وصيف اللورد مكارتني في السفارة البريطانية الأولى إلى الصين (1792 - 1794 م) يكتفي بتسجيل أن «أسلوبهم في إعداد اللحم قائم على تقطيعه قطعاً صغيرة جداً يقلونها في الزيت مع الجذور والأعشاب. وعندهم وفرة من فول الصويا والخل يضيفونهما كصلصة»، وإن وجد الأرز «بديلاً بالغ الروعة عن الخبز».[1]

وفي مكان آخر، يشبه آندرسون الولائم بـ «الوجبات المشتركة»، ليتها كذلك بالمعنى العسكري. وحتى مثل هذا التفصيل النادر يغيب عن رواية ماركو بولو، وإن مجرد حقيقة قيام أحد الإيطاليين بزيارة الصين في هذا التاريخ المبكر أثار مزايدات كثيرة حول من تأثر بمن. فمؤرخو القرن التاسع عشر، وكثير منهم من أتباع نظريات الانتشار، كانوا يبحثون عن الرابط الحتمي، وما لبثوا أن اهتدوا إلى ماركو بولو.

ومشكلة التأثير والتأثر معقدة لأن إيطاليا والصين، وهما بلدان شديدا الاعتزاز بتراثيهما المطبخيين، يستسيغان بعض الأطعمة المتشابهة تشابهاً ملحوظاً بطريقة غامضة. فالمعجنات، بسائر أنواعها الإيطالية، توضع مقابل (المعكرونة) المسطحة الصينية التي تكون أيضاً بأشكال مختلفة، وإن ظلت، في العادة، تميل إلى أن تكون طويلة ورقيقة بدلاً من اتخاذ شكل الفراشة أو القوقعة. وهكذا فإن جدلاً يثور حول ما إذا كان ماركو بولو قد نقل (السباغيتي) و(الرَّفْيولي) إلى الصين حيث جرى تحويلهما إلى الجيَاوْزِي،[2] أم أنه جلب معه (المعكرونة) المسطحة والجيَاوْزِي إلى إيطاليا حيث أصبحت (سباغيتي) و(رفيولي).

وانتشارية القرن التاسع عشر، كانت ترى أن لكل شيء أصلاً واحداً، وأن المخترعين ظلوا، منذ العصر الحجري، يجوبون العالم مدهشين الحضارات الأخرى باكتشافاتهم. ففي فيينا ما قبل الحرب كان طلاّب علم أصل الإنسان[3] يلقّنون أن «الطبخ بالماء لم يُكتشف إلا مرة واحدة»،[4] كما لو أن المخترع جال حول العالم متباهياً باكتشافه ومنجزاً، شخصياً، عملية نقله من ثقافة إلى أخرى. وعملية نقل ثقافة معينة يمكن إبانتها بوضوح كما في حال انتقال صناعة الورق من الصين إلى أسبانيا وإيطاليا مروراً بالعالم العربي، ولكن الانتشارية تميل، في حالات أخرى، إلى الاستخفاف بالإبداع الإنساني.

ومهما يكن، يبدو بالفعل أن أوجه الشبه بين أشكال (المعكرونة) الإيطالية من جهة و(المعكرونة) المسطحة الصينية من جهة ثانية، قد تكون مدينة بشيء ما للعالم العربي الذي يشغل موقعاً ملائماً بين الطرفين، والذي كان تجاره مسيطرين على جزء كبير من حركة البضائع فيما بينهما. وكلوديا رُودَنْ التي كان كتابها الأول عن الطبخ حول المأكولات الشرق أوسطية، ولكنها فازت لاحقاً باثنتين من جوائز كتب الطبخ مكافأة لها على دراسة المأكولات الإيطالية،[5] تقول ما يلي: «يَكْمُن الفُرْس في أساس أنواع (المعكرونة)»، ويتفق معها في الرأي علماء آثار نقبوا عن إنتاج الطعام المبكر في الصين؛ وبالتالي فإن التأثير العربي يبدو مسؤولاً عن (المعكرونة) المسطحة الصينية وأنواع (المعكرونة) الإيطالية المختلفة.

من المعروف أن القمح، بعد طحنه دقيقاً، ودون إضافة الخميرة إليه أو غيرها من المواد النافخة، صالح لإنتاج كل من (المعكرونة) الإيطالية ونظيرتها الصينية المسطحة. وإن قيام أحد الجيوش العربية باحتلال صقلية في عام (827 م) هو الذي أدى إلى جلب الحنطة القاسية إلى إيطاليا. وبعد ذلك، ما لبثت (المعكرونة) المصنوعة من دقيق الحنطة القاسية أن انتشرت تدريجياً باتجاه الشمال في أرجاء إيطاليا.[6] وتماماً كما يجري استعمال المفردات القارسية على نطاق واسع في **وصف العالم**، تبقى المفردات العربية في صقلية خالدة عبر نمط دقيق من أنماط (السباغيتي) يعرف باسمه العربي القديم، أي :عطرية. ومما يثير الاستغراب أن هناك، كما يبدو، رغم عملية الجلب المذكورة والتحرك شمالاً، تقليداً جنوياً (لا بندقانياً للأسف) مستقلاً من تقاليد صناعة (المعكرونة) الإيطالية، كان هو الآخر مديناً بالشيء الكثير لتأثير العرب. فمربعات (المعكرونة) الإيطالية الشبيهة باللازانج، معروفة باسم منديلي دي سيا[7] «مناديل حريرية»، ومنديل كلمة عربية، كما أن اللينغويني في جنوا تُعرف باسم تريا[8] التي هي كلمة عربية أخرى.[9]

و(المعكرونة) المسطحة والجِيَاوْزي، وهما طبقان شديدا التشابه من أطباق الصين الشمالية الشائعة، يتم صنعهما أيضاً من دقيق الحنطة القاسية، ويُعتقد أنهما من مخلفات التأثير العربي في آسيا الوسطى. ويقال إن الحنطة القاسية المستعملة لإنتاج (المعكرونة) المسطحة والجِيَاوْزي الصينيين جاءت من آسيا الغربية.[10]

ولعل أحد الأطباق الأصعب هو (الرَّفْيُولي) الإيطالي، شديد الشبه بالجِيَاوْزِي الصيني (ويترجم عادة إلى زلابية، ولكنه أقرب إلى (الرَّفْيُولي) منه إلى الزلابية الأوربية المخمرة غير المحشوة). وقد تم الكشف عن أقدم أنواع الجِيَاوْزِي أو الزلابية الباقية، على شكل طبق جنائزي عائد للقرن الثامن مؤلف من اللحم المبهر الملفوف بطبقة من (المعكرونة) في صحراء غُوبي،[11] في منطقة صينية كانت خاضعة لهيمنة الثقافة العربية في ذلك الوقت؛ وهذا الطبق ما زال معروضاً في متحف تورفان ويستطيع الزوار أن يشاهدوه. وخلافاً للمعكرونة المسطحة، لا ينتمي طبق (الرَّفْيُولي) وغيره من أطباق (المعكرونة) الإيطالية المحشوة إلى صقلية؛ فهذه الأطباق كانت في الحقيقة من إبداع إيطاليا الشمالية، وإن ظلت معتمدة على قيام العرب بجلب الحنطة القاسية. وإذا كانت فارس بأطباقها الحنطية المحشوة مصدر الجِيَاوْزِي (والبلمني الروسي) فإن من شأنها أن تكون أيضاً ذات أثر مستقل ولاحق على (الرَّفْيُولي) بجنوا. وحتى لو كان هذا التأثير قد جاء متأخراً، فإن من غير المحتمل أن يكون ماركو بولو قد مارس تأثيراً معينا على صعيد تحسين المطبخ الجنوي ما لم يكن قد علّم سجّانته فن حشو الجِيَاوْزِي في أوقات فراغه بدلاً من الانشغال بالإملاء على روستيتشيللو.

و(البوظة) تشكل القضية الخلافية أخرى. فالأسطورة تقول إن ماركو بولو شاهد صنع (البوظة) في الصين وجلب الوصفة إلى أوروبا.[12] ولكن هذه الأسطورة تبدو عائدة إلى القرن التاسع عشر لأن وصف العالم لا يرد فيه أي شيء يمكنه أن يشي بـ(البوظة). وحين كان روبن واير عاكفاً على تدقيق

جملة أو اثنتين في المدخل على ضوء بحثه الحاسم حول (البوظة) سألني عن ماركو بولو، فزودني، بسؤاله هذا، بأحد الحوافز العديدة الدافعة نحو متابعة عملي عنه. فبعد الحديث مع روبن والبحث في مسألة (البوظة) بات واضحاً أنه كان محتملاً أن الصينيين من سلالة تَنْغ (618 - 907 م) كانوا يعرفون كيف يجمدون منتجات الألبان. ويبدو أن قصيدة شعرية من أواخر القرن الثاني عشر هللت للبوظة باعتبارها «مادة شبه شحمية ولكنها متماسكة القوام مثل حجر اليشب في قاع الطبق، ولكنها تذوب في الشمس».[13] ومهما يكن، فإن عملية إنتاج الثلج ومعرفة أساليب خفض درجات الحرارة إلى ما دون درجة تجمد الماء هما من الأمور المعقدة تماماً، ويبدو أن العلماء الأوربيين لم يحققوا النجاح المطلوب في دراستهما حتى القرن السادس عشر، أي إلى ما بعد وفاة ماركو بولو بوقت غير قصير. وصناعة الثلج و(البوظة) في أوروبا، لم تبدأ، في الحقيقة، إلا في القرن السابع عشر.

ومن الممكن أيضاً أن يكون العرب قد لعبوا دوراً في نقل فن صنع الثلج، وإن تطلب فهم السر من جانب العلماء الأوربيين ثلاثة قرون أخرى، لأن هذا الفن وارد في كتاب طبي عربي يعود إلى القرن الثالث عشر.[14] وكما هي الحال مع (المعكرونة) الإيطالية، يمكن اعتبار (البوظة) سابقة لماركو بولو بما يزيد على ثلاثمئة سنة. وفي هذه الحالة فإن عمليات الربط تمت بعد الحَدَث بوقت طويل ولا علاقة لها بكتاب ماركو بولو أو بالوقائع القليلة المعروفة عن حياته. ومرة أخرى، يعمد [ماركو بولو]، ببساطة، إلى إقامة جسر ملائم بين حضارتين بالغتي الاختلاف والتباين محلقاً فوق البوتقة المطبخية الحاسمة لبلاد فارس.

1- Aeneas Anderson, *A Narrative of British Embassy to China* (London, 1795), p. 81.

2- jiaozi.

3 - أي (الأنثربولوجيا) - (ز. م).

4- Roland Latham, *Marco Polo: The Travels* (Harmondsworth, 1958), p. 128.

5- For *The Food of Italy*.

6- Claudia Roden, *The Food of Italy* (London, 1989), pp. 176-9.

7- mandili di sea.

8- tria.

9- Ibid., p. 26.

10- Chang Kwang-chih, *Food in Chinese Culture*, (New Haven, 1977), p. 7.

11- W. Watson (ed.), *The Genius of China* (London, 1973), p. 133.

12- Caroline Liddell and Robin Weir, *Ices* (London, 1993), p. 10.

13- Ibid., pp. 10-11.

14- Ibid., pp. 11.

10) أسوار داخل الأسوار

لعل وصف ماركو بولو أماكن في الصين وما وراءها يشكل مساهمته الأبقى في معرفتنا بالشرق في القرن الثالث عشر. فحديث «شاهد العيان» التقليدي الأول عن مدن الصين الكبرى، ينطوي على أهمية خاصة لأن العديد من الأماكن الموصوفة إما بادت مثل العاصمة الصينية المغولية: شَنْغْدُو، أو تغيرت حتى بات التعرف عليها شبه مستحيل، كما هي الحال مع بكين الصاعدة اليوم. فهزيمة الحكم المغولي في عام (1368 م) وما أعقبها من قيام إمبراطور مِنغ «الصيني» (وقد كان من أصول أكثر وضاعة من عائلة جنكيزخان، وإن كانت مثلها في فقرها المدقع) بتحرير الصين، أدت إلى تدمير العاصمة المغولية، بكين، مع الكثير من المراكز التي قاومت. كما انطوى سقوط سلالة مِنغ نفسها في عام (1644 م) حين آلت السلطة إلى سلالة مانشو كينغ، على عملية إعادة تسوية بكين ومدن أخرى كثيرة مع الأرض. وفي القرن التاسع عشر قامت حركة العصيان التي حرض عليها المسيحيون، وسعت إلى تأسيس **تايبينغ تيانغو** (أي «مملكة السلام السماوي») بتدمير جزء كبير من منطقة دلتا اليانغتسي بما فيها عدد كبير من أحياء يَنْغْجُو ونانجينغ وسُوجُو وهانغجو. وحتى في أيامنا هذه، تتم إزالة الأحياء القديمة للعديد من ألطف مدن الصين لرفع الأبراج المكتبية مكانها. وبالتالي فإن وصف ماركو بولو أمجاد هانغجو وسُوجُو، اللتين تتعرض مبانيهما وجسورهما للزوال المحتوم، يظل هو الباقي.

وبالإضافة إلى الهدم المتعمد، ثمة مشكلة كبرى تواجه كل من يرغب

في استعادة تراث الصين المعماري ألا وهي تلك المتمثلة بكون جل المباني الصينية مبنية بالخشب الذي كان مادة البناء الرئيسية؛ فحيثما أخفقت الجيوش الغازية أو المتمردة على حد سواء، فعلت أهوال المناخ والزمن فعلها بنجاح. وبالنسبة إلى المعابد الهامة فإن إعادة بنائها، بعد سقوطها، كانت تتم باستخدام الخشب ثانية في البقع ذاتها. وخلافاً لليابانيين الذين كانوا، في التعامل مع معابد معينة عائدة إلى القرن الثامن، يتطرفون في احترام الأصل، مستبدلين بكل قطعة خشب خربة نموذجاً مماثلاً تماماً،[1] كان الصينيون يعيدون بناء معابدهم وفق الأسلوب الدارج. وبالتالي فإن معبداً يوصف بأنه يعود إلى القرن الثالث، قد يكون من مباني القرن التاسع في أفضل الأحوال، كما أن دعاماته وقمم أسقفه البرجية ربما لم تكن من نمط القرن الثالث بل من نموذج القرن التاسع عشر.

ثمة مبان معينة، شيدت بمواد أكثر قدرة على الدوام، باقية فعلاً وقد تصح مقارنتها بما رواه ماركو بولو؛ كما أن مدناً معينة مثل هانغجو تمت دراستها عبر عقد المقارنات بين رواية ماركو بولو ونصوص صينية معاصرة. فوصف ماركو بولو مخطط بكين، مثلاً، يعيد إحياء مدينة يمكن التعرف عليها، مايزال نمطها الشبيه برقعة الشطرنج جلياً في أماكن معينة (رغم أن شق الطرق العريضة ذات المسارب الثلاثة وبناء الأحياء البرجية الصارخة الآن يفضيان بسرعة إلى مسح مدينة ظلت تقليدية في أجزاء منها حتى أواخر الثمانينيات، من الوجود).

إن وصف ماركو بولو بكين، عاصمة قوبيلاي المبنية حديثاً، لهو وصف بالغ الغنى. فهو يصور الستائر الترابية التي تحيط بالمدينة، «المبنية على شكل مربع» و«ذات شرفات مفرجة ومطلية بالكلس الأبيض».[2] وهذه الستائر مازالت رؤيتها ممكنة على امتداد كشويُآن لُو شمال المدينة، وقد أحاطت بقطعة كبيرة من الأرض داخل محيطها البالغ أربعة وعشرين ميلاً، ممتدة إلى ما هو أبعد في الشمال من مدينتي مِنغ وكينغ اللاحقتين، مع أن قطعة

الأرض المسورة لم تكن مربعة، كما يصر ماركو بولو، بل مستطيلة. ويُعتقد عموماً أن قطعة الأرض المسورة فيما وراء الأقسام المبنية من المدينة كانت دلالة على الرغبة المغولية السالفة في البقاء بالقرب من قطعان كبيرة من الخيل والجمال والأغنام، في حين اعتبر سكان المدينة اللاحقون السور جداراً يحيط بالمدينة نفسها لا بالمراعي.

أما أسوار المدينة الخارجية فلا تبدو أسواراً سبق لها، في وقت من الأوقات، أن كانت ذات شرفات مفَرجة، كما أن الإشارة إلى الطلاء الأبيض تبعث على الحيرة، رغم إمكانية انطواء هاتين العبارتين على تفسيرين بسيطين. فأسوار المدن الصينية شيدت على قاعدة من التراب المدكوك، وغُلفت أحياناً بألواح رمادية من القرميد، مثل تلك التي ماتزال ماثلة للعيان على بوابات المدينة الباقية في بكين. وإيراد الشرفات المفرجة قد يكون تأنقاً بلاغياً لتأكيد جلال تلك الأسوار الترابية المدكوكة العالية والراسخة، ولكن الأبيض، ناهيك عن مدى صعوبة طلاء تلك المساحات الواسعة من السطوح الترابية، ليس لوناً مناسباً للشرفات المفرجة ولأسوار المدن في الصين أو غيرها. والجدر المطلية الوحيدة في بكين اليوم هي تلك الحمراء الداكنة المحيطة بالمدينة المحرَّمة. ولما كان من المعروف أن المغول اعتمدوا التصاميم الصينية في بناء العاصمة الجديدة: بكين، فإن الطلاء الأبيض يبقى غير وارد، ولكن بهاء المشهد ربما أدى، مرة أخرى، إلى انبهار الكاتب.

ومخطط مدينة بكين، كما يُرى من أسوار المدينة العالية، يجري وصفه على النحو التالي: «الشوارع بالغة الاتساع والاستقامة مما يجعلك، إذا كنت على السور فوق إحدى البوابات، قادراً على رؤية امتداد أي شارع من بدايته إلى البوابة المقابلة». وبين هذه الجادات العريضة «يكون قلب المدينة كله مقسماً إلى مربعات مثل رقعة الشطرنج»، تتخللها عَرَصات مخصصة للسكن «مربعة قيست بالمسطرة»؛ و«في كل موقع ثمة دارات كبيرة وفسيحة ذات أفناء وحدائق رحبة».[3] أما المتاجر فمصفوفة على امتداد

الطرق الرئيسية. هذا الوصف يطابق تماماً المخطط التقليدي للمدن الصينية، مثلما يطابق نمط مدينة بكين اللاحقة. والمدينة الموصوفة في كتاب **وصف العالم** تعرضت للتدمير عند سقوط المغول، ولم تتقرر إعادة العاصمة إلى الموقع حتى أوائل القرن الخامس عشر في عهد إمبراطور مِنغ الثاني، ولو بشيء من التوجس إزاء تضاؤل «سعد» (فِنْغْشْوِي:) موضع جراء التدمير. ومدينة مِنغ اللاحقة هذه كانت هي الأخرى مخططة على شكل رقعة شطرنج، ولكنها جاءت إلى الجنوب قليلاً من مكان المدينة المغولية.

وبسبب لاديمومة الخشب من جهة والتدمير المتكرر بانتظام على أيدي الجيوش (الغازية) وحركات التمرد (الداخلية) من جهة أخرى، تتم دراسة جُل تاريخ هندسة العمارة الصينية بصورة معكوسة، عبر النظر إلى ما هو باق وإعادة خلق الماضي بالاستناد إلى مصادر نادرة. وكلام ماركو بولو عن بكين ليس إلا إعادة خلق لمدينة بائدة، ولكنه متفق بشكل مقنع مع الطريقة التي كان الصينيون يفضلونها في البناء. فمنذ سلالة شانغ (من حوالي القرن السادس عشر قبل الميلاد إلى حوالي عام «1066 ق. م») وصاعداً، كانت المدينة مستطيلة ومسورة بصورة نموذجية، وقصر الحاكم في المركز، داخل بقعة مستطيلة مسورة مرة أخرى. أما الشوارع والجادات فكانت مستقيمة، والبيوت محاطة بأسوارها الخاصة على قطع من الأرض المقسمة بمخطط الشوارع. وحدها الدكاكين المصفوفة على امتداد الشوارع الرئيسية كانت موجهة إلى الخارج، مفتوحة على الشارع؛ وما عدا ذلك كان مسوراً ومحجوباً. ومنذ أقدم العصور سادت معتقدات حول كيفية اختيار الأمكنة التي تجلب «الحظ» للمباني، مستمدة من نظام عرف باسم فنغشوي، بمعنى (الهواء والماء) أو الضرب بالرمل. وممارسو فنون الضرب بالرمل كانوا يلوذون، طلباً للمشورة، بكتيبات ذات عناوين مثل: أسرار الحقيبة الزرقاء (أي الكون)[4] ويستخدمون بوصلات خاصة لتحديد التواريخ والمواقع الميمونة للقبور والمباني الهامة. وداخل المدينة، كانت العَرَصات محددة سلفاً

بمخطط الشوارع؛ وبالتالي فإن البيوت ذوات الفناءات الواقعة خلف أسوارها العالية كان يمكن أن تُبنى دون الرجوع إلى أي ضارب بالرمل، أما موقع المدينة بالذات فكان، على الدوام، يجري تسويغه عبر الرجوع إلى الضاربين بالرمل. وقد كانت المدن والبيوت تتجه جنوباً، مع ماء جار أمام المبنى أو المدينة في الحالة النموذجية. وعملية بناء المدن على سهل بكين كانت ميسرة لأن مجاري المياه كان يمكن جرها من نهر يونغدينغ وتمريرها بالمدينة والأرض المنبسطة، دون بروز أية مشكلات تنجيمية. أما مدينة نانجينغ الواقعة ،في الصين الجنوبية، فكانت، على العكس، ذات أسوار غير منتظمة، مضغوطة على سفوح التلال، وذلك كان يفضي إلى خلق مشكلات أكبر بكثير لمخططي المدن التقليديين، مقارنة ببكين المنبسطة.

وانتظام مخطط شوارع بكين، مقارنة بنظائرها في مدن الجنوب الجبلي، يعني أن المرء، حتى اليوم، يستطيع بسهولة أن يسترشد بإبرة البوصلة. فاتجاهات الشوارع ليست، عموماً، «يسارية» و «يمينية»، بل شمالية، جنوبية، شرقية أو غربية. حيث يقال لك أن تسير شمالاً مسافة حارتين فتجد المبنى الذي تسأل عنه على الجانب الغربي من الشارع. (ولتحديد الجهة في المدينة أهمية كبيرة حتى أنني سمعت أحد أهالي بكين يحدد مكان معطفه المعلق على المشجب قائلاً: «إنه الغربي»).

وعلى الرغم من أن ماركو بولو لم يصف العمارة المنزلية بأي تفصيل، وربما لم يكن قادراً على التوغل إلى ما وراء الأسوار العالية للبيوت الفنائية، فإن أحد التفاصيل يبقى ذا أهمية استثنائية لأنه قد يشي بخطط البناء المغولية تحديداً. ففي معرض وصفه لحدائق قصر قوبيلاي خان، يقول ماركو بولو إن «العشب ينمو هنا بوفرة، لأن كل الممرات مرصوفة ومرفوعة مقدار ذراعين كاملتين عن مستوى الأرض، حتى لا تتراكم الأوحال عليها ولا تتجمع مياه المطر في برك، بل تتسرب الرطوبة إلى المروج الخضراء...».[5] ولتأكيد أهمية العشب، لأن المساحات الخضراء ومروج العشب لم تكن تشكل

جزءاً من ثقافة الحدائق الصينية التقليدية اللاحقة. فعلى النقيض من ذلك تماماً، كان العشب يتعرض للاستئصال دونما رحمة لأنه يؤوي البعوض، كما كان يقال. (أمضيت العديد من الأمسيات وأنا أزيل الأعشاب في آخر أعوام الثورة الثقافية، لأن ذلك كان أحد أنماط العمل اليدوي الإلزامي الذي كان يثير شيئاً من الأسى لدى الطلاب البريطانيين المولعين بالمروج). أما بالنسبة إلى المغول القادمين من المراعي الرحبة، فلربما كان العشب أحد الجوانب الجذابة لأي فناء.

يمكن أيضاً أن تكون الممرات المرفوعة التي يذكرها ماركو بولو تعبيراً عن سمة معمارية مغولية خاصة. ونموذجياً، ربما كانت الباحات الصينية ذات ممرات مرفوعة حول محيطها ولكن ليس عبر المركز عادة، في حين أن أحد المعابد المغولية القليلة الباقية في الصين، أي يُنْغْليه غُنْغ (أو قصر السعادة الأبدية) القريب من رُويتْشنْغ في إقليم شَنْكْسِي، يكشف عن ممرات مرفوعة، عالية جداً تخترق قلب الباحات الرئيسية. وقد شوهد المخطط نفسه في أطلال بيت فنائي العائد إلى الحقبة المغولية، والتي جرى نقبها من تحت أسوار مدينة سلالة مِنغ في بكين. وماركو بولو لا يقول صراحة إن الممرات المرفوعة تخترق قلب المساحات المغطاة بالعشب، ولكن كلامه على أن هذه الممرات هي لضمان التوزيع العادل لماء المطر على العشب، يغلّب احتمال أن يكون ذلك هو ما قصده.

إن وصف ماركو بولو قصر الخان الكبير الذي اختفى تماماً، إذ أزاله المِنغ رمزاً لتحريرهم، يؤكد الجانب الرسمي. فهو يتحدث عن ولائم تُعقد في صالات رحبة تتسع لستة آلاف شخص، فضلاً عن الاحتفالات الطقسية المرتبطة باللهو المغولي. أما جدر الصالات الكبيرة فكانت مزينة بالذهب والفضة، بمناظر الحيوانات ومطاردتها، وبحيوانات حوافرها تشع بـ «القرمزي والأزرق والأخضر والأصفر وكل ما يخطر بالبال من الألوان».[6] وكلام ماركو بولو يفوق ما هو خرافي في وصفه المستودعات ومجمعات

المقصورات والممرات الكائنة في الباحة الخلفية إذ يقول: «إن عدد الحجرات محير تماماً»،[7] ويضيف أن المقصورات الخلفية حيث تعيش النساء، مغلقة في وجه الغرباء. وهذا التدبير الذي كان متبعاً في القصر الملكي لسلالتي مِنغ وكينغ بيكين، كان تقليداً صينياً. فالمقصورات الخاصة كانت تقام في مؤخرة الباحات المسورة في حين كانت الصالات الكبرى المخصصة للاحتفالات العامة قريبة من البوابة الرئيسية، ولم يكن مسموحاً للغرباء ولغير أعضاء العائلة أن يتوغلوا عميقاً في الباحة.

ومثل قصر الخان، ثمة مبان معينة موصوفة بقدر من التفصيل، ولكن واحداً منها مازال قائماً. إنه جسر في ضواحي بكين مازال يُعرف لدى أدلاء السياح والزوار الأجانب باسم «جسر ماركو بولو». وهو صرح أنيق ينطوي على أهمية استثنائية لأنه، خلافاً لحال القصر والمعابد الخشبية التي إما دُمِّرت إلى غير رجعة، أو أُعيد بناؤها كلياً حتى باتت غير معروفة إلا من حيث الموقع، ظل قائماً من القرن الثالث عشر إلى يومنا هذا.

وهذا الجسر يقع على بعد ستة عشر كيلومتراً إلى الغرب من بكين، فوق نهر يُعرف الآن باسم يُنْغْدِنْغ، غير أن هذا الاسم كان في الماضي: لُوغُو؛ أما التسمية التي يطلقها ماركو بولو على الجسر، أي: بُولِسَنْغِن، فهي إما عبارة فارسية تعني «جسر حجري»، أو صينية ـ فارسية تعني «جسر سَنْغَن» (كان سَنْغَن أحد الأسماء القديمة للنهر). ويقول ماركو بولو إن الجسر يقع على بعد عشرة أميال من بكين «باتجاه مغرب الشمس»، بطول يبلغ ثلاثمئة إلى أربعمئة خطوة وعرض يصل إلى ثماني خطوات (مع تباين المقادير في المخطوطات المختلفة)؛ ويتابع ماركو كلامه ليقول: «له (أي للجسر) أربع وعشرون قنطرة وأربعة وعشرون عموداً في الماء تدعمها، وهذا كله من الرخام الرمادي المتقن نحتاً وتأسيساً. وثمة في الأعلى عند كل من طرفي الجسر ستار أو جدار جميل من الأعلام المصنوعة من الرخام وركائز مصطنعة [في نسخة رَموزيو فقط]......».[8] ويصف (ماركو بولو) أعمدة

مدعومة بأسود حجرية، تبدو أشبه ببلاطات لها نقوش تذكارية مدعومة عادة فوق سلاحف حجرية كان يتكرر نصبها في أماكن خاصة:

وعلى كل من طرفي الجسر عدد كبير من الأعمدة، وتحت كل عمود، كما لو كان قاعدة له، أسدٌ حجري، وعلى رأسه، بالمثل، أسد آخر [ولا تظهر هذه التفاصيل إلا في خلاصة لاتينية من أوائل القرن الخامس عشر موجودة الآن في فيرارا]، والفراغ ما بين العمود والآخر مغطى بيبرق من الرخام الرمادي مملوء بنحوت مختلفة ومثبت في العمودين عند الطرف [نسخة رَموزيو فقط]، وبالتالي فإن هناك على الجسر ما مجموعه 600 عمودٍ و 1200 أسد حجري على كل من طرفي الجسر، وهي كلّها من الرخام البديع جداً [طبعة القرن الرابع عشر اللاتينية فقط]..[9]

أما اليوم فليس للجسر سوى إحدى عشرة قنطرة، والسجلات الصينية تشي بأن العدد لم يسبق له أن تجاوز ثلاث عشرة؛ ومن المؤكد أن العدد لم يصل في أي وقت من الأوقات إلى أربع وعشرين. وقد خطر على بال يُول أن ماركو بولو ربما كان يتذكر جسراً آخر، إلى الغرب، على نهر ليولي. ولكن هوامش طبعة يُول الثالثة تتضمن معلومات مأخوذة من الأب السيد آمنت تشير إلى عدم وجود أي جسر على نهر لِيُولي حتى عام (1522 م)؛[10] وبالتالي فإننا نبقى مع الجسر الأصلي والافتراض القائل بأن ماركو بولو، إذا كان رآه حقاً، إما نسي التفاصيل أو كان مبالغاً مرة أخرى.

أما الجسر الحجري الباقي الذي نحن بصدده فقد شيد بين عامي (1189 و1192 م) وجرى ترميمه مرتين، الأولى في عام (1444 م) والثانية في عام (1698 م). ولهذا الجسر 120 عموداً درابزينياً مروساً (وإن لم يكن مسنوداً من الأسفل) بأسود صغيرة منحوتة، والحجارة «الفاصلة» في أعلاه ملساء. وعند كل من نهايتي الجسر ثمة فيل حجري منحوت ينطح الحاجز بجبهته.

وبما أن التفاصيل المتبقية من أعمال الترميم قليلة، فإن من الممكن أن يكون الفيلان من الإضافات اللاحقة. وإذا قسمنا عدد القناطر، وتجاهلنا إغفال الأسدين واستبدال الأسود الواضح بالسلاحف الحاملة لألواح حجرية تذكارية، واختزلنا أعداد الأسود التي ذكرها (ماركو بولو) اختزالاً ذا شأن (بحذف تلك الموجودة أسفل الأعمدة لأنها لا تتفق مع الأساليب الصينية في بناء الجسور) وتجاهلنا الاسم الفارسي للموقع، وقمنا، كما فعل مول، بتجميع وصف نأخذه من مخطوطات متباينة، بلغات مختلفة؛ إذا فعلنا هذا كله فعندئذ يغدو مثل هذا الوصف قابلاً للتداول.

وثمة ملمح ذكره ماركو بولو من ملامح استخدام الأرض الحضرية في بكين يبدو شديد التناقض مع النمط اللاحق للممارسة العملية، ألا وهو أن «أعمال العنف» الرسمية، أي الإعدامات العلنية، كانت، على ما يبدو، تُنفذ في الضواحي الزراعية خارج أسوار المدينة،[11] وفي الفترات التالية شاع تنفيذ الإعدامات في أعم الأماكن الممكنة بغية إيصال الرسالة المطلوبة إلى أكبر عدد ممكن من الجمهور. ففي عهد سلالة كينغ (1644 - 1911 م) كانت الإعدامات في بكين تتم في سوق الخضار، وذلك جعل الأهالي يستخدمون عبارة «اذهب إلى سوق الخضار!» بدلاً من «اذهب إلى المشنقة!». وانطلاقاً من هذا التفضيل اللاحق للعقاب العلني، قد يبدو غريباً، بالمقابل، أن يكون المغول، أولئك الذين كانت شهرتهم في العنف والإرهاب تجعل أوروبا كلها ترتجف، قد أظهروا رقة إنسانية مفاجئة وراحوا ينفذون إعداماتهم في أماكن بعيدة تعبيراً عن الاحترام لمشاعر الجمهور.

ومن المدن الأخرى التي جرى تناولها بإطناب في **وصف العالم** مدينتا سُوجُو، «بندقية الصين» وهانغجو، المدينة الجميلة المشاطئة للبحيرة التي كانت عاصمة مؤقتة لسلالة سُنغ الجنوبية (1127 - 1279 م).

وسُوجُو، الواقعة في إقليم جْيَنْغْسُو، كانت ألطف أجمل المدن في

الصين. فعلى امتداد قرون من الزمن نجحت هذه المدينة الواقعة في دلتا يانغتسي الندية، الخضراء، «أرض السمك والأرز» حيث رُويت حقول الأرز السندسية المشرقة بآلاف الجداول والقنوات العابرة للسهل طولاً وعرضاً، في الجمع بين الأهمية الاقتصادية والأناقة الهادئة. والقناة الكبرى، والطريق المائية العظيمة التي شُقت للمرة الأولى في القرن السابع لنقل الأرز من الجنوب الخصيب باتجاه الشمال، تخترق أطراف المدينة التي اشتهرت بإنتاجها الحرفي اليدوي. وقد كان الحرير المنتج في الأرياف المحيطة يُنسج في سُوجُو ويتمتع بكثير من الشعبية، وكان لباساً سائداً بين صفوف متأنقي القرن الثالث عشر (وما بعده). والجزء الأكبر من إنتاج الصناعات اليدوية كان من النوعيات الأرقى لأن سُوجُو كانت، منذ القرن العاشر، مكان الإقامة المفضل لدى موظفي الحكومة المتقاعدين والباحثين الأكاديميين الذين دأبوا على تزيين بيوتهم الظريفة بالمفروشات الخشبية البديعة، بلواحق مكاتب الباحثين الأكاديميين ولوازمها، وبمختلف اللوحات والنقوش. وحدائق سُوجُو مازالت ذائعة الصيت، رغم أنها تعود بأكثريتها إلى عهد مِنغ (1368 - 1644 م) أو بعده، حتى أن أولاها ذوات أصول سُنغية (نسبة إلى سلالة سُنغ). وكانت عملية إنشاء أية حديقة صينية تنطوي على سلسلة كاملة من الخدمات لأن الحديقة مزينة، إضافة للنباتات والزهور، بالكتابات المنقوشة على اللوحات الحجرية المنحوتة، وبالممرات المفروشة بالحصى، وبالأراجيح ذوات الهندسات المعقدة. فبناة الأراجيح الذين كانوا في الغالب يستخدمون كتلاً كبيرة من الحجارة المجلوبة عن طريق القناة من بحيرة تاي الواقعة ،على بعد حوالي خمسين كيلومتراً، ما لبثوا أن أصبحوا خبراء ذوي أجور مرتفعة؛ أما الأشكال الهندسية في البيوت والحدائق، والأجنحة الأنيقة، والستائر الداخلية الخشبية المنقوشة، والمناظر الآجرية المزخرفة فوق البوابات، فكانت من إنتاج عصبة متنامية من العمال ذوي المهارة العالية.

وسُوجُو هذه يعتبرها ماركو بولو مركزاً لإنتاج الحرير، كان أهلها حرفيين

وتجاراً رائعين، شيء أشبه بحديث مختزل، ولكنه ذكر أيضاً أحد أبرز سمات المدينة قائلاً: «جسورها الحجرية التي يصل تعدادها إلى ستة آلاف بالتمام، هي من النوع الذي تستطيع سفينة شراعية أو اثنتين أن تمر بسهولة من تحت كل منها».[12] وشوارع سُوجُو غالباً ما كانت تساير قنوات ضيقة، حيث كانت النساء يغسلن الملابس والخضار، تقطعها جسور حجرية صغيرة. أما على القناة الكبرى والأعرض فقد كان هناك عدد كبير من جسور «حزام الفرس» الحجرية الأنيقة، التي هي صروح حجرية عالية علواً دراميا، ناحلة، لها قناطر منفردة، كانت ظلالها تكمل دوائر تامة شبيهة بالأحزمة تنعكس في الماء في الأسفل، وكانت تسمح بمرور قوارب القناة المحملة. ودون إنصاف المدينة إنصافاً كاملاً، ربما لأنها لم تترك انطباعاً شديد الإثارة لدى شخص من البندقية لأن أكثر طرقها المائية وجسورها كانت ضيقة وضئيلة الأبعاد، قال ماركو بولو أيضاً إن سُوجُو كانت سوقاً للزنجبيل والراوند المستنبت في الجبال القريبة، على الرغم من عدم وجود أية جبال قريبة كهذه، لأن سُوجُو تقع في منطقة دلتا اليانغتسي المنبسط الرطب، والزنجبيل يجري استنباته في أماكن أبعد إلى الغرب. أضف إلى ذلك أن إنتاج الراوند لا يتم، بالتأكيد، قرب سُوجُو، ولم يسبق لذلك أن حصل قط. أما ما يطلق عليه يُول اسم «سوق الراوند الكبيرة» فقد كانت سُوجُو أخرى في إقليم غَنْسُو.[13]

وعلى الرغم من أن هناك اليوم من يشبّه سُوجُو بالبندقية أحياناً، فإن هَنْغْجُو (كِنْسَاي، كُوِنْسَاي) بلدة قريبة من كُيَنْتِنْغ، مجاورة للقناة الكبرى، وواقعة على شاطئ البحيرة الغربية الكبرى،[14] هي التي يقارنها ماركو بولو بالبندقية. من المحتمل أن يكون بولو قد عكس الأمر، فسُوجُو هي الوحيدة المخترقة طولاً وعرضاً بالقنوات الشبيهة بالطرق المائية الأصغر في البندقية، على الرغم من أن الأمداء الأوسع للماء في جوار هانغجو أقرب مقاساً (وإن لم يكن من حيث المناظر) إلى ريالتو. وقد تحدث ماركو بولو عن 12000

جسرٍ في هانغجو، وهو زعم أثار قلق الكولونيل يُول لأن «وسّاف لا يتكلم إلا عن 360 جسراً فقط»،(15) ولكننا، ودفاعاً عن ماركو بولو، نعلم أنه كان يُعتبر ميالاً إلى المبالغة، وأن عدده الهائل كرره «أو ربما نسخه» الراهب أُدُريك البوردينوني.

أما جاذبية سُوجُو فقد كانت كامنة في حدائقها الخاصة، وبيوتها الأنيقة، وجسورها ومعابدها، المتطرفة، ربما، في صينيتها من حيث الروح بالنسبة إلى العديد من الزوار الأجانب. وأصداء وصف ماركو بولو الأطول لهانغجو وتقديره الأعلى الواضح لهذه المدينة ما لبثت أن ترددت في حماس أعضاء السفارة البريطانية الأولى إلى الصين، الذين وجدوا البحيرة المكشوفة الكبرى، الهاجعة بين أحضان سلسلة من التلال المزركشة بباغودات (معابد بوذية متعددة الأدوار) أنيقة، ومنظراً أخاذاً يناسب كثيراً الذوق الإنجليزي في القرن الثامن عشر. وماركو بولو، الذي لم يأت على ذكر باغودا (معبد) باو تشو ذي الشكل الصاروخي غير العادي (جرى ترميمه في عام 1003 م) يقول إن بحيرة هانغجو المحاطة بالمعابد والدارات الفخمة كانت مغطاة بقوارب لهو مسطحة مطلية بألوان زاهية، كانت تتهادى بتؤدة حتى يتمكن العاكفون على الطعام من الاستمتاع بوجبة شهية (برفقة «زوجاتهم أو نساء مأجورات») وهم يبهجون، في الوقت نفسه، «عيونهم بتنوع جمال المناظر التي يعبرون من خلالها»،(16) وهذا وصف مألوف لسياح معاصرين طُوِّفوا ببطء في أرجاء البحيرة وزُودوا بقوارير عصير البرتقال الغازي، ولكن دون نساء مأجورات.

وماركو بولو التاجر يؤكد الإنتاج الحرفي في هانغجو، وهو إنتاج منظم من قبل نقابات حرفية وممارس في أحياء مميزة من المدينة، ولكن بعض أوفى أشكال الوصف لأحياء الحرفيين، حيث كانت التقاليد ما تزال تقضي بإجبار الأبناء على متابعة حرف الآباء، وحيث كان التعبير عن الثروة متمثلاً بالأثواب الحريرية والمجوهرات التي ترتديها وتتزين بها زوجات أفضل

الحرفيين، لا يرد إلا في طبعة رَموزيو. وأسواق هانغجو العشر الكبرى (في رَموزيو فقط مرة أخرى) كانت تجتذب ما بين 40000 و 50000 من الزبائن، حسب كلام ماركو بولو الذي ابتاع سمكاً طازجاً، تم اصطياده في البحيرة الغربية، أو جرى جلبه عن طريق النهر من شاطئ البحر. وهناك نوع من الإجاص «تزن الواحدة منه عشرة أرطال، أبيض مثل العجين من الداخل وعطر جداً»،[17] يبدو شبيهاً بإجاص تيانجين الغريب الذي تستطيع ابتياعه اليوم، الإجاص ذي الهبر الأبيض الهش، ولكن المملوء بالعصارة، لا مثل إجاصنا الذي يكون إما قاسياً بلا عصارة أو طرياً مفتقراً إلى أية قابلية مضغ مميزة. وحبات الإجاص تلك ربما كانت كبيرة، ولكن الوزن الذي يذكره ماركو بولو يجب أن يكون نموذجاً آخر من مبالغاته الشهيرة. وهذه، إضافة إلى العنب والزبيب (المستورد) هو الفاكهة الوحيدة المذكورة بالاسم. أما وصف ماركو بولو للحوم المتوافرة فإسلامي بشكل غريب. وقد لاحظ مول غياب لحم الخنزير من قوائم المنتجات في سوق اللحوم (لحم الكلاب وارد)؛ وألمح، بعد الإشارة إلى أن لحم الخنزير بالتحديد أورده أُدرِك البوردينوني، إلى أن ماركو بولو ربما تعرض لشيء من التحول إلى الإسلام وهو بين المحمديين في بلاط الخان».[18]

ومن جوانب حياة هانغجو اليومية الأخرى التي ذكرها ماركو بولو: الحمّامات العامة والبيوت ذوات الطبقات المتعددة، وما يترتب على ذلك من أخطار الحرائق. وكانت عادات الاغتسال مختلفة في أرجاء الصين، ولكن الصين الجنوبية كانت أكثر من الغرب أو الشمال ولعاً بالاستحمام. وقديماً جداً، يبدو أنه كان من عادة الموظفين أن يستحموا ويغسلوا شعرهم في البيوت مرة كل عشرة أيام، حتى باتت الرواتب تعرف باسم «تعويضات الاستحمام وغسل الشعر»، وكان العاملون في خدمة الحكومة يعطلون يوماً كل عشرة أيام للاغتسال.[19] ولأن من المفترض أن الطبقات العليا كانت ما تزال تستحم في البيوت، فإن حمامات السوق التي

يذكرها ماركو بولو ربما كانت للناس العاديين. وهذه تبدو كما لو كانت أماكن لتمضية الوقت، لاحتساء الشاي، ولتوفير سائر أنواع التدليك، كما هي حال الحمامات العمومية في الصين حتى الآن. ويفيد ماركو بولو بأن الماء العادي المستعمل كان يُجلب بارداً من البحيرة، غير أن الأجانب كانوا يستطيعون الحصول على حمامات ماء ساخن. وثمة زوار آخرون لفتت الحمامات أنظارهم (فثمة زائر ياباني في القرن الحادي عشر سجل بعناية قائمة الأسعار المثبتة على الباب الذي كان موسوماً بصورة جرة كبيرة) وكالحمامات الكبرى في تركيا، مثلاً، كان يتعذر عدم التنبه إليها بسبب طوابير الباعة المتجولين المصطفين قرب مبنى الحمام نفسه عارضين للبيع الصابون وغيره من لوازم الاستحمام، بما فيها مستحضرات التجميل المرخصة والعقاقير.

أما بيوت هانغجو في ذلك الزمان فقد وصفها الأجانب على أنها متعددة الطبقات، جميلة التزيين بالخشب المحفور، ومتزاحمة. فالرحالة العرب تحدثوا عن بيوت من ثلاث إلى خمس طبقات، إلا أن أُدْرِك البوردينوني (المبتلي قليلاً، مثل ماركو بولو، بالميل إلى المبالغة نفسها) وصف مساكن برجية من ثماني إلى عشر طبقات،[20] وهذا وصف يبعث على الدهشة لأن العثور، حتى في الصين الجنوبية، على بيوت أو دكاكين من أكثر من طبقتين أمر نادر، رغم أن المباني ذوات الطبقتين شائعة تماماً، وخصوصاً في المباني المصطفة على جوانب شوارع المدن الأكبر في الجنوب (حيث الدكان في المقدمة والمسكن في الخلف). أما بكين التقليدية فلم تكن هذه حالها، إذ حرص اللورد ستانلي، في أواسط القرن التاسع عشر، على إنكار أي شأن لعاصمة الصين قائلاً «بكين إخفاق عملاق، أليست كذلك؟ ليس في المكان كله بيت واحد من طبقتين، ما هذا؟!».[21] وعلى الرغم من عدم ورود الأمر في المصادر الصينية، فإن أرقام الإحصاء تؤكد حقيقة أن هانغجو ربما كان فيها بيوت متعددة الطبقات، لأن احتمال حشو

مليون من البشر في البقعة المسورة المحصورة بالبحيرة والتلال، دون التعويل على مساكن عالية، لم يكن وارداً.[22]

والبيوت الخشبية المتراصة كانت تزيد من أخطار الحرائق، وقد كانت مدن صينية كثيرة سباقة إلى تشكيل فرق مكافحة الحرائق المجهزة بالفؤوس والدلاء والملابس غير القابلة للاحتراق والحبال والسلالم اللازمة لمحاربة ألسنة اللهب، وبالأبراج التي كانت تنبئ عن مكان أي حريق ومدى شدته بواسطة البيارق.[23] ووصف ماركو بولو عملية مكافحة الحرائق في هانغجو المغولية يختلف قليلاً عن الممارسات المعروفة عن سلالة سُنغ السابقة، ويوحي بأن الإدارة المغولية (التي استخدمت الطبول بدلاً من البيارق للإشارة) كانت شديدة الصرامة في سيطرتها على السكان. وقد أتى بولو أيضاً على ذكر تشييد مستودعات حجرية أو آجرية لتخزين الأشياء الثمينة بغية حمايتها. وهناك برج حجري في الدارة العائلية الكونفوشيوسية ببلدة كُوفُو (الواقعة في إقليم شَنْدُنْغ)[24] كان يُستَخدم لحماية الممتلكات والناس لدى تعرض الدارة للهجوم، كما أن بلدات صغيرة في منطقة كانتون غالباً ما كانت تلوذ بمثل هذه الأبراج عند التعرض لهجمات القراصنة.

وإن وفرة التفاصيل عن أسواق هانغجو، عن قوارب اللهو المتهادية فوق البحيرة، والمعابد المطلة من التلال المحيطة، ودكاكين الورشات الحرفية (دون وصف منتجاتها للأسف) والحمامات، وخدمات فرق الإطفاء، وعن زوجات التجار المتحذلقات في ملبسهن، في **وصف العالم**، تقدم صورة نابضة بالحياة عن مدينة مزدهرة، من الواضح أنها غير متأثرة كثيراً بسقوط سلالة سُنغ الجنوبية في عام (1279 م). وجنباً إلى جنب مع العديد من النصوص الصينية، لأن جزءاً كبيرا من مضمون **وصف العالم** تؤيده هذه المصادر، فإن وصف ماركو بولو جرى توظيفه لخلق صورة متكاملة عن الحياة اليومية في الصين في أواخر القرن الثالث عشر.[25]

وعند المقارنة يتضح أن وصف ماركو بولو لكوانجو (زايتون، زالتون) غير واف. فقد وصفها، بدقة، على أنها أحد الميناءين البحريين الأضخم في العالم، لأن قسماً كبيراً من تجارة الصين إلى ما وراء البحار كان يشحن من كوانجو: حمولات سفن من أواني السيلادون الخضراء، من البورسلين الأبيض، ومن الحرير موجهة نحو جنوب ـ شرق آسيا واليابان. وقد حرص ماركو بولو على تحديد حمولات العودة من الجواهر واللآلئ من الهند، مع أن كتلة الشحنات الكبيرة كانت، فيما يبدو، مؤلفة، في الحقيقة، من التوابل، أو الأخشاب الثمينة، أو عناصر العقاقير الطبية. وفي ذلك الوقت كانت (المدينة) أيضاً أحد المراكز الإسلامية الرئيسية في الصين، حيث كان مفتش جمارك مسلم، وهو لقب شرف كان يحصل عليه التاجر العربي أو الفارسي الذي يستورد الكميات الأكبر من البخور؛ وهناك جامع بديع شيد في عام (1009 م) وثمة في الأطراف ضريحان لاثنين من أولياء المسلمين قيل إنهما وفدا إلى المدينة في عهد سلالة تَنْغ (618 ـ 907 م) ومع ذلك فإن ماركو بولو المعتاد على تمييز مسلميه من بوذييه، وصفها على أنها مدينة وثنيين (بوذيين) غافلاً أيضاً عن المعبد المانوي البديع القريب. وهو يصف النهر، خطأ، على أنه أحد روافد نهر كيانغتَنْغ المار بهانغجو. إن إيجاز الوصف يشي إما بغياب الصلة الشخصية، أو بقدر مدهش من الافتقار إلى الاهتمام بسبب الخلفية التجارية.

من المدهش، مرة أخرى، أن يَنْغْجُو التي خضعت، حسب ما جاء في إحدى المخطوطات، لحكم بولو مدة ثلاث سنوات، لا توصف إلا بأنها مركز إداري رئيسي، ينتج مراشح سروج الخيل المزركشة مع «لاشيء آخر هنا جدير بالملاحظة».(26) وحتى دليل السكك الحديدية الياباني في عام (1924 م) كان أكثر حماساً إذ قال: «ظل المكان على الدوام معروفاً على أنه بؤرة للمتعة واللهو... وفي أيام عز يَنْغْجُو، كان يقال إن من يدخل المدينة مرة طلباً للمتعة واللهو يجد نفسه عاجزاً عن الرحيل عنها حتى يكون قد

بدد كل ما معه». أما القناة الكبرى (التي أبحر فيها إمبراطور سوي من القرن السابع على مركب تجره فرق من الحسناوات) فكانت تلتف حول أسوار مدينة يَنْغْجُو؛ ومثلها مثل هانغجو كانت يَنْغْجُو مركزاً حرفياً أيضاً حيث كان يتم إنتاج اللوازم الضرورية للحياة المتأنقة، رغم أن بقاء المصدر الرئيسي لثروتها ظل يعتمد على الحرير والأرز والملح. ومثل شوجُو كانت يَنْغْجُو مكاناً يقع عليه اختيار الأغنياء للعيش فيه بانين مجمعات سكنية جميلة غنية بالحدائق. وعلى الرغم من أن ما بقي من المدينة إلى اليوم شيد في وقت متأخر كثيراً (كما جاءت شهرة يَنْغْجُو من كونها موطن ثمانية من رسامي القرن الثامن عشر «غريبي الأطوار» الذين استخدموا ضفائر شعرهم وأظافرهم فراشي أو رشقوا على الورق رشات من الحبر ليبدعوا مناظر مرقّشة مضطربة) فإن واحدة، على الأقل، من الحدائق الشهيرة كانت قد أقامها في عام (1048 م) الشاعر أُويَنْغ كُسيُو الذي كان يجلس في صالته المضاهية للجبال في علوها ليشرب ويكتب الشعر، والذي كان حاكماً لمدينة يَنغجو في القرن الحادي عشر، وسلفاً مرموقاً لماركو بولو.

1- L. Sickman and A. Soper. *The Art and Architecture of China* (Harmondsworth, 1971), pp. 400, 410-20.

2- Ronald Latham, *Marco Polo: The Travels* (Harmondsworth, 1958), p. 128.

3- Ibid., p. 128.

4- J. Needham (ed.), *Science and Civilization in China*, vol. 2, (Cambridge, 1985), p. 360.

5- Latham, *Marco Polo*, p. 126.

6- Ibid., p. 126.

7- Ibid., p. 125.

8- A. C. Moule and Paul Pelliot, *Marco Polo: The Travels* (London, 1938), vol. 2, pp. 255-6.

9- Ibid., 256.

10- Colonel Sir Henry Yule, *The Travels of Marco Polo: The Complete Yule-Cordier edition*, (1903, 1920; New York, 1993), vol. 2, p.6.

11- Latham, *Marco Polo*, p. 129.

12- Ibid., p. 212.

13- Yule, *The Travels*, vol. 2, p. 183.

14- However, he only did so in the ever-helpful Toledo version and one Venetian manuscript: see Moule and Pelliot, *Marco Polo*, vol. 1, p. 327.

15- Yule, *The Travels*, vol. 2, p. 194.

16- Jaques Gernet, *Daily Life in China on the Eve of the Mongol Conquest* (Stanford, 1970), p. 124.

17- Ibid., p. 31.

18- Yule, *The Travels*, vol. 2, p. 210.

19- Gernet, *Daily Life*, p. 31.

20- Ibid., p. 34.

21- A. B. Freeman-Mitford, *The Attaché at Peking* (London, 1900), p. 61.

22- Gernet, *Daily Life*, pp. 31-2.

23- Ibid., pp. 34-5.

24- Demao Kong, *The Mansion of Confucius* (London, 1989), p. 113.

25- By Jqcques Gernet in *Daily Life*.

26- Latham, *Marco Polo*, p. 206.

11) وفاته أعظم الأسوار

مع أن كتابات ماركو بولو عن الأماكن والمباني راوحت بين الوصف الوافي والمتقن لهانغجو من جهة والكلام الوجيز وغير الشافي عن كونجو ويانجو من جهة أخرى، فإن صرحاً هائلاً أخفق في الإتيان على ذكره هو السور العظيم. ومثل هذا الإغفال يبدو من اللحظة الأولى، خطيئة استثنائية لا تُغتفر، غير أن القضية ما تلبث أن تكتسب بعداً معقداً لدى بروز السؤالين التاليين: كيف كان السور العظيم يبدو في القرن الثالث عشر؟؛ وما مقدار الجزء الذي كان قائماً بالفعل من السور في ذلك الوقت؟

من لا يعاني قصوراً حاداً في الرؤية لا يسعه إلا أن يلاحظ السور العظيم، بل يندهش كثيراً بالفعل سواء نظر إلى إحدى خرائط الصين اليوم، أم في أثناء الطيران فوق الصين الشمالية، أو عند الوصول إلى هناك بالقطار العابر لسيبيريا. فمن المعروف عموماً أن سور الصين العظيم، وهو أحد عجائب العالم، يزحف متعرجاً كالثعبان على امتداد آلاف الأميال فوق تلال الصين الشمالية الغربية. وما زال الجدل دائراً حول طوله إذ تراوح التقديرات بين 24482 و 31250 ميلاً.[1] ولعل السبب الأول للتباين الكبير بين التخمينات كامن في أسلوب بنائه، عبر القرون وفوق أراض مختلفة مع جدر داخلية مزدوجة في بعض الأقسام. وعلى الرغم من طوله الهائل غير القابل للنقاش، وعرضه اللافت للنظر (إذ يتسع لأربعة فرسان في نسق على امتداد أجزائه الشرقية) فإن أحدث الخرافات عن السور تبقى كلاماً ليس له

أي أساس. فقد ظل يقال إنه الصرح البشري الوحيد القابل للرؤية من القمر بالعين المجردة: صحيح أن طوله درامي، ولكن عرضه ليس كافياً ليجعله مرئياً من القمر.

وللمرة الأولى شيد السور العظيم بالاستناد إلى أسوار سابقة أصغر وبالانطلاق من الولع الصيني المقيم منذ القدم بالأسيجة (إبعاداً للغرباء عن بيوتهم، وإبقاءً للناس في أماكنهم) في أثناء حكم إمبراطور كين: شي هوانغداي الذي حكم بين عامي (221 و 206 ق. م) والذي اشتهر أكثر بالضريح الضخم ذي الحفر الجانبية الملأى بـ «جيش مدفون» من تماثيل أكبر من البشر المحاربين مصنوعة من الصلصال، وقد بناه لنفسه بالقرب من خيان. من الواضح أن كين شي هوانغداي كان مولعاً بالمرافق العامة العملاقة التي شادها الجنود والمواطنين المجبرون على الخدمة الجسدية كجزء من تسديد الضرائب للدولة، يشقون الطرق ويبنون الأسوار في أرجاء الإمبراطورية. وسوره العظيم هذا كان يصل الأسوار المقامة من قبل بعضها ببعض، ويوسعها لحماية الدول «المتحاربة» المنفصلة التي ظلت تغطي شمال الصين حتى أخضعها ووحد البلاد في عام (221 ق. م).

وفي عهد سلالة خان التالية (206 ق. م - 220 م) حين وسعت الإمبراطورية الصينية سيطرتها غرباً عبر صحراء غُوبي، جرى مد السور أيضاً، كما تم نشر الحاميات للإبقاء على منارات الإشارة وأبراج الدفاع عن السور. وفي ذلك الزمن ربما كان السور مبنياً بالتراب في المقام الأول. فالصينيون ظلوا آلاف السنين يستخدمون «تربة» الصين الشمالية - الغربية «الصفراء» لبناء أسوار المدن والبيوت والقصور والأبراج. أما أسلوب البناء فيبقى هو هو حتى اليوم: يُهال التراب في قوالب من الألواح ويرص طبقات فوق طبقات وصولاً إلى أسوار ومنابر قابلة للدوام بشكل لافت للنظر. (أمضيتُ أسبوعاً سعيداً في خريف عام (1975 م)

في أعمال بناء أسوار لبيوت زجاجية شتوية في ضواحي بكين بهذه الطريقة).

أما إكساء أجزاء من السور بالآجر، بما فيها الأقسام الأقرب إلى العاصمة، فلم يتم حتى عهد سلالة مِنغ (1368 - 1644 م) بعد زيارة الأخوة بولو بعدد من العقود. ومن الممكن العثور على البنيان الراسخ الناتج عن عملية الإكساء في بادالينغ القريبة من بكين، حيث يشاهده أكثر السياح الآن. فهو أحد المعالم التي يحرص كل سائح في الصين على أن يراها، وتعود شهرته في أوروبا إلى القرن الثامن عشر وما قبله. ففي عام (1778 م) علق عليه الدكتور جونسون قائلاً:

> تحدثَ بحيوية غير مألوفة عن السفر إلى بلدان بعيدة، عن أن [السفر] يوسع العقل ويساهم في إكساب الشخصية جلالاً. كما عبّر عن حماسة خاصة حول زيارة سور الصين. وقد تمسكتُ بالفكرة للحظة وقلت إنني مؤمن فعلاً بأن علي أن أذهب وأرى سور الصين لو لم يكن عندي أولاد يقع على عاتقي واجب إعالتهم. «أيها السيد، (قال) بفعلك هذا تكون قد فعلت ما من شأنه أن ينطوي على أهمية على صعيد رفع أولادك إلى مرتبة الشهرة. سيكون هناك ألق ينعكس عليهم من روحك وفضولك. سيظلون في الأزمان كلها يُعتبرون أولاد رجل ذهب لزيارة سور الصين. إنني جاد أيها السيد»!.(2)

من الممكن أن يكون جونسون قد اقتبس انطباعه عن السور من موسوعة ديدرو (1765 م) حيث اعتُبر مضاهياً للأهرامات المصرية.

كذلك خلّف سور مِنغ لدى أعضاء سفارة اللورد مكارتني البريطانية الأولى إلى الصين أثراً عميقاً:

> ما كانت العين تستطيع، من نقطة واحدة، أن تحتضنه من تلك

الأسوار المحصنة، محمولاً على قمم التلال، فوق رؤوس أعلى الجبال، منحدراً ليغوص في أعمق الوديان، مخترقاً الأنهار فوق القناطر، ومضاعفاً مثنى وثلاث في أجزاء كثيرة للالتفاف على ممرات هامة، ومزركشاً بأبراج أو معاقل ضخمة كل مئة ياردة تقريباً، على مدى النظر، قدم للعقل صور إنجاز مذهل الضخامة.(3)

لعل سكرتير اللورد مَكَارْتْني: ستونتون، الذي درس جميع الكتب المتوافرة عن الصين قبل الانطلاق في البعثة، هو أول من أثار المسألة الصعبة المتمثلة بإخفاق ماركو بولو في تسجيل السور:

غير أن ماركو بولو، وهو الأوربي الأول الذي نشر شيئاً عن تلك الإمبراطورية، لم يأت على ذكر السور؛ لابد من الافتراض بأنه قد عَبَره، من تتاريا إلى أحد مواقع السور الآن، وهو يشق طريقه براً إلى عاصمة الصين. ومثل هذا الصمت أثار بعض الشكوك...... حول ما إذا كان السور موجوداً حقاً في القرن الثالث عشر.(4)

وفضلاً عن هذه الإشارة إلى احتمال أن السور لم يكن قائماً بعد، ساق سْتُنْتُون أحد أشكال الدفاع الرئيسية عن «صمت» ماركو بولو إذ ألمح إلى أن ذلك لم يكن إلا غلطاً تحريرياً قابلاً للتصحيح فيما لو كان «يقدم إلى العالم تقريراً منتظماً عن أسفاره بعد عودته مباشرة، بدلا من النتف غير المترابطة التي أملاها بعد الحدث بوقت طويل، بعيداً عن موطنه الأصلي، محروماً، حسب ما هو محتمل، من الملاحظات المسجلة ميدانياً، ومن غيرها من أوراقه الأخرى (كذا). ويتابع سْتُنْتُون دفاعه بإيراد صورة عن مخطط طريق ماركو بولو إلى الصين «مأخوذة من مكتبة دُوج في البندقية» تشي بأنه:

بعد اتباع المسار المألوف للقوافل باتجاه الشرق من أوروبا حتى

سمرقند وكَشغار، انعطف نحو الجهة الجنوبية ـ الشرقية عبر نهر الغانج إلى البنغال؛ وملازماً جنوب جبال التبت، وصل إلى إقليم شِنسي [شآنكسي] الصيني، وعبر إقليم شَنسي [شَنْكيسي] إلى العاصمة دون التقاطع مع خط السور العظيم..[5]

غير أن من شأن مثل هذا المسار أن ينطوي على حركة التفافية بطول 5000 كيلومتر تقريباً عبر أقصر الطرق، كما على بعض أكثر الأراضي وعورة واستعصاءً في العالم؛ وحتى مع التسليم بالسنوات التي أمضاها الأخوة بولو في رحلاتهم، كان من شأن هذا أن يطيل رحلتهم كثيراً جداً.

وكذلك فإن شْتُتُون أورد، ببساطة، إمكانية عدم كون السور موجوداً آنذاك، وقد تكرر مثل هذا الرأي مؤخراً. وثمة رأي أن السور ربما تعرض في الفترة الفاصلة بين عهدي قِين ومِنغ لقدر كبير من الإهمال وعدم الترميم حتى بدا شبه زائل.[6] ولعل جزءاً مما يدل على هذا كامن في غياب ذكر نشاطات بناء الأسوار أو ترميمها من بعض التواريخ الملكية، وخصوصاً تواريخ سلالتي تَنْغ (618 - 906 م) وسُنغ (960 - 1279 م). فبالنسبة إلى أباطرة تَنْغ الذين كانت عاصمتهم بعيدة إلى جنوب ـ غرب بكين في كْسِيأن اليوم، لم تكن ثمة أية حاجة ماسة لتدعيم السور: فالتهديدات المتوقعة للتَنْغ كانت آتية من الغرب، لا من الشمال، وفي أوقات المحن كان هؤلاء يبادرون، ببساطة، إلى نقل عاصمتهم إلى مكان أبعد جهة الجنوب ـ الشرقي، إلى لُوويَنْغ.

أما فيما يخص بلاط سلالة سُنْغ التي كانت مهددة باستمرار من أقوام ألطاي الشمالية، فيمكن القول إن السُنغ كانوا مضطرين للتنبه أكثر إلى التهديدات الآتية من الشمال مما دفعهم إلى تدعيم السور. ففي عام (1050 م) قام كْسِيكْسِيَا أو الطنغوت بغزو الأراضي الصينية حول نِنغكسيا في الشمال ـ الغربي، وقام اللياو، وهي جماعة ناطقة بالمغولية، بفرض السيطرة على

المنطقة الشمالية الشرقية جاعلين عاصمتهم في بكين (واسمها الصيني: بيجنغ يعني «عاصمة شمالية»؛ وإن كان اللياو القادمون من أماكن أبعد في الشمال قد أعادوا تسمية المدينة: نانجنغ أو «عاصمة جنوبية»، محدثين قدراً من اللبس.)

وفي عام (1122 م) أطاحت باللياو جماعة أخرى من شعوب الألطاي معروفة باسم خيتان، كانت انتماءاتها اللغوية تونغوزية أكثر منها مغولية. وهؤلاء الخيتان أسسوا سلالة الجين وتقدموا جنوباً مجبرين بلاط السُنغ على نقل عاصمتهم من كايفِنغ جنوباً إلى هَنْغْجُو في عام (1127 م). وعلى الرغم من أن السور لم يكن يشكل حاجزاً مادياً (لعجزه عن تعويق أي جيش مصمم) بقدر ما كان يوفر خطوط اتصالات ومأوى لحراس الحدود، فإن الاهتمام بإبقاء حامية على السور ربما كان من شأنه أن يحول دون هذا الهروب نحو الجنوب.

ومن اللافت للنظر أن الجين الذين عبروا السور العظيم (إن كان موجوداً آنذاك) بسهولة، خصصوا بعض الجهد لبناء الأسوار. ومما جاء على لسان وُلْدْرُن: «لم يعترض سبيل المغول عند غزوهم الصين أي سور عظيم»، رغم ملاحظته .أنه «تم وقفهم لفترة قصيرة من الوقت عند جُويُنْغوآن [ممر في السور مميز الآن ببوابة فخمة مزخرفة بكتابات متعددة اللغات شيدت من قبل المغول أنفسهم في عام (1354 م)] من جانب الجين الذين كانوا قد عززوا معقلهم بشكل مؤثر».[7] من الملاحظ أن الكلمات في الجملة الأولى منتقاة بعناية؛ فلا شك أن عرقلة تقدم المغول لم تتم بفضل السور العظيم، وهو الجدار الذي يسهل تسلقه في حال بقائه دون دفاع، بل نتيجة المقاومة التي أبداها حراس الحدود. ولا حاجة لأن تنطوي حقيقة عدم التعويق على أن السور لم يكن موجوداً، بل تعني، ببساطة، أن السور، عند تركه دون دفاع، لم يكن يشكل أي حاجز عسكري. وكذلك قام المانشو، وهم جماعة طونغوزية أخرى من

أقصى شمال الشرق، باكتساح سور المنِيع الأفضل تحصيناً (ولكنه بلا دفاع مؤقتاً) لتأسيس سلالة كينغ في عام (1644 م).

وعلى الرغم من أن من المؤكد أن إكساء السور بالآجر، وهو ما يجعل الأجزاء الواقعة شمال وشمال - شرق بكين بالغة الإدهاش اليوم، تم بعد سفر الأخوة بولو شرقاً، فإن جزءاً كبيراً من السور كان، وما زال، من التراب الأصفر. صحيح أن الأجزاء الترابية أضيق بكثير من نظيرتها المكسوة بالآجر، ولكنها ما زالت مثيرة حين تُرى، مثلاً، من القطار عبر الصحراء من خيان إلى دونهوانغ. ولعل بقاء أسوار ترابية مدكوكة في مكان آخر في الصين أمر درامي: ما زال بوسع المرء أن يرى في جينغجو أجزاء من أسوار المدينة العائدة لسلالة شانغ (من حوالي القرن السادس عشر وحتى عام 1066 ق. م). ويبدو لي أن كمية كبيرة من الجدر الترابية المدكوكة كانت ستظل باقية في القرن الثالث عشر، وكان يصعب صعوبة بالغة أن يكون المرء قد سافر إلى الصين من الغرب دون أن يلاحظها، حتى في غياب الجهود الجادة المنصبة على بناء الأسوار وترميمها؛ وبالتالي فإن إسقاط السور من **وصف العالم** غني بالدلالات الصارخة.

1- Arthur N. Waldron, 'The problem of the Great Wall', *Harvard Journal of Asiatic Studies*, 43/2 (Cambridge, Mass., 1983), p. 645 and Fan Tsen-chung, 'Dr. Johnson and Chinese Culture', in *Nine Dragon Screen* (London, 1945), pp. 15-18, where he suggests that Johnson's inspiration may have been Du Halde.

2- James Boswell, *The Life of Johnson* (London, 1933), vol. 2, p. 193.

3- Sir George Staunton, *An authentic account of the embassy from the King of Great Britain to the Emperor of China* (Dublin, 1798), vol. 2, p. 73.

4- Waldron, *'The Problem of the Great Wall'*, pp. 656.

5- Staunton, *An authentic account*, vol. 2, p. 78.

6- Waldron, *'The Problem of the Great Wall'*, pp. 643-63.

7- Waldron, A. *The Great Wall of China: from history to myth*, Cambridge, Cambridge University Press (1990), 1992, p. 21.

الاقتباس رقم 7 سقط من الطبعة الإنجليزية الأصلية، وقد زودتنا به المؤلفة في رسالة إلكترونية بتاريخ 27 أيار 1999 (الناشر).

12) ليس فريداً ولم يكن، بالتأكيد، مهندس تحصين

من مزاعم ماركو بولو أنه هو وأبوه وعمه كانوا «اللاتين» الأوائل الذين رأوا قوبيلاي خان الذي «سُر سروراً عظيماً بوصولهم لأنه لم يكن قد سبق له أن رأى إيطالياً واحداً». وقد جاء فيما كتبه البروفِسور الألماني فْرَنكِه المتخصص بالدراسات المغولية: أن «هذا كلام آخر يدعو إلى الشك في كتابه»، وأورد مقطعاً مقتبساً من الحوليات الصينية عن عام (1260 - 1261 م) حيث وصلت جماعة من الأوربيين، «فَلَنْغ» أو الفرانكيين[1] (حسب التسمية التي كانت تطلق على جميع الأوربيين في الشرق الأدنى) إلى قصر الخان الصيفي في شانغدو.[2] ومما قيل إنهم جاؤوا من بلد ضوء نهاره دائم، ربما نُفْغُرد، وإنهم لم يكونوا يستطيعون تمييز حلول المساء إلا بظهور فئران الحقول. وقد كانوا بيضاً زرق العيون؛ والحشرات المحلية مثل الذباب والبعوض كانت تولد من الأشجار. صحيح أنها جماعة غريبة بعض الشيء، ولكنها انطوت على قدر من الأهمية كافٍ لإيراد أخبارها في الحوليات الرسمية.

ومثله مثل ماركو بولو، لم يرد في الحوليات الرسمية للحقبة المغولية أي ذكر لوِلْيَم الرُّبرُكي الذي وصل إلى قره قُرُم في عام (1254 م) ولكن صورة عن جالية أوربية كبيرة ومتنوعة بشكل مدهش يمكن استخلاصها مما قاله الرُّبرُكي عن الحياة هناك.[3] فهذه الجالية كانت تضم، فيمن تضم، صائغاً فارسياً وشخصاً إنجليزياً يدعى باسيل. وبالتالي فإن الأخوة بولو، رغم إمكانية كونهم أوائل الإيطاليين في العاصمة المغولية، لم

يكونوا، بالتأكيد، أوائل الأجانب، بل ولا حتى أوائل الأوربيين الذين شاهدهم المغول.

قد تكون صلة المغول بالغرباء و«استخدامهم» الموثق جيداً للخبراء من غير المغول، متأصلة في تقاليدهم البدوية. صحيح أن المغول المتنقلين مع قطعانهم بين المراعي الصيفية والشتوية كانوا يكتسبون مهارات عالية في ميادين الفروسية وتربية المواشي، ولكنهم كانوا مضطرين للاتجار مع جيرانهم المستقرين مبادلين بالأسلحة المعدنية الفراء واللحوم الضرورية وبعض الكماليات مثل الأقمشة والشاي، من إنتاج الحياة الزراعية المستقرة لدى الصينيين. وقد كان من عادة جنكيزخان عند إخضاعه لقبائل منغوليا الأخرى أن يضم جيوش تلك القبائل إلى الجيش المغولي،[4] فضلاً عن الإفادة من مهارات وتقانات الأقوام المحلية الأخرى. فنظام الكتابة الأول للغة المغولية مأخوذ، معدلاً، عن اللغة التركية ـ الأويغورية في أثناء حكم جنكيزخان، والثاني القائم على كتابة (الفاغس ـ با) مستمد من كتابة تيبتية، وقد جرى فرضه في عام (1269 م).[5]

ومع توسع المغول في آسيا بدأ نمط حياتهم يتغير. فبدلاً من مستوطنات الخيم المتحركة التي كانت تُطوى وتنقل إلى مختلف المراعي تبعاً للمواسم، جرى تأسيس مستوطنة أكثر دواماً في قلب موطن المغول ما لبثت أن أصبحت مركز إدارة الإمبراطورية المتسعة. والكتابات التي تصف قره قُرُم، عاصمة جنكيزخان في القرن الثالث عشر، تشي بأنها كانت مستوطنة حقيقية، ذات سمات معينة مثل الأسوار المحيطة بالأحياء «الصينية» و «الإسلامية» المنفصلة،[6] لا محض مضرب خيام بدوية.

وقره قُرُم هذه كانت محج البعثات التبشيرية المسيحية المبكرة إلى منغوليا، وقد أسهب وِلْيَم الرُّبرُكي الذي زارها عام (1253 ـ 1254 م) في وصفها. أما المبعوثون المسيحيون السابقون، مثل أندرو اللونغجوموي الذي

أوفده لويس التاسع في عام (1249 م) وعاد برسالة رعاية تطالب بالخراج السنوي للخان، فلم يستطيعوا أن يتركوا أي خبر لأنهم أخفقوا في الوصول إلى المدينة نفسها؛ وكما قيل من قبل، فإن جون البلانوكاربيني، الذي أرسله البابا إنوسِنْتْ الرابع، لم يصل إلا إلى مخيم على مسافة معينة من المدينة، أقام فيه بين عامي (1246 و1247 م).

وعلى الرغم من أن بعض المغول ظلوا، كما لاحظ جون البلانوكاربيني، ينصبون الخيام، طبقاً لتقاليدهم البدوية، خارج أسوار المدينة، فإن عملية تسويرها تمت في عام (1235 م). فمدينة قره قُرُم، كما رآها الرُّبرُكي أخيراً ووصفها، تبدت بأوجه بالغة الإثارة. وقره قُرُم هذه، التي قال وِلْيَم الرُّبرُكي عنها إنها أصغر من سان دنيس القريبة من باريس، لم تترك لدى الرجل انطباعاً عميقاً. وهذه المقارنة، الرامية بوضوح إلى الاستخفاف، ربما لم تكن بالغة التحقير كما بدت لأن سان دنيس كانت هاجعة تحت الكنيسة الغوطية الرائعة حيث أضرحة معظم ملوك فرنسا. فولِيَم الرُّبرُكي قال إن سان دنيس أكبر من قره قُرُم، إذا حذفت منها قصر الخان. وبعد قيام الحفريات الروسية في القرن العشرين بمدينة قره قُرُم المسورة بالكشف عن هيمنة القصر،[7] نستطيع أن نقول وبثقة موازية إن سان دنيس، دون الكنيسة العظيمة، كانت ستبدو المستوطنة الأصغر.

وداخل المدينة كانت الحياة المستقرة تنعم بوجود أعداد من الخبراء الأجانب، بعضهم أكثر رغبة في الإقامة من بعضهم الآخر. فقد كان هناك رهبان نسطوريون نظر إليهم الزائر الفْرَنْسِيسكاني بشيء من العداء؛ وحرفيون صينيون؛ ومهندسو عمارة فرس؛ وصائغ ذهب روثينياني؛ وطبيب يوناني؛ وامرأة فرنسية متزوجة من روسي اسمها بَقِت اضطلعت بمهام خدمة ابنة مَنغو خان؛ ورجل اسمه باسيل أبوه إنجليزي وخاله راهب نورماندي؛ و«الصائغ الباريسي» غِيُّوم بوشيه الذي دعا وِلْيَم

الرُّبرُكي إلى العشاء يوم أحد السعف (الشعانين) في الخامس من نيسان عام (1254 م).

وبوشيه هذا كان متزوجاً من فرنسية وُلدت في المجر، وكلاهما كانا يعيشان ويعملان في بلغراد عام (1242 م) حين سقطت المدينة تحت الاحتلال المغولي، فجرى ترحيلهما شرقاً إلى قره قُرُم، حيث أصبحا من العبيد. وعلى الرغم من مرتبتهما الرسمية الوضيعة، فإن بوشيه كان ينعم بقدر من الاحترام كونه سباكاً للمعادن، وهي حرفة كادت أن تكون مجهولة لدى المغول. ومع أن هؤلاء المغول كانوا قادرين على كسب عيشهم من الرعي، فقد ظلوا على الدوام يعولون على الغرباء في مسألة توفير الأسلحة وغيرها من الأدوات والمعدات المعدنية الأساسية.

ورغم أنه من المحزن ألا يبقى شيء من أعمال بوشيه الصياغية البديعة، فمن المحتمل أن يكون قد صاغ مجوهرات للنبلاء المغول، وذلك قد يسوغ وجوده في قره قُرُم، وهو أمر وارد. ووِلْيَم الرُّبرُكي، وهو المسيحي الصالح، لم يكن ينزع إلا إلى وصف أشياء معينة مثل الصليب الفضي الذي سرقه، ويا للهول! رهبان نسطوريون كانوا يمقتون عبادة الأوثان. وبرأي وِلْيَم الرُّبرُكي، المستمر في تأكيد البعد الديني، فإن بوشيه صنع أيضاً مقلاة حديدية لإعداد رقاقات [العشاء الرباني] وحُقاً من الفضة لحفظ هذه الرقاقات المقدسة. وأطرى وِلْيَم الرُّبرُكي ما قد يكون نقشاً خلف المذبح يحمل صورة العذراء «على الطريقة الفرنسية»، محمياً ببابين بمفصلين حُفرت عليهما قصص الإنجيل؛ كما قدّم، لمرة واحدة، وصفاً تفصيلياً لآلة متميزة ببعدها، إيحاء واستعمالاً، عن المسيحية، كانت الأكثر روعة بين إبداعات بوشيه، هي النافورة السحرية الموزعة للكحول.

وسائر الأعياد والاحتفالات المغولية تميزت بالاستهلاك الهائل لأنواع

مختلفة من المشروبات الكحولية: الخمرة المصنوعة من الأرز من الصين، والخمور المصنوعة من العنب من فارس وتركستان، ومشروب القُمُز المحلي المصنوع من لبن الفرس المخمر «بطريقة تجعلك»، كما يقول وِلْيَم الرُّبرُكي، «تعتبره خمراً أبيض». وبمساعدة خمسين معاوناً، صنع بوشيه نافورة توزع برشاقة حمولة مئة وخمسين عربة وتسعين فرساً من القُمُز المجلوب لتغطية معدل استهلاك عيد يستمر أربعة أيام؛ وشجرة عملاقة ذات أغصان ملتوية تتدلى منها أوراق وثمار فضية موشاة بالذهب، وأربعة أسود جاثمة عند القاعدة، وملاكاً ينفخ في بوق حقيقي فوق الشجرة. وكانت الأغصان والأسود محشوة بأنابيب فارغة يُصب فيها مشروب القُمُز، وكان رجل كامن في جذع الشجرة ينفخ في بوق الملاك. (فبوشيه كان يأمل في أن يتمكن من اختراع نوع من الآلية الداخلية الذاتية القادرة على تشغيل البدعة دون أي جهد بشري، ولكن المشروع أخفق فاضطر للجوء إلى أسلوب إخفاء الشخص في الداخل).(8)

وبعد قيام المغول بتأسيس عاصمة دَدُو، (أي عاصمة عظمى) في بكين عام (1267 م) تكرر الطابع الكوني لحاشية الخان. فالعاصمة بالذات كانت من تصميم مهندس معماري مسلم،(9) لقبه الرسمي مدير التشاتي، التي يقال إنها تعني «الخيمة» بالمغولية (مع أن الكلمة نفسها مأخوذة من تشَدِر التي تعني الخيمة في العديد من اللغات التركية)؛ وبالتالي فإن المدير الملكي للمباني كان، في الحقيقة، تكريماً لتقاليد أجداد المغول، مدير الخيم.(10) ومثل هذه الألقاب القديمة مستمرة في الصين اليوم. فالكلمة المرادفة لـ «رئيس»، كما في الرئيس ماو، لا تشير، في حقيقة الأمر، إلى شخص يتصدر طاولة على أهم الكراسي، بل إلى ذلك الذي يشغل «الحصيرة الرئيسية»، لأن الصينيين ظلوا، حتى وصلت الكراسي في القرن التاسع، يجلسون على الأرض فوق الحصر (وهي عادة اقتبسها اليابانيون في القرن الثامن) وكان أهم الأشخاص يجلس على الحصيرة الرئيسية.(11)

ورغم تصميمها من قبل مهندس معماري مسلم، فإن مخططات العاصمة الجديدة ومبانيها بقيت صينية الإيحاء، لأن المغول، على ما يبدو، كانوا يشعرون بأن السبيل الوحيد إلى «فرض المهابة على الشعب الصيني وتجنب السخرية»،[12] هو اعتماد التصاميم الصينية على أكثر الصعد جلالاً. ومن نافل القول أن المغول أنفسهم كانوا لا يمتلكون أية تقاليد في ميدان هندسة الأوابد، وبالتالي فلم يأتوا بأي شيء من تراثهم قادر على مضاهاة فن العمارة الصيني. وعلى الرغم من أن مصمم العاصمة العظمى لم يحظ بنعمة ورود سيرته في التاريخ الرسمي لسلالة يوآن، فقد وصفته وثيقة معاصرة بأنه غْوِيزهاي وِنْجي، أي (أعمال من مرسم لوحات اليَشَب) بقلم كُويَنغ كْشن (1274 - 1358 م).[13]

في البداية اعتمد جنكيزخان على الخيتاني المتصين (أو المستصين) يلوتشوكاي (1189 - 1243 م) مصدراً للمشورة في شؤون الحكم. وكثيراً ما يُعزى ليلوتشوكاي هذا أنه قال: يتعذر حكم الإمبراطورية الصينية من على ظهر الفرس، على الرغم من أن الفرسان هم الذين هزموها.[14] والخيتان كانت قبيلة بواد مغولية شبه بدوية سبق لها أن أسست سلالة اللياو التي لم تدم طويلاً في الصين الشمالية (907 - 1127 م) إلى الشمال - الشرقي من بكين مباشرة. وخبرة الخيتان هؤلاء في الحكم، وجدت أصداءها في نصائح يلوتشوكاي حول فرض الرسوم على الزراعة والتجارة الداخلية والإنتاج الحرفي، كما حول تشجيع صناعة التعدين (المناجم).[15]

وبعد الاستيلاء على الصين في عام (1260 م) ظل قوبيلاي يستخدم المستشارين الصينيين العارفين ببواطن البيروقراطية الصينية. كما أن الأتراك الذين درجوا على خدمة المغول منذ أيام جنكيزخان، تابعوا أعمالهم كجنرالات وموظفين محليين ومعلمين ملكيين ومترجمين. أما مسلمو آسيا الوسطى فقد تم اعتمادهم للإشراف على التجارة، في حين بقي

القَغس - با لاما التيبيتي، الذي كان قد اخترع نظام الكتابة المعروف باسمه، مستشاراً شخصياً مقرباً. وقد جرى إرسال المبعوثين إلى الهند بحثاً عن الأطباء،[16] كما كان الأطباء الفرس وكتب الطب الفارسية مصادر للمشورة، فضلاً عن أن أشخاصاً من الفرس كانوا يعملون فلكيي بلاط.

وبإصراره على تأكيد الأصل «اللاتيني» لأبيه وعمه، ربما كان ماركو بولو يريد أن يميز الإيطاليين عن سائر الأوربيين الآخرين، ولكن الخليط الكوني في قره قُرُم، جنباً إلى جنب مع سفارة «الفرنجة» والإخفاق اللغوي في التمييز بين الأوربيين المختلفين بالصينية، ينفي احتمال كون قوبيلاي خان قادراً على التفريق بين الانتماءات القومية بمثل هذه البراعة.

ومن الخبراء الأجانب الآخرين الذين استخدمهم قوبيلاي خان بناة قوارب كوريون لتعزيز البحرية، والمهندسان إسماعيل وعلاء الدين اللذان استدعيا من فارس لبناء المجانيق والراجمات الكبيرة التي استخدمت لنسف الدفاعات في أثناء حصار كْسيَنغْيَنْغ (1268 - 1273 م).[17] وكْسيَنغْيَنْغ هذه، وهي تقع على الضفة الشمالية لنهر هان (مقابل فَنْشِنْغ) كانت أحد المعاقل الأخيرة لسلالة سُنغ، وقد شكل انتصار المغول النهائي في عام (1273 م) بعد حصار دام خمس سنوات منعطفاً كبيراً في مسيرة فتح الصين الذي اكتمل، آخر المطاف، في عام (1279 م). والعديد من الخبراء والمستشارين غير الصينيين، بمن فيهم أولئك الذين ساعدوا على كسر المقاومة الصينية في كْسيَنغْيَنْغ، يُعرَفون من سير حياتهم الواردة في التاريخ الرسمي للمغول (اليوآن شي أو تاريخ اليوآن المصنف بين عامي «1367 و1370 م»)، كما في مصادر مكتوبة أخرى، غير أن كل المختصين يتفقون على أن المؤلفات نفسها لا تتضمن إطلاقاً أي ذكر للاخوة بولو.

وأحد المزاعم الواردة في **وصف العالم** يقول إن الأخوة بولو، بالذات،

اقترحوا فكرة بناء المجانيق وعلّموا أفراداً من بطانتهم أسلوب إنتاج الأسلحة واستعراضها. أما عن مدى صعوبة احتلال المدينة فقد تحدث كتاب **وصف العالم** قائلاً:

> وأؤكد لكم أن المحاصِرين ما كانوا، قط، ليستطيعوا احتلالها لولا حدوث ما سأرويه لكم الآن... أعلن السيد نيكولو والسيد مافيو والسيد ماركو: «سنجد لكم وسيلة تمكنكم من إجبار المدينة على الاستسلام... معنا في بطانتنا رجال سيصنعون مجانيق ستهيل كتلاً حجرية هائلة لن يكون المحاصَرون قادرين على تحملها».... ثم أوعز السيد نيكولو وأخوه وابنه، الذين كانوا يصطحبون في حاشيتهم ألمانياً ومسيحياً نسطورياً كانا معلمين في هذا الفن، [أوعزوا] إليهما بتصنيع منجنيقين أو ثلاثة تقذف حجارة بوزن 300 رطل ... وهل من حاجة إلى أن أقول المزيد؟ وما إن تم نصب المجانيق وتثبيتها، حتى أهال أحدها حجراً على قلب المدينة. سقط الحجر على البيوت ساحقاً ومدمراً كل شيء...... وما أن رأى المواطنون هذه الكارثة... حتى قرروا الاستسلام،...[18]

وبصرف النظر عن برهان استخدام مهندسين عسكريين من الفرس، يمكن دحض ادعاء ماركو بولو بسهولة، لأن حصار كْسيَنْغيَنْغ انتهى قبل الموعد المفترض لوصول الأخوة بولو إلى الصين بعام واحد.[19] فرشيد الدين يصف عملية الحصار وفكها قائلاً: لم تكن هناك أية مجانيق «فرنجية» (أوربية) في الصين قبل قيام المهندسين الفرس ببنائها.[20]

ورغبة ماركو بولو هذه في إقحام نفسه على هذا الحصار الشهير ليست فريدة؛ فمعاصره القريب وزميله الرحالة المزعوم السير جون ماندفيل، زعم أيضاً أنه «تعايش مع الخان الأعظم ستة عشر شهراً»، مردداً صدى سنوات ماركو بولو السبع عشرة؛[21] وقال كذلك إنه خدم جندياً

في القتال ضد السُنغ، على الرغم من أن من المؤكد تماماً أن ماندفيل لم يسبق له قط أن كان في الصين، إذ لم يكن إلا منتحلاً نسخ رواية أُدُرِك البوردينوني عن الصين على هواه، كما استخدم روايات مكتوبة أخرى مثل تلك العائدة لألبرت الآيكسي، وهايتون الأرمني، ووِلْيَم الطرابلسي، وقيساريوس الهايسترباخي، وفانسان البوفياني. وبصرف النظر عما اقتبسه أو انتحله، فإن ماندفيل دأب على وضع نفسه في مقدمة سائر الأحداث المثيرة الجارية. وكذلك فإن حقيقة أن كتابه نجح نجاحاً كبيراً، ضاهى، في ذلك الوقت، نجاح كتاب ماركو بولو، قد تشي بأن الأخير لم يكن، هو الآخر، بعيداً عن السعي وراء الثروة والشهرة عن طريق الزعم بأنه «كان هناك».

أما الشخص الذي كان «هناك» بكل التأكيد، ولكنه لم يبق حياً في المخيلة الشعبية، فهو ربّان صَوْمَا الذي كان :رحالة سار في الاتجاه المعاكس لمسار الأخوة بولو. فبعيد الحصار الكبير لكْسيَنْغْيَنْغ استأنف حاكم ولاية فارس المغولي: آرغون تقاليد المغول المتمثلة باستخدام غير المغول عن طريق إرسال الراهب النسطوري ربّان صَوْمَا في مهمة إلى الغرب في أواخر ثمانينيات القرن الثالث عشر. وربّان صَوْمَا هذا كان قد وُلد في عائلة نسطورية ببكين في حوالي عام (1225 م) وارتحل إلى الأرض المقدسة مع تلميذه الشاب: مار. ولدى وفاة رئيس الكنيسة النسطورية في بغداد عام (1281 م) عُين مار خلفاً له، فتابع ربّان صَوْمَا رحلاته وحده. وفي روما قابل البابا وأبلغه عن اعتناق مغول فارس المذهب النسطوري. وبالفعل فإن أولغيتو، الابن الثاني لآرغون، (وهو من خلف أخاه قازان وحكم بين عامي (1304 و1316 م»، كان مُحمّد ومُنح اسم نيكولاس، تيمناً بالبابا نيكولاس الرابع.[22]

ومن روما سافر رّبان صَوْمَا إلى باريس حيث قابل فيليب العادل، أو فيليب الرابع، (1268 ـ 1314 م) الذي كان ابنه شارل فَلْوَا سيحصل على

إحدى النسخ المخطوطة الأولى لكتاب **وصف العالم** في عام (1307 م) من ثِيبو دو شِبوي. وفي باريس اطلع رّبان صَوْمَا على آثار مقدسة منها إكليل الشوك وجزء من الصليب، ثم سافر إلى غاسكونيا حيث التقى ولي نعمة روستيتشيللو: إدوارد الأول، ملك إنجلترا، في عام (1287 م) ومما سجله ربّان صَوْمَا عن لسان إدوارد حين سمع عن معتقدات آرغون النسطورية: «قد نقشنا نحن، ملك هذه المدن، شارة الصليب على جسدنا ولا يشغل بالنا إلا هذه القضية. إن قلبي يكبر حين اسمع أن ما أفكر فيه يفكر فيه الملك آرغون أيضاً».[23] ومثله مثل البابوات، كان إدوارد يعقد آمالاً على احتمال دعم مغول فارس، على الأقل، للمحاولات الأوربية الرامية إلى «استعادة» القدس. وبالفعل فإن سفارة مغولية ثانية في عام (1289 م) عرضت المساعدة في مشكلات النقل، وإن تعقدت مسألة المساعدة هذه جراء الشكوك البابوية حول تأييد النسطوريين غير الأصوليين، ولكن هذه الوعود ما لبثت أن تبددت مع وفاة آرغون في عام (1291 م).

وبلقائهم رّبان صَوْمَا، كان أوربيو أواخر القرن الثالث عشر يلتقون، للمرة الأولى، رجلاً وُلد في الصين ويعرف الحكام المغول عن كثب، مبعوثاً مباشراً من الشرق العجيب ينطوي على الكثير من الميزات الإيجابية الكامنة. غير أن الرجل كان، فوق كل شيء وقبله، راهباً وتركزت أحاديثه وانطباعاته على المسيحية وآثارها المقدسة، لا على التنظيم العسكري للمغول. وعلى الرغم من معرفته بكين (وهي المعرفة التي لم ينقلها إلى محاوريه (الدينيين) فإن إحاطته بالمغول كانت متركزة، في المقام الأول، على ولاية فارس، أكثر من مسقط رأس المغول أو الصين. أما المعلومات عن تلك المناطق وعن الأجانب المستخدمين لدى المغول فقد كانت مستمدة مما قاله المبعوثون المسيحيون من أمثال وِلْيَم الرُّبرُكي، أو ما رواه رحالة مثل الأخوة بولو، وهي [أقوال وروايات] من الواضح أنها غير جديرة بالثقة

لفرادة أصحابها المزعومة، فضلاً عن مشاركتهم المستحيلة في عملية فك الحصار.

---

1 - أي «الفرنجة» (ف. ج).

2- Herbert Franke, 'Sino-Western relations under the Mongol Empire', *Journal of the Royal Asiatic Society Hong Kong Branch*, Hong Kong, 1966, pp. 54-5.

3- Leonardo Olshki, *Guillaume Boucher: a French artist at the court of the Khans*, (Baltimore, 1946), from where I have taken the Rubruck quotations. Leonardo Olshki's scholarship was wide-ranging, but is not well enough known; *Guillaume Boucher* merits reprinting - its appearance after the war means that too few libraries hold the original. I am grateful to his nephew Mr. Rosenthal for showing me Arthur R. Evans' article, 'Leonardo Olshki, 1885-1961', in *Romance Philosophy*, xxxi/I, Stanford, 1977.

4- David Morgan, *The Mongols* (Oxford, 1986), pp. 137-9 and J. R. S. Philips, *The Medieval Expansion of Europe* (Oxford, 1988), p. 61.

5- Ibid., p. 125.

6- Leonardo Olshki, *Marco Polo's Asia* (Berkeley, 1960), p. 67.

7- Morgan, *The Mongols*, p. 116.

8- Olschki, *Guillaume Boucher*, for further quotations from Rubruck and for the description of the wine-dispensing machine.

9- Chen Yuan, *Western and Central Asians in China Under the Mongols* (Los Angeles, 1966), p. 221.

10- Ibid., p. 219.

11- C. P. Fitzgerald, *Barbarian Beds: the origin of the chair in China* (London, 1965).

12- Chen, *Western and Central Asians*, p. 221.

13- Ibid., p. 221.

14- Morgan, *The Mongols*, p. 84.

15- E. O. Reischauer and J. K. Fairbank, *East Asia: The Great Tradition* (Boston, 1960), p. 266.

16- M. Rossabi, *Khubilai Khan* (Berkely, 1988), p. 125.

17- Ibid., p. 86.

18- Ronald Latham, *Marco Polo: the Travels*, (Harmondsworth, 1958), pp. 207-8.

19- A. C. Moule and Paul Pelliot, *Marco Polo: The Travels* (London, 1938), vol. 1, p. 27.

20- J. A. G. Boyle, *The Successors of Genghis Khan* (New York, 1971), pp. 290-1.

21- C. W. R. D. Moseley (ed.), *The Travels of Sir John Mandeville* (Harmondsworth, 1983), p. 144.

22- Morgan, *The Mongols*, p. 160.

23- Michael Prestwich, *Eduard I*, (London, 1988), p. 330.

13) من أفراد عائلة بولو؟

لم يكن ماركو بولو مهندس تحصينات، ولم يكن أول أوروبي التقى خان المغول، لكنه تجول في أرجاء الصين فاتحاً عينيه (على البورسلين والقصور) حيناً، ومغمضاً إياهما (أمام أقدام السيدات، والأسوار العظيمة، وفناجين الشاي المقدمة) حيناً آخر.

فعلى غناه بكتابات وصفية رائعة، يبقى كتاب ماركو بولو زاخراً أيضاً بفيض من الأغلاط والتناقضات. صحيح أن بعض هذه الأغلاط والتناقضات جرى تسويغها بعوادي الزمن وإخفاقات الذاكرة، أو تم ردها إلى افتقار زميله في التأليف إلى الاهتمام، ولكن بعضها الآخر أكثر إشكالية ويمكن تأويلها بطرق مختلفة. وحتى في حال إيقاع اللوم على روستيتشسللو فيما يخص بعض الإسقاطات وعمليات الحذف، وعلى نساخ لاحقين بالنسبة لإسقاطات وعمليات حذف أخرى، فإن أسئلة مثل: لماذا كُتب الكتاب؟ من كان ماركو بولو؟ وما كانت مساهمته في **وصف العالم**؟ تظل تصعب الإجابة عنها بعد مرور خمسة قرون من الزمن، ناهيك عن الغياب شبه الكامل للأدلة. فمن شأن الوصف الموضوعي، وإن كان تفصيلياً بين الحين والآخر، للقصور والعادات، الذي يعج به **وصف العالم**، أن يشي بأن ماركو بولو كان رجلاً ذا فضول مفعم بالحياة، وصاحب موهبة وصفية، هذا ما لم يكن أسلوب العمل كله عائداً لكاتب الظل.

بصرف النظر عن التأويل والاستنتاج، وعدا عن الكلام الموجز في مدخل **وصف العالم**، فإن ما يُعرف عن ماركو بولو قليل جداً، حيث لا يقال لنا،

ببساطة، أكثر من أنه عاش خارج البلاد ستة وعشرين عاماً، وأنه، في عام (1298 م) فيما هو في السجن بجنوا، دوّن قصته عن تلك الأعوام. أما عن كيفية تمضية السنوات الفاصلة بين عامي (1271 و 1295 م) عدا تلك الصورة التخطيطية البسيطة، فإن المعلومات الشحيحة المتوافرة لدينا عن ماركو بولو وعائلته، تأتي من مصادر أخرى، ثانوية. ثمة إشارات في **إيماجو موندي**[1] من تأليف جاكوبو دا أكوي؛[2] في عدد قليل من الوثائق الباقية مثل الوصايا والسجلات العائلية الموجودة في المحفوظات البندقانية التي تسجل منازعات حقوقية ثانوية؛ وفي أطول الروايات، وهي، للأسف غير جديرة بالثقة على الإطلاق، وفي كتاب **جيوفالي بابتيستو** رَموزيو الذي يحمل عنوان **نافيغَتسيُوني إه فْيادجي**،[3] المنشور في عام (1559 م). وعلى الرغم من الهوة الزمنية الفاصلة بين تاريخ وفاة ماركو بولو سنة (1324 م) وعام صدور **نافيغَتسيُوني إه فيادجي**، فإن رَموزيو يبقى العامل الأهم وراء خلق أسطورة ماركو بولو.

حتى جذور ماركو بولو محاطة بالألغاز. فمع أننا درجنا على الاعتقاد بأنه تاجر بندقاني، تزعم يوغسلافيا السابقة أن ماركو بولو هو أحد مواطني جزيرة كورتشولا (أوكورزولا) الدالماتية التي كانت خاضعة لسيطرة البندقية في تلك الأيام. وهناك مخطوطة تعود إلى أواسط القرن الرابع عشر في المكتبة البريطانية تقول بأن آل بولو جاءوا، أساساً، من إقليم دالماتيا،[4] وذلك يؤيد فكرة، الارتباط بدالماتيا، ولكن دون أي دليل خطي آخر.

حتى إذا سلمنا بأن ماركو بولو جاء من البندقية، فقد عاش فيها وفي ما حولها في القرن الثالث عشر، على أية حال، عدد من الأسر المختلفة التي حملت اسم بولو؛ كما أن السير هنري يُول يتحدث عن الصعوبات الكامنة في تصنيف تلك الأسر عبر اتباع رَموزيو، الذي من شأن استنتاجاته أن تشي بطول أعمار يفوق أكثر أحلامنا جموحاً. فرَموزيو هذا ينسب إلى ماركو الرحالة ابناً، إلى ذلك الرجل الذي لم يعترف في وصيته إلا بثلاث

بنات، (ترك حفيده أملاكه لامرأة وُلد أبوها في عام «1271 م» ولكنها، هي نفسها، تزوجت في عام «1414 م» وأنجبت أطفالاً).(5)

من المعروف يقيناً أن عائلة باسم بولو كانت تعيش في حي سان جيرميا بالبندقية، وهي عائلة يبدو أنها كانت وصلت إلى مرتبة اجتماعية رفيعة لأن نيكولو بولو من سان جيرميا كان عضواً في مجلس البندقية عام (1381 م)(6) ولكن دون وجود أي ترابط محدد بين عضو المجلس والرحالة بولو، رغم التشابه في الأسماء. صحيح أن السير هنري يُول أتى على ذكر أحد محاضر اجتماعات مجلس البندقية من عام (1302 م) وهو محضر يستثني سيداً يدعى ماركو بولو من دفع غرامة لعدم القيام بتفتيش تمديدات الماء عنده، ولكنه استنتج، بسبب المكانة الواضحة للسيد، أن هذا ربما لم يكن، أحد أفراد عائلة بولو السان جيرمية، أو الرحالة. ويزداد الوضع تعقيداً جراء قيام رَموزيو بالخلط بين العائلتين: فقد وصف شعار نبالة البولو على أنه كان ثلاثة طيور (بول) على أرضية زرقاء سماوية، إلا أن هذا الشعار لم يكن عائداً لعائلة بولو السان جيرمية. ومع ذلك فإن مول لم يمتنع عن إيراد حاشية طويلة عما إذا كانت طيور (البول) هذه غرباناً عصماء ذوات أرجل حمراء، أم طيوراً مخوّضة سوداء وصفراء، أم زيغاناً (غربان زيتون).(7)

لابد من استنتاج أن ما يعرف عن أسلاف ماركو بولو، بعد جيل أبيه وعمه، قليل جداً، لأن الجد الوحيد الذي يذكره رَموزيو، خالق أسطورة ماركو بولو، يتعذر تعقبه في أي مكان آخر.(8) بل وليس هناك الآن من يعرف معرفة يقينية أي الأخوة الثلاثة كان الأكبر سناً. وإذا ما تم أخذ تاريخ وصيته بعين الاعتبار، فإن من المفترض أن يكون ماركو الأكبر سناً، أي عم ماركو قد توفي في عام (1280 م). (غير أنه، حسب رواية رَموزيو، توفي في وقت مبكر حتى ورث ابن أخيه المولود حديثاً اسمه؛ غير أن هذا الاحتمال يمكن استبعاده نظراً لأن الوصية مكتوبة في عام «1280 م» أي حين كان ماركو بولو في حوالي السابعة والعشرين من العمر وموظفاً عند الخان الأعظم، حسب ما جاء

في **وصف العالم**. أما نيكولو، أبو ماركو، فقد وافته المنية في حوالي عام (1300 م) ثم لحق به مافيو في حوالي عام (1310 م).

كان الأخوة الثلاثة بولو: ماركو العم، مافيو ونيكولو، قد أسسوا «شركة أخوية» بحوزتها بيوت تجارية في القسطنطينية وسولدايا أو سوداك على شواطئ البحر الأسود في القرم.(9) والبندقية الواقعة على الضفة الإيطالية للأدرياتيك كانت ميناء رئيسياً في مجال الاتجار مع القسطنطينية. أما تلبية الطلب الأوربي المتنامي على توابل الشرق الأقصى وحريره، فكان يتم، في المقام الأول، عبر عدد من المحطات مثل القسطنطينية، لأن السفر شرقاً كان ينقل التجار إلى أرض مجهولة مهددة بصعود الإسلام وتوسعه من ناحية، وبالإمبراطورية المغولية المتسعة بالمثل من ناحية ثانية. ومركز الأخوة بولو التجاري في سوداك كان يوفر لهم فرصة الإمساك بالتجارة ذات الشعاب الثلاث البادئة بالتطور بين البندقية وكل من جهتي الشمال والشرق. ومنذ القرن التاسع، نشأ نمط تجاري خاص غطى عدداً من البضائع الشمالية مثل الملح والحديد والعبيد السلاف يتم الحصول عليها عن طريق القرم، ويستبدل بها في القسطنطينية ومصر الحرير والتوابل الآتية من أماكن أبعد في الشرق.(10)

وفي عام (1260 م) قام نيكولو، أبو ماركو بولو، ومافيو، أحد عميه، بما بدت رحلتهما المديدة الأولى إلى ما وراء المنطقة المعروفة جيداً لديهما. فقد أبحرا من البندقية إلى القسطنطينية ومنها إلى سوداك. وفي هذه الأسفار البحرية القريبة من الوطن، ربما استخدما مراكب بندقانية، يحتمل أنها كانت ماتزال قوارب مجاذيف تشغلها فرق من العبيد، أو سفناً شراعية بدأ استعمالها يتزايد باطراد. وفي النصف الثاني من القرن الثالث عشر، كان البحارة قد بدؤوا يستعملون بوصلات بدائية، بل ربّما استخدموا كتيبات بحرية تتضمن تفاصيل عن الشواطئ والأماكن ضحلة المياه في البحار القريبة، لأن فن رسم الخرائط كان مايزال في طفولته.

وبعد سوداك سافر الأخوان بولو براً. وربما استخدما خيولاً وحميراً لفترات وجيزة، غير أن من المحتمل أن يكونا قد عولا على الجمال من البامير. فالجياد حيوانات لم تكن تصلح لجر العربات الوطيئة عبر المسيرات الطويلة في صحارى آسيا الوسطى، حيث المياه ملحية ومنابعها متباعدة، وحيث يستحيل العثور على العشب. وعلى الرغم من عدم استخدامها حيوانات للنقل في هذه الطرق التجارية الصعبة، فإن تجارة الخيول كانت رائجة من منغوليا إلى أعماق الصين الشمالية، بل من فارس إلى الهند؛ وقد ظلت هذه التجارة مزدهرة بفضل الطلب الذي بقي مستمراً على الجياد العربية الرائعة من حكام الهند ومنغوليا. وأحد أسباب هذا الطلب المتنامي كان كامناً في صعوبة تربية جياد لها أصالة ثابتة في أقاليم جنوبية، حارة، بل حتى في الصين، ولا سيما أن الجواميس المحلية والثيران المخصية كانت حيوانات جر أكثر ملاءمة. وإشارات ماركو بولو العديدة إلى وجود جياد بيضاء رائعة في بلاط الخان ببكين تشهد على استمرار استيراد مثل هذه الخيول من الشرق الأدنى.

وخلافاً للجياد، كانت الجمال العملاقة الشعثاء ذوات الأسنمة المزدوجة التي يسقط وبرها الخشن كتلاً تملأ القَبْضات في فصل الربيع، ملائمة بصورة نموذجية للأقاليم الرملية الوعرة الواقعة إلى الشرق من بلاد فارس. وهذه الحيوانات ذوات الطبائع السيئة والميالة إلى قذف بصاق نتن الرائحة بكميات كبيرة، كانت أيضاً صعبة التحميل. وحمولات هذه الجمال المشدودة إلى نير مشترك لمنعها من الشجار أو الشرود، تعين عليها أن تبقى متوازنة بدقة للحيلولة دون الضياع أو الاحتكاك فضلاً، عن ضرورة إنزالها كل مساء وإعادتها كل صباح. وفي بعض الأجزاء الأشد وعورة من الصحراء كانت الجمال تُستخدم لجر العربات، ولكن القسم الأكبر من الأرض كان شديد الرخاوة وغير مناسب للعربات ذوات العجلات. وعلى الرغم من أن رحالة لاحقين مثل السير آورل ستاين الذي كتب في الأعوام

الأولى من القرن العشرين، بل حتى تشارلز بلاكمور في عام (1993 م) قاموا بوصف الصعوبات التي ينطوي عليها التعامل مع الجمال ذوات الأمزجة الرديئة، سريعة الغضب، فإن الأخوين بولو، المزودين جيداً، ربما، بالخدم وسُوّاس الجمال، وغير المعتادين على أية أشكال أخرى أسهل من أسباب النقل، لم يعبرا عن أية شكوى. أضف إلى ذلك أن جمال آورل ستاين كانت، فضلاً عن صعوبة تحميلها ونزوعها إلى الاختفاء ليلاً، تعاني «عطالة قاتلة»، وذلك أدى إلى الكثير من الخسائر.[11] وثمة حيوان محلي آخر، هو الآرغولي أو الغنم البري، أُطلق عليه اسم ماركو بولو. وقد حاول هاغنبك أن يجلب ستين منها إلى روسيا لتربيتها، ولكنها نفقت جميعاً على الطريق جراء الإسهال.

بحمولة خفيفة لم تشمل إلا المجوهرات المقبولة على نطاق واسع كسلعة تجارية وسهلة النقل، شق الأخوان بولو طريقهما ببطء وصعوبة على خط الحرير الشمالي باتجاه العاصمة المغولية قره قُرُم. ففي صحراء لوب ظل هذان الأخوان المزودان بما لا يزيد على مؤونة شهر واحد، والمضطران للبحث ليلاً عن المياه المويلحة لإرواء الجمال،[12] يتعرضان لأشكال إضافية من الرعب تفوق جملة الصعوبات المادية في هولها. فأساطير الرحالة كثيراً ما تتحدث عن أصوات أشباح ليلية توحي بوجود عصابات من قطاع الطرق المسلحين، وتغوي المسافرين بالهرب فالموت في الصحراء. والافتقار إلى التسهيلات المميزة للارتحال في الصحراء، «لا شيء يدلهم على الطرق عدا عظام البشر أو الحيوانات وبعر الجمال»، مع الأرض الرتيبة، كان من شأنه أن يعني اضطرار الرحالة، قبل محاولة النوم، وأصوات الأشباح النائحة تملأ آذانهم، إلى نصب شارة تدلهم على الاتجاه الذي يتعين عليهم أن يسيروا فيه صباح اليوم التالي. كما كان من شأن التوجه أن يبقى متعذراً في حال احتجاب الشمس وراء سحب الضباب أو الغبار.

أما درجات الحرارة فقد ترجّحت بين القيظ الشديد نهاراً وبرودة الليالي

الجليدية؛ وفضلاً عن أصوات الأشباح، كان ثمة، في أماكن كثيرة، خطر حقيقي متمثل باحتمال التعرض لهجوم مباغت تشنه عصابات اللصوص أو قطعان الأسود. فأعاصير الغبار كانت تهب فجأة فتغطي السماء بالسواد، وتحجب الشمس، وتجبر قوافل الجمال على التوقف والتزاحم، في محاولة منها لدرء الغبار الطاغي عن الأعين والأنوف والأفواه. إن عربات اليوم الآلية (السيارات) تتعرض هي الأخرى لقدر مماثل من الخطر جراء أعاصير الغبار والرمل، لأن حبيبات الرمل تتسلل إلى المحركات والوقود لتفضي إلى حدوث الأعطال. ومما يجبر الشاحنات، حتى لدى استخدام الطرق المعبدة، على السير في قوافل تمكّن السائقين من مساعدة بعضهم بعضاً عند حصول الأعطال، أن المسافات الفاصلة بين المستوطنات كبيرة جداً.

وبعد تقدمهما شمالاً نحو جبال آلطاي المكللة بالثلوج، متوغلين في عمق مروج منغوليا الخضراء، ما لبث نيكولو ومافيو أن وصلا إلى قره قُرُم، عاصمة منغوليا. وعلى الرغم من أن حروب المغول هي التي أجبرتهما على السفر إلى أقاصي الشرق، بعيداً عن الوطن، فإن الأخوين بولو هذين كانا من أوائل الأجانب الذين زاروا قره قُرُم طوعاً، حيث وجدا نفسيهما بين الفرسان المخيفين الذين سبق لهم أن مسحوا بلغراد عن وجه الأرض، والذين كانت شهرتهم تثير قدراً كبيراً جداً من الرعب، حتى أن الشائعات المجردة عن تحركهم غرباً تمخضت، قبل انطلاق الأخوين بولو بوقت غير طويل، عن تدمير سوق سمك السردين على شواطئ بريطانيا الشرقية. (في العادة كان أسطول البلطيق يصل في موعده المحدد، ولكن الخوف من احتمال توغل المغول إلى ما بعد فيينا في عام (1241 م) بلغ حداً جعل هذا الأسطول يبقى راسياً في موانئه تاركاً أكواماً من السمك الفاسد في غريت يارموث).[13] والأخوان بولو وجدا قره قُرُم مدينة مسورة يتوسطها قصر كبير من ناحية، ومعسكر خيام يعكس ريبة المغول من الحياة المستقرة من ناحية ثانية. وعلى الرغم من أن قصر الخانات الكبير المحاط بالأسوار اشتمل

على قصر ثابت البناء، ومقصورات، وعدد كبير من العنابر، كانت ثمة، أيضاً، خيمة احتفالية مهيبة (عرفت باسم غير مغولي، ولكن الغرب أطلق عليها الاسم المأخوذ من اللغة التركية، أي يورت) منصوبة للخان في الزاوية الشمالية الشرقية من الباحة المسورة لتمكينه من الاستمرار في معايشة الماضي البدوي. فخانات المغول، مثلهم مثل رعاياهم الباحثين عن المراعي الموسمية المختلفة، ظلوا، حتى بعد بناء هذه المدينة الدائمة، ينتقلون إلى مختلف مضارب الخيم والقصور الصيفية في مواعيد محددة من السنة.

من المعروف أن نيكولو ومافيو غادرا كتاجرين عاديين، ويجب أن يكونا قد وصلا إلى قره قُرُم في منتصف عام (1260 م) ربما بعد المبعوث الديني الأول الذي وصل إلى العاصمة المغولية: وِلْيَم الرُّبرُكي، بعقد من الزمن. ولأن الأخوين بولو كانا من الأحرار، زائرين وفدا من الاتجاه ذاته مثل وِلْيَم الرُّبرُكي، فمن الممكن أن يكون الحاكم المغولي، متنبهاً إلى الحاجة لعقد التحالفات ضد العدو المشترك المتمثل بالإسلام، قد تنازل ووافق على مقابلة التاجرين البندقانيين اللذين يزعمان أنهما تحدثا مع الخان الأعظم عن الدين، ربما لأنهما كانا يحذوان حذو وِلْيَم الرُّبرُكي، وربما لأن التجارة بدت غير ملائمة للمناسبة الجليلة.

أما طلبات (أو أوامر) الخان المتعلقة بالخبراء العقيديين و،بالزيت المقدس، وبالرد البابوي، فلم تكن سهلة، التلبية لأن الأخوين بولو الأكبرين اكتشفا، لدى عودتهما إلى أوروبا في عام (1269 م) أن البابا كلمنت الرابع كان قد توفي في عام (1268 م) وأن تعيين خلف له تأجل لوقت غير قريب. وبعد انتظار تنصيب بابا جديد مدة عامين في البندقية، تخليا عن الفكرة وحصلا، في غياب بابا فعلي، على رسائل من مندوب بابوي في عكا. وفي طبعته للنص، يضيف رَموزيو المعلومة التي تقول إن المندوب البابوي الذي كان قد وفر رسالة التغطية، ما لبث أن انتُخب ليصبح البابا غريغوري العاشر، ولكن مسألة ما إذا كان الأخوان بولو مدركين لما حصل تبقى ملتبسة. وانتظار

هذه المدة الطويلة للحصول على توصية دينية من الدرجة الثانية، ما يلبث أن يتضح أن كاتبها كان أصبح أخيراً شاغلاً للمنصب المطلوب.[14] ربما أثار قدراً غير قليل من السخط؛ وذلك قد يشي بأن رَموزيو اعتمد في كتابته على بعد النظر المعكوس.

وعند المغادرة زودهما الخان بلوحة ذهبية كشكل من أشكال الحماية. ومثيلات هذه اللوحة الذهبية يتحدث عنها يُول بإسهاب مربك.[15] من الصعب تحديد العدد الذي حصل عليه الأخوان بولو آخر المطاف، لأن هناك من يقول إنهما حصلا على المزيد في رحلة العودة. والعدد النهائي كان، حسب بعض النصوص، ثلاثاً: واحدة في الرحلة الأولى، واثنتين في الثانية،[16] مع أن بعضهم يرفع الرقم إلى خمس.[17] وهذه الشرائط الذهبية ذوات الكتابات المغولية المنقوشة، كانت جوازات السفر التي تذكّر وظيفتُها بالمطالب المتعجرفة الواردة في جوازات السفر البريطانية القديمة حيث يطالب الجميع، أو يؤمرون، بالسماح لحامليها بحرية السفر دون تعويق. وعلى الرغم من أن يُول عقّد وصفه حين ذكر أن الجين[18] كانوا يستخدمون مثل هذه اللوحات كشارات دالة على الوظيفة والمرتبة، فإن المبعوثين الرسميين في عهد سلالة اللياو (927 - 1125 م) كانوا يحملونها لتمكنهم من الاستيلاء على الجياد في سبيل إيصال الرسائل الملكية إلى أهدافها. فالنص المنقوش على اللوحات المغولية المنقوبة يتألف من العبارات التالية: «ليكن اسم الخان مقدساً بقوة السماء الأبدية! وكل من لا يعامله (الخان ومبعوثيه) بأسمى آيات الاحترام يتعرض للذبح، إذ يجب أن يموت!».[19] وثمة صور لبعض هذه اللوحات المنقوبة في روسيا يقدمها يُول.

من المؤسف أن تلك المنقوبة في روسيا حتى الآن كانت جميعها فضية، وإن أبدى يُول، دعماً للأخوين بولو، «حرية تقديم اللوحة على أنها ذهبية». وعدد هذه اللوحات يبقى، على أية حال، ذا أهمية، لأن إحداها، على الأقل،

أثارت فيما بعد، في البندقية، جدلاً بالغ المرارة بين ماركو بولو وعمه.

من المعلوم أن ماركو بولو وُلد عام (1254 م) أي قبل انطلاق أبيه وعمه إلى رحلتهما الطويلة الأولى نحو الشرق الأقصى بست سنوات. وثمة شائعات وتخمينات كثيرة حول تعرض تعليمه للإهمال خلال غياب أبيه الطويل (من عام 1260 إلى عام 1270 م) ولا سيما أن أمه توفيت في أثناء غياب زوجها. ومسألة تعليم ماركو بولو هذه تثار عادة في سياق مدى معرفته باللغات، وخصوصاً احتمال ضعفه في اللغة اللاتينية، وإن كان من الوارد أن يكون فيما بعد قد اكتسب شيئاً من المعرفة باللغتين الفارسية والعربية. ومهما يكن، يبدو أن الأخوة الثلاثة بولو، أي :والد ماركو بولو وعميه، كانوا يعملون معاً ويعيشون، بالتالي، معاً أيضاً، في كا بولو[20] (بيت بولو). وهكذا، فإن من المحتمل أن يكون الأخ الأكبر: ماركو، وهو الباقي في البندقية لرعاية شؤون محلات العائلة التجارية وأسباب معاشها، قد أولى بعض الاهتمام لمسألة تعليم ابن أخيه وحامل اسمه.

وحين غادر الأخوان بولو في رحلة ثانية إلى الشرق الأقصى في عام (1271 م) اصطحبا معهما ماركو بولو ابن السابعة عشرة. وربما كانا الآن أكثر دراية بأهمية نفوذ المغول، فلاحَ لهما، إذا كنا سنصدق حديثهما عن مطالب قوبيلاي، بصيصُ أملٍ في تأثير مسيحي ما.

وهذه الرحلة الثانية العابرة للأراضي الصعبة ذاتها أوصلتهما إلى معسكرات قوبيلاي خان الكبرى، إلى «عاصمته الصيفية»: شانغدو (أو العاصمة العليا) أو كزاناداكولريج. فـ «قبة المتعة المهيبة»، حسب تعبير كولريج، تقع بجانب نهر آلف المقدس (نهر شانغدو بلغة أقرب إلى النثر) الذي يجعله خيال الشاعر الخصب ينحدر عبر «كهوف عصية على مقاييس البشر»، وذلك لا يتناسب إطلاقاً مع القاعدة الجيولوجية للمروج المنغولية حيث الأنهار المسكينة مضطرة لقطع آلاف الأميال قبل الوصول إلى البحر.

وكما في قره قُرُم، وجد الأخوان بولو أن هناك أبنية شديدة الرسوخ، شيدت بالرخام الأبيض، وذات زخارف ذهبية، وهي تتناسب مع مهابة رجل يحكم الكون، ولكن مع خيام بديعة الزركشة والتزيين، غِر أو يورتات، تذكر المغول بتراثهم البدوي. وعلى الرغم من قابلية خيمة قوبيلاي للتفكيك، مثل أي غِر عادي، فإنها كانت مدعمة بركائز على شكل تنانين منحوتة ومربوطة بمئتي قطعة من الحبال المصنوعة من الحرير الناعم. وشانغدو هذه كانت مركزاً سياسياً (فإعلان تنصيب قوبيلاي خاناً تم في هذه المدينة) غير أنها كانت أيضاً جنة مسرات عظيمة، مهيأة لمختلف أنواع الصيد بالنبال والصقور. فداخل المدينة الكبرى المسورة كانت هناك أدغال سرو - «غابات قديمة قدم التلال» كما يقول كولريج - ونوافير وجداول، أو «غدران مراوغة» ملأى بسائر أجناس الغزلان والأيائل، التي كان الخان يقنصها أحياناً بالنمور. وقد كانت الأجواء زاخرة بطيور البجع واللقلق والدرّج والحجل تسمن بالعدس أيام الشتاء القاسية لتصطاد بالصقور.

ومثلها مثل الإمبراطورية المغولية نفسها، اختفت شانغدو ولم يبق من القصر العظيم سوى مزق حجرية تحمل نقوشاً صينية.[21] فخيمة قوبيلاي ما لبثت أن لُفت وطُويت تمهيداً لنقلها منذ مئات السنين. وحتى حين كان وجود الأخوين معه مفترضاً كان الخان ينقل حاشيته كلها جنوباً في تشرين الثاني، إلى عاصمته التي شيدت حديثاً: خانباليق أو بكين، لأن أهل شانغدو درجوا على عادة مغادرتها مع حلول نهاية الخريف من كل عام.

1- *Imago Mondi.*

2- A geographical compilation made by a rough contemporay of Marco Polo's.

3- *Navigationi et Viaggi.*

4- British Library, Additional MS 12475.

5- Colonel Sir Henry Yule, *The Travels of Marco Polo: the complete Yule-Cordier edition* (1903, 1920; New York, 1993), vol. 1, p. 78.

6- Yule and Paul Pelliot, *Marco Polo: The Travels* (London, 1938), vol. 2, pp. 17-19.

7- Yule, *The Travels*, vol. 2, pp. 17-19.

8- Moule and Pelliot, *Marco Polo*, vol. 2, pp. 15-19.

9- Leonardo Olschki, *Marco Polo's Asia* (Berkeley, 1960), p. 100.

10- J. R. S. Philips, *The Medieval Expansion of Europe* (Oxford, 1988), p. 20.

11- Sir Mark Aurel Stein, *Ruins of Desert Cathay* (London, 1912; New York, 1987), p. 518. On the problems of horsebreeding, see Austin coats, *China Races* (Hong Kong, 1994), p. 3; for sheep, see Jack Dabbs, History of the Discovery and Exploration of Chinese Turkestan, *Central Asiatic Studies* VIII (Hague, 1963), p. 92.

12- Ibid., p. 518.

13- David Morgan, *The Mongols* (Oxford, 1986), p. 23.

14- Moule and Pelliot, *Marco Polo*, vol. 1, p. 82.

15- Yule, *The Travels*, vol. 1, pp. 351-6.

16- Polo, Marco. *Il Libro di Marco Polo detto Millione* (Turin, 1954), pp. 5, 13.

17- Aldo Ricci (trans.) *The Travels of Marco Polo* (London, 1931), p. 17.

18- Jin.

19- Yule, *The Travels*, vol. 1, p. 353.

20- Ca Polo.

21- William Dalrymple, *In Xanadu: a quest* (London, 1990), pp. 298-9

14) هل كان المكان هو الصين؟

طبقاً لما جاء في **وصف العالم**، ارتحل الإيطاليون الثلاثة جنوباً، حاذين حذو بلاط الخان، إلى عمق الصين، إلى «سيرس»، أرض الحرير الواقعة على الحافة الشرقية من العالم؛ وهنا بالذات، كانوا رحالة أوربيين رواداً طليعيين حقاً.

وانبهار الأخوة بولو بالحاكم الجديد للصين: قوبيلاي خان كان شديداً. ف **وصف العالم** قال عنه: «ليس قصير القامة ولا هو طويلها»، «مكتنز البدن» وأطرافه «معتدلة القياسات»، «بشرته صافية متوردة كالزهر، عيناه سوداوان وجميلتان، أنفه حسن الشكل، مستقر في المكان المناسب» (الحمد للسماء على أن الأنف لم يكن متحركاً).[1] ومثله مثل العديد ممن زاروا الصين لاحقاً، أسهب ماركو بولو في الحديث عن التسري كثيراً. فكل واحدة من أزواج قوبيلاي الرسميات الأربع كانت لها حاشية مؤلفة من عشرة آلاف نفر، بمن فيهم العديد من الوصيفات والخصيان. ولدى اختياره محظياته، بدا قوبيلاي ميالاً إلى نساء بلدة كونغارات المغولية التي كان يوفد إليها عددٌ من المبعوثين لانتقاء 400 إلى 500 فتاة حسناء مرة كل عامين. وما لم يُفْتَرض أن أعداداً من الفتيات كُنَّ يوردن من المناطق المحيطة، كان لابد لمثل هذا العدد من أن يشكل إفراطاً ومبالغة في الطلب على نساء كونغارات، إلا أن ماركو بولو يؤكد لنا أن الأمر كله كان يُعتبر شرفاً عظيماً. و«خبراء التقويم» لدى الخان كانوا يعاينون الفتيات معاينة بالغة الدقة، ممعنين النظر في «كل ملمح» ومانحين درجات للجمال العام على

سلم متدرج بين الواحد والعشرين أو أكثر. وجميع الحاصلات على عشرين أو أكثر كُنَّ يُجلبن إلى قوبيلاي الذي يوعز بإعادة تقويمهن، وصولاً إلى اختيار حوالي ثلاثين إلى أربعين. ومن ثم كانت تتم إعادة فحصهن للتأكد من بكارتهن وأنفاسهن الزكية، ومن أنهن لا يشخرن في النوم، قبل توزيعهن على مجموعات سداسية، تتولى الواحدة منها مهام الخدمة ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ إلى أن تحل محلها المجموعة السداسية التالية. أما اللواتي يجتزن الامتحانات النهائية، ولكنهن من الشاخرات فكان يتقرر الاحتفاظ بهن في القصر وتعليمهن فنوناً نافعة مثل حياكة القفازات «وغيرها من الإنجازات الرشيقة» ذات الطابع الفيكتوري، قبل تقديمهن لنبلاء يبحثون عن أزواج. وعلى الرغم من هذا الوصف التفصيلي، فإن الحذر منه واجب لأنه لا يرد إلا في الطبعة اللاحقة التي نشرها رَموزيو.[2]

ومثلهم مثل نسائه، كان حراس الخان يعملون ثلاثة أيام، ولكن بمجموعات تتألف الواحدة منها من ثلاثة آلاف عنصر. واستخدام ما مجموعهم 12000 فرد كان يتم «لا بسبب الخوف»، حسب زعم ماركو بولو، بل تعبيراً عن السطوة.[3] أما تسعة الآلاف من الحراس غير المناوبين فكانوا يبقون في القصر نهاراً ويعودون إلى بيوتهم ليلاً، ولا يسمح لهم بمغادرة بكين إلا بإذن، لدى احتضار أب أو أخ.

وبدت ولائم قوبيلاي خان الكبرى قائمة على خليط من العادات الصينية من ناحية، والممارسات المغولية من ناحية ثانية. فالخان كان يجلس على منصة تعلو نظيراتها العائدة لمن هم دونه في المرتبة متوجهاً نحو الجنوب. وكلما أخذ الخان رشفة من كأسه كانت الموسيقا تصدح، كما كان المشعوذون والبهلوانات يقدمون عروضهم بعد الاحتفال. وخدمة الخان نفسه كانت من مهام خدم اختيروا خصيصاً، يضعون أقنعة حريرية كي لا يزفروا على طعامه المقدم في أوان من الذهب والفضة. أما الكحول فكان يجري توزيعه من وعاءٍ خاصٍ منحوتٍ بأشكال حيوانات مشتملة على

خزانات منفصلة، يمتلىء كل منها بنوع مختلف من الخمر، بما في ذلك القُمُز، أي :لبن الفرس المخمر.[4]

وفيما عدا المشعوذين، يبدو أن أسباب التسلية كانت تأتي على شكل عقوبات مفروضة على من يتعثر عند الباب من الضيوف. فللمباني الصينية، بلا استثناء، ألواح خشبية عالية أسفل الباب يتعين على الزوار تجاوزها. وفي المباني السكنية الوطيئة، تساعد (هذه الألواح) على صد المطر والدجاج، أما في مباني القصور الفخمة فإن هذه «العتبة» كانت بارتفاع ثلاثين سنتيمتراً على الأقل، ويقول بعضهم إن أولئك القادمين إلى مجلس الحاكم كانوا يعانون جراء اضطرارهم رفع ذيول أثوابهم الطويلة، وللتحايل على العائق، بما يجبرهم على اتخاذ وضعيات انحناءة الإجلال. وفي أثناء ولائم قوبيلاي خان كان حراس عمالقة يحملون هراوات غليظة يقفون عند الباب لأن أي ضيف يلامس العتبة مصادفة عند الدخول كان يُعد جالباً للشؤم، فيتعرض إما للضرب المبرح أو للتعرية من ملابسه (التي لا تعاد إليه إلا بعد أن يدفع الغرامة).

وحفلات الصيد كانت تنطوي على استخدام عشرة آلاف من الرجال الذين يقودون صنوف كلاب الحراسة والصيد. وكذلك كانت النمور والأوشاق والأسود تُستخدم في عمليات اقتناص الذئاب، والثعالب، والأيائل، والغزلان وطيور السّمانّى. فالدلائل تشير إلى أن الصقور، مثلها مثل الأخوة بولو، كانت ترافق الخان في ترحاله (ثمة 10000 بازدار مع 5000 باز وصقر جوال وباز قناص على ضفاف النهر). ولدى التحرك باتجاه الشمال، كانت خيم عملاقة تُنصب على الطريق حتى يتمكن الخان من مشاهدة تدمير الطبيعة على نطاق واسع متنعماً بالاستلقاء فوق الأرائك والوسائد المغلفة بفراء السمور.[5]

إن هيبة الخان وسلطته كانتا أيضاً تتجليان في أعداد الهدايا التي تصله

كل عام. ففي رأس السنة القمرية جاءت كميات كبيرة من الذهب والفضة واللآلئ والأثواب المصنوعة من القماش الأبيض الفاخر، مع ما لا يقل عن ألف جواد أبيض، في موكب من قوافل الفيلة والجمال، وفي يوم ميلاده (الخان) تلقى أثواباً من الذهب المدقوق الموشى باللآلئ والأحجار الكريمة. وبنظر الأخوين بولو، كان هذا هو الحاكم الأعلى مالك الملايين من الحريم والبزاة واللآلئ، رغم انحداره من عائلة خرجت من أكثر أشكال الفقر المدقع بؤساً لتفرض سيطرتها على الجزء الأكبر من آسيا.

ومثله مثل معاصريه، كان ماركو بولو مبهوراً بجبروت المغول العسكري. فقد وصف العديد من معاركهم الأكثر شهرة، مثل معركة الانتقام من بورما (عام 1277 م) حيث تنبه قائد الجيش المغولي المسلم نصر الدين إلى التفوق العددي للخصم فأمر رماته بإطلاق السهام النارية على الفيلة الحربية البورمية الألفين فغطوها بوابل من القذائف محدثين ذعراً مسعوراً.[6] وثمة معركة كبيرة أخرى هزم فيها قوبيلاي، المنقول إلى ساحة القتال على محفة خشبية برجية محمولة على ظهور أربعة فيلة، عمَّه نايان في عام (1287 م)؛ وهذه المعركة، التي جاءت في غير سياقها الزمني لأنها سبقت الوصف الشخصي لقوبيلاي خان (الذي يفترض فيه أن يكون في أوائل سبعينيات القرن الثالث عشر) كانت عنيفة إذ تساقطت السهام من السماء كالمطر، كما تهاوى الجياد والفرسان على الأرض محدثين هدير ارتطام يضاهي دوي الرعد. وانتهت المعركة بأسر نايان وموته البطيء، ملفوفاً بسجادة ومجروراً بجياد منطلقة بسرعة، في صورة ماركوبولوية مرعبة عن المغول حيث يتقاتل الفرسان للفوز بشاة مذبوحة.

ولفرط انشغالهم بالولائم، باللقاءات الرسمية، وبحفلات الصيد، وبآلاف الحراس والخدم في القصر، يبدو أن الأخوة بولو لم ينجزوا أية عمليات تجارية خلال السنوات التي أمضوها في الصين. ففضلاً عن أسفاره لإنجاز أعمال الخان، يقال إن ماركو بولو أفاد بأنه أمضى ثلاثة أعوام شاغلاً

منصب حاكم يَنْغْجُو. وبما أن المصادر الصينية لا تؤيد مثل هذا الزعم، فإن بِلِيُوت يرى أن ماركو بولو ربما كان مستخدماً في إدارة الملح. وهذا الرأي يسوقه بِلِيُوت لأن شخصاً يحمل اسم بُولو أو بُولُو يرد ذكره على أنه مدير الملح في يَنْغْجُو في **تاريخ يوآن الرسمي (يوآن شي)** من جهة، ولأن هناك عدداً كبيراً من المرات التي يجري فيها ذكر صناعة الملح وترسيمه في **وصف العالم** من جهة ثانية. فاستخراج [الملح] من الآبار والتربة المالحة والأحواض البحرية يرد عند الحديث عن مناطق بعيدة ومتباعدة مثل يونان وشانغدونغ وساحل جيجيانغ، مع أن إشارة ماركو بولو إلى يونان ربما كانت دالة على منطقة زيغونغ في الإقليم المجاور لسيتشوان، حيث ظل الملح الصخري، طوال العديد من القرون، يُستخرج من آبار عميقة تحت الأرض بوساطة بكرات تدار بالجواميس.[7] ومع أن هذا قد يكون تفسيراً ممكناً، فإن ورود الملح وأهميته في الصين ليس أمراً مثيراً للاستغراب، لأنه كان منتوجاً خاضعاً للحكومة، وثيق الارتباط بالنقد الورقي الجديد.

فمنذ أيام سلالة خان (206 ق. م ـ 220 م) كان الملح بضاعة خاضعة لإشراف الدولة، وعبر القرون المتعاقبة، ظل منتوجاً قابلاً للترسيم، وفرض الضريبة، كما جاء في **وصف العالم**؛[8] (ذكره ماركو بولو كشكل من أشكال النقد في التبت).[9] وخلال عهد سلالة سُنغ (960 ـ 1279 م) كان الملح، الذي تحتكر إنتاجه الحكومة، الأساس المعتمد لإصدار النقد الورقي. وقد كان التجار يستطيعون مبادلة القطع النقدية الورقية سهلة النقل بالشاي أو الملح في العاصمة أو المنبع.[10] والعاملون في أحواض الملح في جيجيانغ كانوا يحصلون على أجور زهيدة جداً من الحكومة، ويعيشون، بالتالي، حياة أشبه بحياة العبيد. وعلى الرغم من الإشارات المتكررة إلى الملح الذي كان، دون شك، مثار اهتمام أي تاجر أو رحالة أو دارس إدارة، فإن العثور على أي تأكيد لأي ارتباط بين إدارة الملح وماركو بولو في المراجع الصينية، أمر بالغ الصعوبة.

وفي حقيقة الأمر يتضح من مدخل **وصف العالم** أن ماركو بولو ما كان ليملك إلا القليل من الوقت لإدارة الملح، لأنه قضى معظم أيامه قاطعاً مسافات شاسعة في خدمة الخان. فهو يزعم أنه كان يقدم التقارير المطلوبة، ولكنه كان أيضاً يجمع، أقصى ما يستطيع، من المعلومات عن القصور والناس والعادات، التي يلاحظها في طريقه، لإثارة دهشة الخان. أما مسألة ما إذا كان أبوه وعمه كانا معه في أسفاره الاستكشافية الطويلة، أو أنهما بقيا في بكين ليعبثا بابهاماتهما، فليست موضحة.

وبعد سبعة عشر عاماً في الصين، يقول الأخوة بولو إنه تعين عليهم أن يقنعوا الخان بتركهم يعودون إلى الوطن. وبدلاً من العودة بالطريق الذي سلكوه في المجيء، والذي كان، بالضرورة، مألوفاً إلى حد كبير بالنسبة للأخوين الأكبر سناً لأنهما سلكاه، كما هو واضح، ثلاث مرات، سافروا إلى الوطن بأطول الطرق الممكنة، بحراً في المقام الأول. وحسب ما جاء في المدخل فإن ماركو بولو، وهو الرحالة الذي لا يعرف معنى التعب على ما يبدو، كان قد عاد، لتوه، من الهند، ولكنه بدا راغباً في العودة من حيث أتى. وكما لوحظ من قبل، فقد قيل إن الأخوة بولو اصطحبوا أميرة مغولية شابة، مرسلة إلى آرغون «سيد الشرق»[11] زوجاً ثانية. ومن فريق مؤلف من 600 شخصاً أمضى حوالي ثمانية عشر شهراً في البحر، ماراً بجاوة وسيلان والهند، قضى 582 شخصاً منهم نحبهم، وحين وصل الباقي من الفريق إلى بلاط آرغون اكتشفوا أنه هو الآخر كان توفي. وقصة الوفاة الوجيزة هذه ربما كانت دافع رَموزيو لوصف عودة الأخوة بولو إلى البندقية ملتفين بالأسمال البالية وشبه خالين من الأمتعة.

وبعد العودة إلى البندقية بوقت طويل، يبدو أن ماركو بولو ما لبث أن قفز إلى قفص الاتهام في هذه المدينة (أو جرى استدعاؤه إلى هناك) وانتهى به الأمر أسيراً إثر معركة بحرية مع الجنويين. وأولى الروايات عن سجن ماركو بولو وعن إبداع النص يقدمها جاكوبو دا آكوي. ففي مخطوطة

عائدة إلى القرن الثالث عشر لكتابه **إيمادجو موندي**،[12] وهي موجودة في مكتبة بيبليوتيكا امبروزيانا، أفاد [دا آكوي] أن ماركو بولو نُقل إلى جنوا أسيراً بعد معركة بحرية عند آياس بين الجنويين والبنادقة في عام (1294 م)[13] ولكن، حتى هذه الإفادة التي تبدو بسيطة، تنطوي على تناقضات. فإذا كانت معركة آياس أو لاياس وقعت في عام (1294 م) قبل عودة الأخوة بولو من آسيا بعام واحد، فإن كلام آكوي يبقى عموماً موضع تساؤل.[14] أما طبعة رَموزيو اللاحقة فتتحدث، بالمقابل، عن حماس ماركو بولو للدفاع عن البندقية ضد الجنويين، حتى وقع أسيراً خلال معركة كوتشولا (أو كورزولا) على الشاطئ الدالماتي ليلة 7 ـ 8 أيلول عام (1298 م). وهذا التاريخ يثير ارتياب باحثين مرجعيين آخرين لأن تاريخ إبداع النص وارد في مدخل **وصف العالم** على أنه عام (1298 م)[15] وبما أن أسرى من كورزولا تم إطلاق سراحهم في عام (1299 م) فإن البعض يرى أن الوقت لم يكن كافياً لإنجاز الكتاب. وإذا كان كلام جاك هيرز صحيحاً، وكان كل من ماركو بولو وروستيتشيللو موضوعين رهن «الاعتقال المنزلي» بدلاً من سجنهما في زنزانة ملأى بالجرذان، فإن عنصر الزمن ليس بمثل هذه الأهمية. ومهما يكن، فلابدّ من التراجع والغوص في قلب الغموض، كما في العديد من مناحي الكتاب: «يمكننا، إذاً، أن نعتقد أن ماركو بولو وقع في الأسر خلال اشتباك غامض لم يرد ذكره في أماكن أخرى بين تجار مسلحين في عام (1296 م)...»[16] كما يفضي استنتاج مول.

ولعل أحد أهم الأحداث العائلية بعد عودة الرحالة في عام (1295 م) كان ابتياع نيكولو ومافيو بيتاً في البندقية، بحي سان جيوفاني غريسوستومو، في سنة من سنوات تسعينيات القرن الثالث عشر على ما يبدو.[17] أما حكاية رَموزيو الخيالية عن عودة الرحالة ذوي المنظر الأجنبي، فتشكل جزءاً من أسطورة ماركو بولو، ومن شأن قطعها للإشارة إلى أن البيت الذي يزعم رَموزيو أنهم عادوا إليه لم يكن ليبدي أي قدر من

الترحيب، لأن عائلة بولو لم تشتره إلا بعد بضع سنوات،[18] أن يكون فظاً منافياً لللياقة. والوثائق الباقية لا تسلط أي ضوء على ما إذا كان ماركو بولو مشاركاً في عملية الشراء هذه أم لا، على الرغم من أن موقع البيت مازال يعرف باسم كا (بيت) مليونِه، أو كورته ديل مليونِه، رابطاً إياه ربطاً خاصاً بماركو بولو الذي عرف باسم «(إل مِليونِه)»[19] أو تشا بولو.[20] وذلك البيت كان على زاوية يتقاطع فيها شارع دي سان جيوفاني غريسوستومو مع شارع دي سان مارينا، ولكن النار التهمته صيف عام (1296 م)؛ (كوفئ كل من رجال الإطفاء الذين سارعوا إلى المكان بستة دوقاطات من قبل مجلس الشيوخ).[21] وفي عام (1677 م) بيع الموقع «المعروف لدى العامة باسم كاميليون والخالي جزئياً»، لتوفير إمكانية بناء مسرح هو :تياترو ماليبران في المكان نفسه. وبالقرب من الموقع الأصلي بقي برج ذو قناطر وأقواس بيزنطية، ولكن لاشيء غيره (رغم أن البرج ربما لم يشكل قط جزءاً من تشا بولو).

وعلى الرغم من أن إنتاج الكتاب الذي كان سيجعل الاسم، فيما بعد، اسم عائلة معروفة في أرجاء العالم، فإن ماركو وأعضاء أسرة بولو الآخرين لم يحصلوا قط من مدينة البندقية على أي اعتراف أو مركز رسمي، إما كتجار أو كرحالة. أما كتجار بلا مكانة خاصة، فإن الوثائق القليلة المتبقية ذات العلاقة بنشاطاتهم التجارية هي حقوقية بالدرجة الأولى، ولم تسجل الفعاليات التجارية إلا عند التعثر والوقوع في الخطأ. فبعد عودته من الصين ببعض الوقت، يبدو أن ماركو بولو رفع دعوى على وكيله بتهمة عدم تسديد قيمة رطل ونصف من المسك.[22] وثمة وثيقة أخرى في محفوظات البندقية، مؤرخة في عام (1305 م) تتعلق بتهريب بونوتشيو الميستري الخمر وكان ماركو بولو أحد أولئك الذين كفلوه.[23] وهذه الوثيقة الثانية تنطوي على أهمية خاصة لأن اسم ماركو بولو وارد على شكل «ماركوس باولو مليون»،[24] في إشارة أولى إلى لقب «إل مِليُونِه».

وعند وفاته في عام (1324 م) ترك ماركو بولو وراءه وصية وثلاث بنات هن: فانتينا، بيليلا، وموريتا. ولكن الوصية المسطرة قبل وفاته،25 لا تأتي على أي ذكر لممتلكات فيما وراء البحار (كوصية عمه) أو لأسفار. والدليل الرئيسي على وجود صلة بالشرق هو تحرير «عبده التتري» بِيتَر[26] الذي سُجلت وصيته الخاصة في عام (1329 م) حيث ورد الاسم على أنه بيتر سليمان،[27] مع منحه جزءاً صغيراً من التركة. وعلى العموم، يفترض أن ماركو بولو جلبه من الشرق الأقصى، ولكن من شأن دمج الاسمين: بيتر المسيحي وسليمان المسلم مع لقب «التتري» أن يحدث قدراً من التشوش.

من المعلوم أن مؤرخ العصر الوسيط ماتيو باريس درج على استخدام كلمة تتري بمعنى مغولي،[28] ويبدو أنها كانت شائعة الاستخدام من جانب «الغرباء» للدلالة على المغول بعد قيام جنكيزخان بالإجهاز شبه الكامل على قبيلة التتر المغولية بزمن طويل.[29] وإذا كان [بيتر] هذا منتمياً إلى إحدى الجماعات المغولية، فإن الجماعة الأقوى احتمالاً هي إما مغول فارس الذين كانوا قد اعتنقوا الإسلام كلياً مع حلول عام (1295 م) (وقت متأخر قليلاً ليتناسب مع هذه الرواية) أو مغول «الجحافل الذهبية» على الفولغا، لا مغول الصين الذين كانوا، رغم تسامحهم مع المسلمين، بوذيين أكثر من أي شيء آخر.[30] و **وصف العالم** يورد عدداً من حالات اعتناق تتريين الإسلام ويسجل الاختلاف التالي عن الصين: «أولئك الذين يعيشون في كاثاي تبنوا طرائق الوثنيين وعاداتهم... في حين أقبل أولئك الذين يعيشون في الشرق على تبني طرائق المسلمين».[31] واستخدام بولو لكلمة: «تتر» ربما كان فضفاضاً جداً للدلالة على كل ما يقع إلى الشرق من القدس، وقد يكون لقب بيتر سليمان أغنى دلالة، إذ يضعه في العالم الإسلامي. أما إعطاء التسمية المسيحية «بطرس» أو بيتر، فلربما كان يرمي إلى تحقيق التلاؤم عن طريق إحلاله محل اسم أجنبي أكثر تعقيداً. وبما أن [العبد التتري]

وزوجه عاشا، فيما يبدو، مع عائلة بولو حتى موته، فإن أفراد العائلة الآخرين ممن هم أقل سفراً ربما وجدوا ذلك اسماً مألوفاً أسهل على التذكر والنطق. وعملية اقتناء بِتروس هذا يمكنها أن تكون قد تمت في أي مكان (فهو لا يظهر في **وصف العالم** تصريحاً أو تلميحاً).

وبالمثل، ليس ثمة إلا القليل مما يربط ماركو بولو مباشرة بالصين في القائمة التفصيلية من ممتلكاته عند موته، [وهذه القائمة] وثيقة مكتوبة في عام (1366 م) بعد وقت غير قصير، نتيجة نزاع بين ابنة ماركو بولو الكبرى المترملة حديثاً: فانتينا وعائلة زوجها.[32] فهذه القائمة تضمنت أكثر من 200 بند، بما في ذلك كيس من الراوند (علاج للامساك)[33] الموصوف بدقة في **وصف العالم** كنبات ينمو في منطقة غانسو ويصدّر إلى سائر أرجاء العالم.[34] وأهمية راوند غانسو بالنسبة للهضم الغربي. ما لبثت أن دخلت في صلب الفولكلور الصيني، حتى أن مفوض الأفيون لين زيكسو ضمَّن رسالته الموجهة إلى الملكة فكتوريا في آب (1839 م) مطالباً إياها بوقف تجارة الأفيون، تهديداً بمنع تصدير الراوند الصيني إلى المملكة المتحدة يقيناً منه بأن من شأن مثل هذا التهديد أن يؤدي إلى إركاع البلد المبتلي بالإمساك.[35] ولأن [المادة] واردة في القائمة على أنها عائدة لماركو بولو عند وفاته في عام (1324 م) فمن الممكن تماماً أنه كان قد حصل عليها في وقت سابق خلال أسفاره حين أتى على ذكر بلاد الطانغوت، وحملها طوال فترة رحلته، وذلك يجعلها فعلاً كيساً من الراوند الصيني عمره يقرب من مئة سنة. غير أن من شأن كونها [الراوند] مادة طبية شائعة (رغم أن وِلْيَم الرُّبرُكي زعم أنها كادت تقتل أحد أصدقائه) أن يشير، بالمثل، إلى أن المادة كانت موضوع صفقة أحدث، استوردها أحد التجار الذين كان يتعامل معهم في مراحل متأخرة من حياته.

وإضافة إلى الراوند، كانت هناك أربعة وعشرون فراشاً؛ أزواج لا حصر

لها من الشراشف (حريرية بأكثريتها)؛ أقمشة من قبيل الكتان المطرز بالحرير، الحرائر المزركشة بالذهب أو المزينة بالحيوانات الخرافية؛ ثلاثة خواتم ذهبية؛ معاطف؛ أصواف؛ وأوان مطبخية. ومن الوصف الموجز يتضح أن الجزء الأكبر من الأقمشة الحريرية الواردة في القائمة يبدو، حين لا يكون أبيض خالياً من زخرفة الأغطية، شديد القرب من النمط السائد في فارس والشرق الأدنى، مطرزاً وموشى بخيوط الذهب، وأكثر غنىً ووزناً من الأقمشة الحريرية الصينية بما لا يقاس.

وعلى خلوها من الحيازات الترفية، تورد القائمة ممتلكات معقولة وعملية، كما توفر، في عدد قليل من الحالات، دليلاً على وجود صلة مباشرة بالصين. ومول يرى أن أحد البنود يمكن أن يقرأ على أنه: قطعة قماش ذهبية نُسجت تنفيذاً لطلب»، وذلك يجعلها تنتسب إلى الشرق الأدنى بدلاً من الصين، أو «لوحات وصايا ذهبية»،[36] وذلك يحول الأمر إلى نوع من جواز السفر أو تصريح السفر المنقوش على الذهب من النمط الذي سُلم إلى أبيه وعمه لدى مغادرتهما لقره قُرُم عائدين إلى الوطن بعد رحلتهما الأولى. فجواز سفر أو جواز مرور ذهبي من هذا النوع كان موضوع خلاف بين ماركو بولو وعمه مافيو. ففي وصية مافيو المكتوبة عام (1310 م) ثمة فقرة متعلقة بمسألة دَيْن على ماركو بولو مؤلف من أموال ومجوهرات ولوحة ذهبية من الخان الأعظم بقيت دون حل. ويبدو أن مبلغ المال المشار إليه كان تعويضاً عن خسارة جرى تكبدها في تريزونغ (طرابزون). أما الحسم حول ما إذا كانت هذه الخسارة قد وقعت جراء نشاطات تجارية عادية أو في أثناء أسفارهما الشهيرة،[37] فأمر متعذر لأن التاريخ المحدد لحصولها غير مسجل. واحتمال حيازة ماركو بولو للوحة ذهبية مع وجود ما يدل على حصول جدل مع عمه، كان ذا وزن يكفي لتسجيله في وصيته، من شأنه أن يوحي بخلافات عائلية ذات شأن. ودفاعاً عن ماركو بولو، يمكن أن يقال إن أباه وعمه قد حصلا على عدد منها [من اللوحات] في مناسبات مختلفة على

الأقل، وإن كان ماركو بولو، كما زعم، معهما، فإنه ربما استحق واحدة منها. فقائمة ممتلكاته ليست مقروءة إلا جزئياً، وتبدو، في حال إشارتها إلى لوحة ذهبية ما بالمطلق، معتمدة تعبيراً مغايراً لذلك الذي نجده في وصية عمه.(38)

وعلى الرغم من أن الأدلة الشحيحة المتوافرة لدينا على نشاطات ماركو بولو في البندقية لا تشي إلا باستمراره في المشاركة بالمسائل التجارية، فإن وجهة نظر أحد معاصريه، وهو الراهب بيبينو البولوني، الذي ترجم **وصف العالم** إلى اللاتينية خلال حياة ماركو بولو، تقول بأن الجانب الديني، لا المادي التجاري، للكتاب كان الأكثر أهمية لأنه كشف النقاب عن عجائب الخلق وأبرز التناقض بين عالم عبدة الأصنام الوثني المظلم من جهة والعالم المسيحي من الجهة المقابلة. ورغم هذا الاحتضان ليس ثمة، للأسف، أي دليل على أي اعتراف بابوي بأي من أفراد عائلة بولو ومناحي رسالتهم الدينية، تماماً كما لم يرد أي اعتراف رسمي في سجلات مسقط رأسهم: البندقية، بأسفارهم.

1- Ronald Latham, *Marco Polo: the Travels* (Harmondsworth, 1958), p. 122.
2- Ibid., pp. 122-3.
3- Ibid., pp. 135.
4- Ibid., pp. 136.
5- Ibid., pp. 136-45.
6- M. Rossabi, *Khubilai Khan* (Berkely, 1988), p. 215.
7- Latham, Marco Polo, pp. 176-7, 194, 228.
8- Ibid., pp. 178, 205.
9- Ibid., pp. 173-4.
10- Jaques Gernet, *Daily Life in China on the Eve of the Mongol Conquest*

(Stanford, 1970), oo. 80-1.

11- Latham, *Marco Polo*, p. 42.

12- *Imago Mundi.*

13- Luigi Foscolo Benedetto, *Il Milione* (Florence, 1928), p. cxciii.

14- Leonardo Olschki, *Marco Polo's Asia* (Berkeley, 1960), p. 103.

15- A. C. Moule and Paul Pelliot, *Marco Polo: The Travels* (London, 1938), vol. 2, pp. 73-4.

16- Moule and Pelliot, *Marco Polo*, vol. 2, p. 35.

17- Ibid., vol. 2. Pp. 29, 35.

18- Herbert Franke, 'Sino-Western relations under the Mongol Empire', *Journal of the Royal Asiatic Society Hong Kong Branch*, 6, Hong Kong, 1966, pp. 49-72.

19- Il milione.

20- Ca Polo.

21- Moule and Pelliot, *Marco Polo*, vol. 2, p. 37.

22- Leonardo Olschki, *Marco Polo's Asia* (Berkeley, 1960), pp. 104-5.

23- Colonel Sir Henry Yule, *The Travels of Marco Polo: the complete Yule-Cordier edition* (1903, 1920; New York, 1993), vol. 1, p. 67.

24- Marcus paulo milion.

25- Moule and Pelliot, *Marco Polo*, vol. 1, p. 30.

26- Ibid., vol. 1, p. 539.

27- Ibid., vol. 1, p. 542.

28- R. Vaughan, *The illustrated chronicles of Mathew Paris*, Stroud, 1993, p. ix.

29- David Morgan, *The Mongols* (Oxford, 1986), p. 57.

30- Ibid., pp. 142, 160-3, 124.

31- Latham, *Marco Polo*, p. 101.

32- Jaques Heers, *Marco Polo* (Paris, 1982), pp. 34-5.

33- Moule and Pelliot, *Marco Polo*, vol. 1, p. 555.

34- Olschki, *Marco Polo's Asia*, p. 157.

35- John Gittings, *A Chinese View of China*, (London, 1973), pp. 43-50.

36- tables d'or des comendemens.

37- Peter Jackson, *The Mission of William Rubruck* (London, 1990), p. 217.

38- I am indebted to Sir Matthew Farrar for an interest in the number of these gold tables which sent me back to the text, where I found the confusion of numbers ever deepening.

15) غياب ذو دلالة

ربما كان ماركو بولو، الذي ادعى لنفسه صلة حميمة بالخان، أهلاً لأن يرد له اسم في مجلدات الوثائق الصينية المتعلقة بتلك الفترة، ولكن حقيقة عدم وجود أية إشارة إلى الأخوة بولو في المصادر الصينية (بل والمغولية أيضاً)[1] يشكل أحد الجوانب الباعثة على الحيرة لقصة ماركو بولو، إذا أخذنا موقعه المهم والقريب المزعوم من البلاط بعين الاعتبار. وعلى أية حال فإن الأهمية ليست مقصورة على المصادر الرسمية وحدها؛ فوفد نوفوغورود الغامض لعام (1261 م) غائب عن السجلات الرسمية، ولكنه مذكور في يوميات أحد عناصر البلاط.

ثمة كم كبير من المواد الصينية القابلة للاستئناس، بدءاً بالتاريخ الرسمي للسلالة الملكية وانتهاء بالتواريخ (المعجمات الجغرافية) المحلية المكتوبة عن كل من الأقاليم، الأمر الذي يجعل تعقب أي خيط مستقيم عبر هذه الفوضى أمراً بالغ الصعوبة. ولدى شروعي بالاطلاع على المصادر الصينية توجهت إلى الوثائق الأصلية، وإلى التواريخ الرسمية للمرحلة، متعاملة مع فدادين من الورق بحثاً عن أثر ما لأي إيطالي أو بولو. وفيما بعد وقعت يدي على مجلد يلخص مقالات صينية معاصرة تدافع عن ماركو بولو، وهناك اهتديت، على النقيض مما توقعته، إلى الدحض الأول للزعم المتكرر كثيراً حول شغل ماركو بولو منصب حاكم يَنْغْجُو.[2] فالبروفسور يَنغ جيجيُو، وهو مدافع متحمس، دون التخلي المطلق عن الروح النقدية، عن فكرة أن ماركو بولو كان الرحالة الأوربي الأول الذي زار الصين، يلاحظ

أن الزعم المتكرر على نطاق واسع حول حكم ماركو بولو يَنْغْجُو مستند إلى قراءة خاطئة في أحد النصوص. فحيث يبدو أن ماركو بولو قال أصلاً إنه «بقي» أو «أقام بشكل مؤقت» في يَنْغْجُو ثلاث سنوات، جرى نسخ الكلمة خطأ على أنها «حكم»3. وبعد هذه القراءة الأكثر قدرة على الإقناع، لم تعد أية حاجة تدعو إلى الغوص في قوائم المحافظين أو الموظفين في يَنْغْجُو. ولكن هذا لم يكن ادعاء ماركو بولو الوحيد للشهرة في الصين، وهو غلط لا ينسب إليه هو، بل غلط فادح وقع فيه أحد النساخ.

ومهما يكن فإن ماركو بولو قال بالفعل أيضاً إنه عمل مبعوثاً رسمياً وساهم في إنهاء الحصار الدامي لكْسيَنغْيَنْغ. وخلافاً لهذه المزاعم، اتضح أنه مع أبيه وعمه لم يكونوا في وضع يمكنهم من الإسهام في إنهاء حصار كْسيَنغْيَنْغ لأن هذا الحصار انتهى في عام (1273 م) قبل وصولهم المفترض إلى هناك إذا انطلقوا في عام (1270 م). أضف إلى ذلك أن التواريخ الصينية تسجل، كما ذكرت من قبل، استقدام مهندسين فرس لبناء المجانيق القادرة على فك الحصار التي يُفترض أن يكون الأخوة بولو مع حاشيتهم قد صنعوها. ولدى شروعي بالغوص في المصادر الصينية بحثاً عما يشير إلى خدمة ماركو بولو الرسمية، ركزت اهتمامي على ادعائه بأنه كان مكلفاً من قبل الخان «بأكثر المهمات إثارة وبعداً»، وبأنه (قبل قراءة البروفِسور يانغ) «حكم» يَنْغْجُو «مدة ثلاث سنوات».

أما عن عمله كاتب تقارير متنقلاً عند قوبيلاي، فليس هناك أي تسجيل في أي مكان لمثل هذه الخدمة. وعلى الرغم من أن من شأن مستوى الحميمية التي يزعمها في علاقته بالخان أن يشي بأنه كان جديراً بأن يرد له ذكر في السجلات الرسمية، جنباً إلى جنب مع كاسري الحصار الفرس والأطباء الهنود، فإن من المحتمل أنه لم يكن على المستوى الذي يزعمه من الأهمية. ومن غير المستحيل أن نتصور أن قوبيلاي كان مهتماً بالعادات والأعراف الغريبة للشعب الصيني الذي كان مشغولاً آنياً بإخضاع بلده،

وأن «أجنبياً» آخر ربما كان، بالمثل، يفوق أياً من عناصر البلاط، اهتماماً بمثل هذه التفاصيل الأنثروبولوجية. وإذا كان ماركو بولو أقل شأناً مما زعم، فإن من الصعب أن نتصوره وهو يجوب أرجاء الصين مدة سبعة عشر عاماً في مهمات رسمية. أما إذا كان على الدرجة التي زعمها من الأهمية، فإن حذف اسمه من السجلات يبقى باعثاً على الحيرة.

أما المعجمات الجغرافية المحلية فكانت تُكتب عن سائر البلدات والأقاليم الرئيسية في الصين، كمثال آخر على الجهاز البيروقراطي الهائل الذي كان يسجل سائر أنواع تفاصيل الإدارة المحلية، والإنتاج الزراعي، والإنتاج الصناعي، والأعيان المحليين، (بمن فيهم الأرامل الفاضلات) والأحداث الهامة. وصدور هذه المعجمات دورياً يشير إلى أنها كانت تُحدَّث باستمرار، وتتضمن، جميعها، أجزاء هامة من التاريخ المحلي. وحتى لو كان ماركو بولو متسكعاً في يَنْغْجُو، بدلاً من أن يكون محافظاً أو حاكماً، فإن من المحتمل أن زائراً ذا منشأ أجنبي غريب كان سيرد ذكره. فمن المذهل حقاً أننا، لدى تمشيط تلك المعجمات الجغرافية والمؤلفات ذات العلاقة مثل كتاب **يَنْغْجُو تيو جينغ** الذي يعود إلى القرن الثامن عشر ويورد قائمة أسماء الأعيان والمشاهير في عهود السلالات الحاكمة، نرى جملة الأسماء غير الصينية الغريبة لموظفين مغول معينين في عهد سلالة يوآن (1279 - 1368 م). وهذه الأسماء تظهر فجأة بين العدد المحدود جداً من الألقاب الصينية المتكررة مرة بعد أخرى.

ففي الصين، التي درج أهلها على تعريف ذواتهم بأنهم قوم «الأسماء المئة القديمة»، ثمة عدد محدود من الألقاب. وما هو شائع بين هذه «المئة» قليل نسبياً. فالظهور المفاجئ لأشخاص مثل «بو» و«آ» ممن ليسوا في قائمة الألقاب المائة، بين زحمة ألقاب: لي، وانغ، جانغ، وتْشَغ متبوعة، جميعاً تقريباً، بـ «اسم أول» من حرفين، أمر بالغ الإثارة. وهذه الأسماء ترد غالباً أيضاً في تراكيب رباعية بأشكال مختلفة تماماً عن الأسماء الثلاثية المؤلفة من اللقب والاسم الأول المؤلف من مقطعين: ماو تسيتونغ [ماو تسي تونغ]،

دنغ هسياوبينغ [دنغ هسياو بنغ]، شو إنلاي [شو إن لاي]، الخ..... وفي الصين ليس هناك إلا القليل جداً من الألقاب ذات «الجذع المزدوج» مثل كويانغ، سيتو، سيما،.. غير أن هذه شهيرة: وعلى العموم تشكل المجموعات الرباعية ذات «الألقاب» المنحوتة من مقاطع غريبة جداً مؤشرات مباشرة دالة على أن أصحابها من غير الصينيين. ومع ذلك فإن اسم بولو لا يرد في هذه النصوص، كما لا يرد أي ذكر لولايته في ديفانغجي يَنْغْجُو، أو في المعجمات الجغرافية التي بقيت منها طبعات صادرة في الأعوام (1542، 1601، 1819، 1874 و 1947 م).

وثمة، بالمثل، عدد كبير من الأسماء الغريبة في اليوآن شي[4] المكتوب وفق الخطة المتبعة مع سائر تواريخ السلالات الحاكمة السابقة منذ سلالة الخان (206 ق. م - 220 م) بالاستناد إلى محفوظات تم إيجادها رسمياً. وفهرس التواريخ الملكية الأربعة والعشرين[5] يورد قائمة عددٍ ممّن يحملون اسم بُولو الذي قد يبدو قريباً من الإيطاليين بشكل مثير، بعد قلبه، طبقاً لنظام الرَّومَنَة الإنجليزية القديم (ويد - غايلز)[6] إلى بولو.

وفي وقت مبكر يعود إلى عام (1865 م) قرر غاستون بوثييه أنه عثر على ما يشير إلى ماركو بولو في أحد هذه الأبواب التي حملت عنوان «بولو». فشخص باسم بولو (أو بولو، أو بُولو[7] كما تقول رَوْمَنة بينين الراهنة، وفقاً للأحرف المستعملة) ورد ذكره في **يُوآن شي** بوصفه نائباً لرئيس المجلس السري ومحافظاً ليونان، بل مفتشاً لإدارة الملح الموجود مركزها في يَنْغْجُو نفسها، في عام (1284 م).8 ولكن الباحث المدقق بِليُوت ما لبث أن استنتج، للأسف، ورغم الدهشة الأولية، أن من الواضح من هذا النص من جهة ومن الإشارات الواردة لدى رشيد الدين من جهة ثانية، أن الشخص المقصود كان في الحقيقة مغولياً اسمه بولاد عند رشيد الدين، وبولود أقا بالمغولية.[9] فالاسم بُولو وبُولُو أو بُولو،[10] ليس، ببساطة، إلا ترجمة صوتية للاسم المغولي: (الأحرف نفسها غير ذات معنى ولا تستخدم إلا لقيمتها

الصوتية رغم أن «بو» أو «بو»[11] «يمكن أن تعني «نبتة متبرعمة»، «شهاب» أو، كما في قاموس ماتيو، «شَيّ: أرز مبلل في مقلاة» و«لو» أو «لو»[12] تعني «شبكة» أو «ينشر»).[13]

بين الواحد والعشرين بُولو أو بولو في فهرس تواريخ السلالات الأربعة والعشرين، الواردة جميعاً تقريباً في تواريخ السلالات الصينية، هناك خمسة عشر في تاريخ يوآن أو المغول، وأربعة في التاريخ السلالي للجين (1115 - 1234 م) التي هي جماعة شمالية غير صينية؛ مما يبين أن الدلالات مغولية وشمالية. وثمة مسعى لاستعمال حرف صوتي آخر لرومنة أسماء غير صينية في التاريخ الصيني، حيث بو، أو (بو)[14] تعني «لا» عندما لا تستخدم لصوتها فقط، في إحدى عشرة مناسبة، ست منها في تاريخ يوآن، وواحدة في تاريخ جين، واثنتان في تاريخ مبكر جداً (في سلالة خان اللاحقة وفي شي جي[15] أو التاريخ الشامل المصنف في القرن الثاني قبل الميلاد) ولكن دون الاقتران أبداً مع أي من صوتي «لو» أو «لُو».[16]

أما ليوناردو أولشكي الذي لاحظ بولو أو بُولو مغولي آخر (تم إعدامه في عام «1330 م» بتهمة ممارسة السحر وتقديم القرابين للدب الأكبر) فقد رأى أن من الخطأ البحث عن الأخوة بولو انطلاقاً من صيغة لقبهم؛[17] وأشار إلى أن «بطاقات هوية» الأخوة بولو كان لابد لها من أن تؤكد أسماءهم الأولى (المسيحية) حيث ماركو يغدو موجوسي[18] (مو ـ تشو ـ تزو[19] في ويد ـ غايلز) ونيكولو ينقلب نيغولا،[20] أو (ني ـ كو ـ لا)[21] ومافيو يصبح، عبر استخدام شكل سبق له أن استخدم اعتباراً من القرن السادس عشر لكتابة ماتيو: اسم أحد تلاميذ المسيح، «مِنغتاي» (أو مِنغ ـ تَ. آي[22]. في ويد ـ غايلز) مع احتمال اتباع باولو (أو باولو)[23] (لقباً) وفقاً لترجمة اسم القديس بولس[24] مرة أخرى. ولكن هذه الأشكال، رغم احتمال أن تكون صحيحة بمعايير العصر الوسيط، لا تظهر في تواريخ السلالات الحاكمة أيضاً.[25]

وفي غياب الإشارة إلى الأفراد، قام فْرَنكِه بمعاينة اليوآن شي بحثاً عن إشارات ما إلى أوربيين، فاكتشف ورود ذكر لكل من ألالانز[26]، والقيبكا،[27] والروس، والبلغار.[28] فالصينيون والمغول كثيراً ما كانوا مشوشين حول الأصل الدقيق للـ «أجانب»، مثل معاصريهم الأوروبيين فيما يخص القبائل المغولية المختلفة، الأمر الذي قد يوفر إمكانية توسيع نطاق هذه الإشارات حتى تشمل الإيطاليين؛ ولكنها جميعاً متأخرة عن الزيارة المفترضة للأخوة بولو،[29] لأن تواريخها تعود إلى عامي (1330 و 1332 م). وكذلك فإن رشيد الدين كان هو الآخر غامضاً، حتى لدى كتابته عن «الفرنجة» في تاريخ العالم، إذ أسقط كل ذكر للإيطاليين.[30]

ومهما يكن، فإن ماركو بولو يبقى بنظر الصينيين اليوم شخصية بالغة الأهمية. فهو من لفت انتباه أوروبا القرن الرابع عشر إلى الصين، والغربي الأول الذي كتب عن الصين بالانطلاق من تجربته الخاصة على ما يبدو. وكما تقول مقدمة كتاب يو شِكسِيُنْغ «إن ماركو بولو شخصية دولية. صحيح أنه ولد في إيطاليا ولكن أهم فعالياته تحققت في الصين. وكتابه يشكل إسهاماً في الثقافة العالمية، سفراً تحبه شعوب العالم وتدرسه، كنزاً نادراً تتقاسمه شعوب الدنيا».

أما الترجمة الأولى لـوصف العالم إلى اللغة الصينية فقد كانت في عام (1913 م)؛ وكما في باقي العالم، لقيت القصة المروية في الكتاب قبولاً لدى القراء. وفي عام (1941 م) اكتشف البروفِسور يَنْغ جِيجُو، في المقطع رقم 19418 من يُونغْلِه دَدْيَان، أي التصنيف العظيم للحقبة اليونغولية، موسوعة مخطوطة في 22937 مقطعاً جُمعت بين عامي (1403 و 1408 م) وجُلّدت في 11095 جزءاً، وصف رحلة الأميرة المغولية المرسلة للزواج من آرغون إلخان فارس، في عام (1292 م). وفْرَنْسِيس وودمان كليفز أفاد من مؤلفه، لأنه بدا مؤيداً لوصف ماركو بولو طريق عودة الأخوة بولو إلى الوطن.[31] والمصادر من هذه النوعية تبدو في البداية مؤكدة وجود ماركو

بولو في الصين، ولكن طبعة يُونغْلِه دَدْيَان، رغم تطابقها مع رواية ماركو بولو عموماً، لا تتضمن، للأسف، أية إشارة إلى الأخوة بولو أو إلى أي إيطالي على الإطلاق. وكذلك أخفق مصدر كليفز الفارسي في ذكر أي إيطاليين. ولكن كليفز تغافل عن غياب الأسماء مشيراً إلى أن الأميرة نفسها ليست مذكورة إطلاقاً بالاسم في يُونغْلِه دَدْيَان. ومع الاعتراف بأن رحلة الأميرة تمت فعلاً، فمن الصعب، على أية حال، ألا نستنتج أن هذا مثال آخر على قيام ماركو بولو بإعادة سرد حكاية معروفة جيداً (مثل قصتي غزو اليابان وانتفاضة ونغ جو). فلو كان ماركو بولو وأقرباؤه أعضاء في الحاشية فعلاً لكانوا، بالضرورة، في مراتب غير ذات شأن، في مواقع غير جديرة بالذكر إفرادياً.

لقد اعترف البروفِسور يَنغ، المدافع الصيني الأبرز عن ماركو بولو، بأن اكتشافه لا يشير عملياً إلى الأخير، ولكنه تابع يقول إن سجلات البلاط الرسمية لم تكن دارجة على عادة إيراد قوائم بأسماء مثل هذه الشخصيات. والبروفِسور يَنغ الذي استمر في دفاعه عن مصداقية ماركو بولو (رغم الاعتراف بأنه كان مفرطاً في المبالغة بسبب افتقاره إلى المستوى الممتاز من التعليم وجراء عدم كونه مؤرخاً) كان أول المدافعين عن عدم ذكر الشاي مشيراً إلى أن ماركو بولو ربما ظل متمسكاً بعاداته الإيطالية ولم يستسغ احتساءه. وبما أن المغول «لم يكونوا مولعين بالشاي»، وقد ظل ماركو بولو يميل إلى مرافقتهم أكثر من نزوعه إلى مصاحبة الصينيين، فإن الشاي لم يكن موضع اهتمامه.[32] وقد لاحظ البروفِسور يَنغ أيضاً أن باحثاً أكاديمياً أمريكياً كان قد طرح بأسلوب بحثي وبالتفصيل أن ماركو بولو ربما لم يصل إلا إلى بكين، فكتب عن الصين مما سمعه هناك.[33] ومثل هذا الطرح بدا مقبولاً للبرفِسور يَنغ، وإن كان يثير، فيما أرى، مسألة كيف أعال الأخوة بولو أنفسهم، وماذا فعلوا على امتداد سبعة عشر عاماً، إذا لم يكن ماركو بولو، على الأقل، مشغولاً وموظفاً بأجر كمراسل؟

وكذلك قام البروفِسور يَنغ بدحض أطروحات الباحثين الألمان المتخصصين بالشؤون المغولية معتبراً، مثلاً، أن إغفال أمور معينة مثل الشاي والسور العظيم لم يكن كافياً لرفض مجمل الكتاب، ومؤكداً أن استخدام المفردات الفارسية لم يتم إلا لأن المغول درجوا على عادة تشغيل الفرس والأتراك موظفين. وفي ضوء دفاعه القوي عن ماركو بولو، استاء البروفِسور يَنغ من حقيقة أن الباحثين البريطانيين المعاصرين كانوا، على النقيض من نظرائهم الأمريكان، يديرون ظهورهم إلى الدراسات العلمية الموالية لماركو بولو والصادرة في القرن التاسع عشر، مثل الجهود المضنية للسير هنري يُول،[34] ودعا هؤلاء الباحثين إلى الالتحاق بركب الأخير ثانية.

أما موضوع إسقاط الإشارة إلى ربط الأقدام فلم يتناوله يَنغ في مقاله، مع أنه كان يستطيع أن يفعل ذلك عن طريق تأكيد انعزال ماركو بولو عن الصينيين (خلافاً للمغول ذوي الأقدام الكبيرة) مرة أخرى. ومما لاشك فيه أن عزوفه عن إثارة هذه المسألة يعود في معظمه إلى حقيقة أن الصينيين المعاصرين يصابون بالرعب إزاء تلك الممارسة القديمة ويعدّون الاهتمام الغربي بها إهانة.؛ ثمة عدد قليل جداً من العجائز اللواتي مازلن على قيد الحياة واللواتي كانت أقدامهن قد رُبطت أوائل هذا القرن، وإن كنتَ في أوائل الثمانينات مازلت تستطيع أن تجد فروعاً اختصاصية في دكاكين الأحذية ببكين حيث كان مقاسان من الأحذية القماشية السوداء الصغيرة يباعان تلبية لحاجة ذوات الأقدام المربوطة. ولأسباب غير وجيهة بلا أدنى شك (اهتمام غير سليم بالماضي الإقطاعي، أو تأليه لاشعوري للأقدام) كنت تواقة على الدوام لشراء زوجين غير أنني لم أجرؤ، ليقيني المؤكد بأن ذلك كان من شأنه أن يُعد إهانة للصين الحديثة.

وعلى تأثري الشديد بدراسات الباحثين الأكاديميين الصينيين ولاسيما اكتشاف البروفِسور يَنغ حول رحلة العودة، ظل يبدو لي، رغم الرعاية التي أحاط هؤلاء الباحثون ماركو بولو بها باعتباره صديقاً قديماً للصين، أن

دراساتهم بقيت عاجزة عن إثبات أن ماركو بولو هذا أقام في الصين فعلاً، وأن بعضاً فقط من قصصه تتطابق مع الأحداث، وأن غيابه عن مجمل أعمال التوثيق للحقبة المغولية يبقى غياباً ذا دلالة.

1- Herbert Franke, 'Sino-Western relations under the Mongol Empire', *Journal of the Royal Asiatic Society Hong Kong Branch*, 6, Hong Kong, 1966, p. 5.

2- In an essay by professor Yang Zhijiu, included in Yu Shixiong, *Mako Polou jishao yu yanjiu* (Introduction and research into Marco Polo) (Peking, 1983), pp. 280-1.

3 - أو (governa).

4- Yuan shi.

5- *Ershisishi jizhuan renming suoyin* (Peking, 1980).

6- Wade-Giles.

7- Boluo, Poluo.

8- *Yuan shi, juan* 205.

9- Paul Pelliot, review of Charignon's re-edition of Pauthier's Le Livre de *Marco Polo, in Toung Pao*, 2 5 (Leiden, 19 2 7), P. 157 and Leonardo Olschki, 'Une question Xonornatologie chinoise', Oriens, 3 (Leiden, 1950), P. 158.

10- Boluo, Poluo, Polo.

11- Bo, Po.

12- luo, lo.

13- I should not really mention Matthews in the same paragraph as Paul Pelliot, for students of Chinese are taught to eschew this missionary dictionary produced in 1931. To be fair to Matthews, his famous inaccuracies are mostly to do with a prim unwillingness to mention sex or concubinage, so concubines always appear as wives, sisters or great-nieces, which can considerably confuse family relations.

14- Bu, Pu.

15- Shi Ji.

16- Lo, Lou.

17- Olschki, *'Une question Xonomatologie chinoise'*, p. 189.

18- Mojusi.

19- Mo-tshu-tzu.

20- Niegula.

21- Nie - Ku - la.

22- Mingtai, Ming-tai.

23- Baolu, Pau-lu.

24- Paul.

25- Ibid., p. 189.

26- Alans.

27- Qypcaa.

28- Bulgarians (Puliaer).

29- Herbert Franke, 'European in der Ostasiatischen Geschichtschreibung des 13 und 14 jahrhunderts', *Saeculum*, ii, (Freiburg in the Breisgau, 1951), pp. 65-75.

30- J. A. G. Boyle, 'Rashid al-Din and the Franks', in Boyle, *The Mongol World Empire* (London, 1977).

31- Francis Woodman Cleaves, 'A Chinese source bearing upon Marco Polo's departure from China and a Persian source on his arrival in Persia', *Harvard journal of Asiatic Studies*, 36 (Cambridge, Mass., 1976), pp. 181-203.

32- Yang Zhijiu 'Make Poluo yu Zhongguo' in Xu Shixiong, *Make Poluo fieshao yu yanjiu* (Peking, 1983), PP. 52-6o.

33- John Haeger, 'Marco Polo in China Problems with internal evidence', *Bulletin of Sung-Yuan Studies*, 14 (New York, 1979), pp. 22-30.

34- Craig Clunas, 'Did Marco Polo get to China?', *The Times*, 14 April 1982.

ختام

وبدءاً بما هو سلبي، ليس **وصف العالم** دليل رحالة أو رواية أمينة لقصة رحلات. فالرحالة المخضرمون الذين حاولوا اتباع خطوات ماركو بولو اضطروا، دون استثناء، للتخلي عن مثل تلك المحاولة؛ فجون جوليوس نورويتش اعترف باضطراره للتخلي عن اتباع المسار في إحدى بقاع فارس؛ وسفارة اللورد مكارتني وجدت نفسها محصورة في فرضية جغرافية حول السور العظيم وعنه؛ وكليرنس دالريمبل بروس عانى الارتباك الشديد في الخليج الفارسي.[1]

(باستثناء المدخل بتفاصيله المتناثرة) ليس **وصف العالم** دليل رحالة؛ فالباقي من النص يفي، بقدر أكبر من الدقة، بالوعد المتضمَّن في العنوان: **وصف العالم** فيما وراء البندقية. ولعل أحد حوافز تأليفه كان متمثلاً بذلك الإحساس المبكر، والفج قليلاً، بتنامي الطلب على كتب الجغرافيا أواخر وأوائل القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين على التوالي. فكل من جاكوبو دا آكوي وفانسان البو ياني، بل حتى السير جون ماندفيل، بادروا إلى تصنيف تواريخ وجغرافيات عالمية، في نشاط موازٍ لما فعله رشيد الدين في **تاريخ العالم** باللغة العربية. وظهور كتب الجغرافيا المبكرة تلك كان مبشراً بعصر الاكتشافات العظيم حين انطلق بحارة طليعيون لإثبات محدودية الوصف المكتوب. فكريستوفر كولُمبُس اصطحب نسخة من كتاب ماركو بولو **وصف العالم** في رحلته البحرية الملحمية، مع أن حقيقة انتهاء رحلته عند الطرف الآخر من العالم لم تكن ناجمة عن صعوبة اتباع

خطوات ماركو بولو فيزيائياً (مادياً) فقط. ففي غفلة عن وجود كتلة القارة الأمريكية على الطريق، كان [كولُمْبس] قد أقنع نفسه بأنه قادر على الوصول إلى آسيا بالإبحار غرباً ليجد نفسه عاكفاً على اجتراح حركات تفريسيّة بهلوانية في محاولة منه لمماهاة كوبا مع اليابان (التي لم يصف منها ماركو بولو سوى أحد القصور ومعركة بحرية كبرى جرت قبل قرنين من الزمن). ونسخة كريستوفر كولُمْبس لكتاب ماركو بولو، وعليها ملاحظات هامشية، مازالت محفوظة في مكتبة كابيتيولار وكولُمْبس بمدينة إشبيلية،[2] ولكن خربشاته لا تبدو ملمحة إلى أية خيبة كبيرة.

والتنامي التدريجي لشعبية جنس أدب الرحلات يتجلى في ترجمة كتاب **وصف العالم** وانتشار طبعاته المخطوطة على نطاق واسع. فبعد حوالي خمسين سنة لقي كتاب **رحلات** الروائي للسير جون ماندفيل قدراً مماثلاً من الترحيب والحماس: تمت ترجمته وبات متوافراً بجميع اللغات الأوربية الشائعة مع حلول عام (1400 م) وباللغات التشيكية والدانمركية والهولندية والأيرلندية مع مجيء عام (1500 م)[3] ومما قد يلفت النظر أن بعض النسخ المبكرة لكتاب **وصف العالم** جرى إعادة إنتاجها كجزء من مجموعات مؤلفات عن السفر والطوبوغرافيا، غالباً ما كانت تتضمن أيضاً رحلات السير جون ماندفيل.

صحيح أن كتاب **رحلات** كان أيضاً جزءاً من أبحاث كريستوفر كولُمْبس ما قبل الاستكشافية،[4] ولكن اللافت للنظر، بالمقارنة، أن شكوكاً بدأ التعبير عنها حول مصداقية ماندفيل، بعيد قيام رَموزيو بإعادة اكتشاف ماركو بولو وإعلانه للملأ رحالة عظيماً. فمع حلول أوائل القرن السادس عشر، كان المطران جوزف هول يتحدث عن «نثرات حجر مسن ماندفيل العجوز»، فضلاً عن أن مسرحية ساخرة بعنوان **الأضداد**[5] كتبها ريتشارد بروم في عام (1636 م) قامت كلياً على ماندفيل الذي قد كان أصبح، بالضرورة، اسماً شبه عائلي أو مألوفاً جداً، ولو كدجال.[6] وقد تبين أن

ماندفيل قام، فعلاً، بالتقاط مقاطع من خمسة عشر مرجعاً أو أكثر، بما فيها تلك العائدة لفانسان البو ياني وأُدِرِك البوردينوني،[7] مكذباً مزاعمه بنسخه الحرْفي. أما الطابع الثانوي لكتاب **وصف العالم** الذي كتبه روستيتشيللو بالاستناد إلى المعلومات التي وفرها ماركو بولو، وأضاف إليه مترجمون لاحقون، فكان من شأنه أن يساعد على إخفاء أية اقتباسات مكشوفة. ومع أفول نجم ماندفيل بات ماركو بولو ينعم بعد وفاته بانتعاش مازال يزدهر.

قد يكون غياب أي دليل رحالة متسق في كتاب **وصف العالم** لماركو بولو، عائداً لحماس كاتب الرواية روستيتشيللو الذي استطاع إملاء شكل النص والتشجيع على توسيعه إلى ما هو أكثر من محض وصف لرحلة، وجعله تاريخاً عالمياً أكثر جلالاً بإقحام كتابات وصفية جغرافية غير ذات علاقة عن أماكن مثل روسيا واليابان وعن معارك قديمة.

وككاتب محترف، ربما كان روستيتشيللو هو الذي عقد الأمل على استغلال الطلب الشعبي المتزايد على مثل هذه الكتب الدائرة حول عجائب زوايا العالم القصية. والطريقة التي اتبعت في إبداع النص ربما كانت حاسمة. فعلى الرغم من أننا لا نعرف يقيناً حتى أية معركة تلك التي تمخضت عن أسر ماركو بولو، فإن إحدى اليقينيات النسبية حول **وصف العالم** هي أنه كُتب بجهد مشترك. وفكرة التعاون الأدبي ربما جاءت من روستيتشيللو المبهور بالحكايات الخيالية الغريبة التي دأب ماركو بولو على سردها تمضية للوقت، إما في إحدى الزنزانات أو في أي شكل آخر من أشكال الحجز. وفي أيام ما قبل الطباعة وحقوق التأليف، من الصعب تصور تحقيق ثروة من أي مخطوط واسع التداول (لا كثير المبيعات) ولكن روستيتشيللو الذي سبق له أن كان معتمِداً على دعم وريث العرش الإنجليزي بفضل جهوده الأدبية، ربما كان يهدف إلى الحصول على حظوة مماثلة.

وما قد ينطوي على قدر أكبر من الصعوبة هو موضوع المراجع التي أفاد منها كل من ماركو بولو ورستيتشلو لإبداع العمل. فإذا كان ماركو بولو لم يصل إلى البندقية إلا في الملابس التي كانت تغطي جسده (وإن كانت مع مجوهرات مخيطة في بطانتها) كما وصفه جاكوبو دا آكوي، فإن من غير المحتمل أن تكون بحوزته كثرة من الأوراق الشخصية التي قال عنها جاكوبو نفسه إن ماركو طلبها من السجن. أما إذا كانت الأوراق عائلية، لا شخصية، فإن من الأرجح أنها كانت مشتملة على مواد متعلقة برحلات العائلة التجارية شرقاً، وربما على كتيبات باللغة الفارسية لإرشاد التجار. وربما كانت هناك مؤلفات تاريخية فارسية مكنتهما من إيراد أخبار معارك قديمة وكتابات وصفية عن روسيا واليابان، لم تكن جزءاً من التجارب الشخصية لماركو بولو أو أفراد عائلته.

ومما قاله يُول، إن أقدم الكتابات الوصفية لشهود عيان أجانب عن الصين كانت «جميعها، باستثناءات قليلة جداً، عربية».[8] وكلام العرب عن الصين، وقد كُتب منذ سلالة تَنْغ فصاعداً، استند إلى صلة وثيقة، لأن التجار العرب والفرس، منجذبين بالإنتاج الوفير والثقافة العجيبة، أقاموا في مدن الصين وموانئها الرئيسية الأكثر انشغالاً بتصدير البورسلين والحرير، مثل تشانغ آن (العاصمة، كسي آن اليوم) كانتون، كوانْجو، وفوجو. وكتاب بول بليُوت عن مفردات ماركو بولو (أو مفردات نساخه الكُثر) يورد وفرة من الإشارات إلى مراجع وأصول فارسية وعربية. وكذلك فإن هِرْبِرت فْرَنكِه، ليس فقط جرياً وراء سراب العثور على ما يشير إلى ماركو بولو، بل انطلاقاً من احتمال أن يكون ماركو بولو هذا قد اعتمد على كتاب إرشاد فارسي كمادة مرجعية رئيسية،[9] اعتبر معاينة المصادر العربية والفارسية أمراً بالغ الأهمية.

ثمة كتابة عربية مغفلة (مجهولة المؤلف) تعود إلى عام (851 م)[10] وصفت ميناء كانتون ومسجدها، أمراءها وعباداتها العامة، إدارتها المعقدة

وحرصها الشديد على الوثيقة المكتوبة، ممارسة الدفن بالوكالة، الحماية الموفرة للرحالة، استخدام البورسلين، الخمر المستخرج من الأرز، والشاي. وهناك رحالة عرب آخرون وفدوا إلى الصين في عهد سلالة تَنْغ وتركوا روايات تفصيلية مماثلة، ولكن الروايات الأحدث، بما فيها **تاريخ العالم** لرشيد الدين، ورواية ابن بطوطة لقصة أسفاره في أوائل القرن الرابع عشر هي التي توفر النظائر الأقرب لأقسام من **وصف العالم**.

والكاتب الأبرز في حكاية ماركو بولو، أي رشيد الدين، كان يهودياً، ابن صيدلاني، ولد في حوالي عام (1247 م) بهمدان؛ اعتنق الإسلام في الثلاثين من العمر؛ ويبدو أنه التحق بخدمة آباقا ،خان فارس المغولي الثاني (دام حكمه بين عامي 1265 و 1282 م) طبيباً. أما إنجاز رشيد الدين العظيم فقد تمثل بتصنيف تاريخ شامل للعالم تنفيذاً لأوامر أولجيتو (خان فارس، الذي دام حكمه بين عامي «1304 و 1316 م»). والكتاب، الذي كان بعنوان **جامع التواريخ**، جاء متضمناً تاريخ الفرنجة (الأوربيين) وتاريخاً للصين من أقدم أساطير الخلق إلى حكم تيمور أولجيتو، خليفة قوبيلاي، (دام حكمه من عام 1294 إلى عام 1307 م).

وتاريخ الصين لرشيد الدين جاء متوازياً في العديد من الأحداث مع رواية ماركو بولو. وكما بين البروفِسور بِليُو، فإن تهجئة أسماء الأماكن كثيراً ما تطابقت، وإن بدا العثور على صياغات فارسية لدى رشيد الدين أقل إثارة للدهشة. فرشيد الدين وماركو بولو متناظران، حتى حيثما تكون التباسات أو أغلاط، مثل الموقع الدقيق لايانتشي (بحرة «البط»، بحيرة «الأذن») في يونان، كما أن روايتيهما قصة اغتيال وانغ جو متساويتان ومتماثلتان من حيث إثارة التشويش والارتباك.

فرشيد الدين لم يكن يكتب كلاماً شخصياً عن الصين، لأنه لم يزر البلد، بل اعتمد، بدلاً من ذلك، على مصادر معاصرة مختلفة، مكتوبة

وشفوية سواء بسواء، والتي كانت، برأي الموسوعة البريطانية، مغولية. فتاريخه عن المغول قائم على الإفادة من **الكتاب الذهبي**، الذي يشكل سجلاً لتاريخ المغول، وكتاباته عن غزوات جنكيزخان معتمدة على كتاب الجويني (1226 - 1283 م).[11] أما أساس كلامه عن الصين فليس معروفاً.[12] فرشيد الدين يصنف تاريخ الصين وفق الترتيب الزمني التقليدي للسلالات بادئاً بسلالة كسيا (تقول التخمينات إنها كانت بين القرنين الحادي والعشرين والسادس عشر قبل الميلاد) ومنتهياً بالحقبة المغولية المبكرة. وحقيقة أن سلالة جين اللاصينية (التي حكمت شمال الصين بين عامي «1125 و 1234 م») يعتبرها رشيد الدين «شرعية» تشي بأن مصدره كان أحدث من فترة شنغ لأن «مؤلفاً من شنغ لم يكن ليستطيع قط أن يورد أباطرة جين على أنهم حكام شرعيون للصين».[13]

يبدو أن مؤلفاً فارسياً آخر هو بيرناكتي أفاد بأن اثنين من الصينيين ساعدا رشيد الدين في إنجاز تاريخه. وفي تعقبه لهذا الدليل ـ مجارياً الموسوعة البريطانية ـ عاقداً الآمال على الاهتداء إلى مصدر صيني لتاريخ رشيد الدين (اعتقاداً منه بأن ماركو بولو ربما استخدم نظيراً للمرجع الفارسي) أصيب البروفِسور فْرَنكِه بالذهول إذ اكتشف رواية بوذية صينية بقلم نيانتشانغ. فكتاب فُزو ليداي تُنغزاي (**خبر عن أسلاف الأجيال البوذية**) يتضمن وصفاً للأحداث حتى عام (1333 م) مع مقدمتين للإصدارين المطبوعين في عامي (1341 و 1344 م) حيث «أشكال التناظر شديدة الإدهاش وكثيرة العدد» بما يرجح احتمال كونه المصدر الذي اعتمده رشيد الدين. ولكن إنجاز تاريخ رشيد الدين كان، للأسف، قد اكتمل في عام (1310 م) أي قبل حوالي عشرين سنة.

وإذا لم يكن كتاب نيانتشانغ مصدر رشيد الدين، لعدم تطابق التواريخ، فإن البروفِسور فْرَنكِه يرى ضرورة وجود تاريخ صيني ـ بوذي ما (لم يتم اكتشافه بعد) أدى وظيفة «مرجع مشترك لكل من نيانتشانغ والرهبان الذين

قاموا، كما يقول بيرناكَتي، بتصنيف التقويم الذي أدى وظيفة المرجع بالنسبة لرشيد الدين».[14]

إن رواية ابن بطوطة عن الصين تطرح بعضاً من المشكلات نفسها. فقد كان من مواطني المغرب وولد عام (1304 م) وقضى جزءاً كبيراً من حياته، الفترة الممتدة بين عامي (1325 و 1355 م) متنقلاً في الشرق الأقصى. ومن الواضح أن كتابة قصة أسفاره كانت في عام (1355 م).[15] ووصف ابن بطوطة لهانغجو أتى على ذكر اللهو والخدم، الأسواق والمنتجات المعروضة فيها بما في ذلك الخيزران والمناديل، كما تضمن تعليقاً على الزراعة المكثفة في سواحل الصين الشرقية.[16] وقام أيضاً بوصف النقد الورقي، الفحم والصلصال الصيني، الحرير وإنتاجه، واستهلاك لحم الخنزير.[17] أما عزوف ماركو بولو عن إبراز لحم الخنزير، وهو المفضل في الصين حتى الآن، فقد يكون ناتجاً عن أن ذلك كان أقل إثارة للدهشة بنظر أي مسيحي. وكذلك لاحظ ابن بطوطة، دون تحديد المكان، ديوكاً ودجاجات عملاقة،[18] لا تختلف في شيء عن طيور الإوز العملاقة عند ماركو بولو.[19]

صحيح أن هناك أوجه تباين من حيث التأكيد، كما في إخفاق ماركو بولو في التعليق على زراعة منطقة دلتا اليانغتسي (قد يهب المدافعون عن ماركو بولو ليشيروا صارخين إلى أنه لم يكن مزارعاً بل ابن مدينة!) غير أن أوجه الشبه بين وصفي ابن بطوطة وماركو بولو للصين، مذهلة. وأوجه الشبه هذه هي التي دفعت هِربرت فْرَنكِه إلى طرح فكرة احتمال تعويل ماركو بولو على دليل [أو معجم جغرافي] فارسي أو عربي عن الصين زاخر بأنواع التفاصيل التي قدمها هو وابن بطوطة كلاهما. وعلى الرغم من أن كثيرين بحثوا عن دليل كهذا، فإن من المؤسف أن القرن الثالث عشر هو «عصر ظلام الأدب الشعبي الفارسي»،[20] الأمر الذي حال دون أن يطفو على السطح مثل هذا الكتاب الإرشادي، وبالتالي فإن فْرَنكِه يميل إلى القول بوجوب تفسير الشك، في غياب أي مصدر صريح، لصالح ماركو بولو.

ومع ذلك فإن من شأن احتمال تعويله على مصادر عربية أو فارسية أن يفسر أوجه الشبه مع رشيد الدين وابن بطوطة، ولاسيما على صعيد المفردات في الكتابات الوصفية الغريبة الشبيهة بوصف طيور الجنوب العملاقة؛ كما قد يفسر تضخيمه إذ يصف أحداثاً لم يسبق له أن رآها مثل محاولة غزو اليابان، المعارك المغولية القديمة، وملابسات قضية وانغ جو. ولو كان ،بالفعل، مزوداً بالوثائق من قبل عائلته وهو في السجن، لأمكن لكتاب إرشادي فارسي بحوزة العائلة، أو روايات فارسية عن الغزوات المغولية، أن يوفر له مادة مرجعية.

من الصعوبة بمكان حل مسألة احتمال تعويل ماركو بولو على مصادر فارسية لأن شيئاً يؤيد مثل هذا المنحى لم يجر اكتشافه حتى الآن. فرواية رشيد الدين المتوازية عن قرب مع أجزاء من رواية ماركو بولو، لم تظهر إلا متأخرة في شكلها الناجز حتى تفيده بشيء، مثلها مثل رواية ابن بطوطة. وحتى مراجع رشيد الدين تبقى، كما أوضح البروفِسور فْرَنكِه، مثقلة بالملابسات. ومع ذلك فإن من الممكن، نظراً للحرص الصيني الهائل على الاحتفاظ بالنصوص المكتوبة ونقلها من جيل إلى الجيل الذي يليه، اكتشاف مصدر صيني لأجزاء من **تاريخ العالم** لرشيد الدين.

ومن شأن الاعتماد على مؤلفات آخرين لتضخيم **وصف العالم** أن يكون مسؤولاً عن بعض الإسقاطات الصارخة، لأن الرحالة الفرس والعرب كانوا يمتلكون تراثاً أعرق من المعرفة عن الشرق الأقصى، وربما فوجئوا، لمجيئهم من ثقافة مغايرة، بأشياء مختلفة. وبالنسبة إلى مؤرخين صينيين من أمثال يَنغ جيجو فإن حذف تفاصيل ذات شأن من مجمل التفاصيل الواردة لا يشكل مشكلة كبيرة، ولهذا الاعتبار أسبابه الوجيهة لأن تضمين كل ما كان موجوداً في الصين كان من شأنه أن يحول دون خروج ماركو بولو وروستيتشيللو من السجن إلى الأبد. وربما يتعين علينا أن نسلّم بالضرورة التحريرية التي ألزمت المؤلف وكاتب الظل بإسقاط أشياء معينة. فربط

الأقدام قد يهمني أنا دون أن يثير اهتمام كل من ماركو بولو وروستيتشيللو.

وبشيء من التسويغ المنطقي، قال البروفِسور يَنغ أيضاً إن رؤية الأشياء رؤية مغلوطة ليست بالضرورة نتيجة أي تعويل على مراجع ثانوية. فالأغلاط الواردة في قصة محاولة اغتيال وانغ جو تكررت أيضاً عند رشيد الدين، وبالتالي فإن كائناً من كان يمكن أن يرتكب غلطاً. وكذلك استخف يَنغ بإخفاق ماركو بولو في إيراد النسب الدقيق لقوبيلاي خان، وهو ما أتى على ذكره كريغ كلوناس بوصفه إشكالاً، على أنه غلط بسيط؛ ونظراً لتعقيدات الإمبراطوريات المغولية المختلفة وحكامها فلربما كان محقاً.

من المتعذر أن تكون بعض الأغلاط من «عيوب» ماركو بولو؛ إنها دلائل واضحة على الإفادة من مواد وظفت سابقاً، عائدة ربما لآخرين. فمن رواية قصة الهزيمة التي ألحقها النوغاي بالتوغتا التي لا ترد إلا في نسخة طليطلة العائدة إلى القرن الخامس عشر،[21] يتضح بجلاء أن النساخ درجوا على عادة الاضطلاع بدور «المحسّنين» والمصنفين. فهذه المعركة، حسب كلام رشيد، وقعت في عام (1298 - 1299 م) وذلك يحول دون أن تكون معروفة لدى ماركو بولو وروستيتشيللو في الوقت المناسب لإيرادها في المخطوطة الأصلية (المفقودة) ما لم نسقط من حسابنا تاريخ التصنيف المثبت في المدخل. ولابد لهذا من أن يكون «تحسيناً» لاحقاً للنص، وذلك يطرح مدى «التحسين» أو «التهذيب» والتأويل الطارئين، ومدى قدم مثل هذا «التهذيب» والتأويل.

وللأسف ليس هناك أي شيء يثبت أن ماركو بولو وُجد في أي مكان آخر في حال عدم وجوده في الصين.

وفي غياب البرهان على وجوده في مكان آخر بين عامي (1271 و 1295 م) ليس هناك أي دليل سوى كتاب **وصف العالم**، وأعتقد أن من شأن البنيان المعقد للكتاب أن يلقي بعض الضوء. فالتفاصيل الواردة في مدخل **وصف**

العالم تشير بإسهاب بالغ إلى رحلة والد ماركو وعمه السابقة. وقد يكون تقدمهما المقنع باتجاه الشرق من قواعدهما المعروفة في القرم والقسطنطينية، مدفوعين بالحرب وبلقاءات مصادَفة مع أشخاص مرموقين، الدليل الملموس الوحيد على وجود رحلة كهذه من قبل أيّ بولو.

أما الانقلاب المفاجئ للأب والعم من تاجرين إلى وسيطين بابويين مزعومين فمن شأنه أن يكون قد شكل منطلق مبادرة ماركو بولو إلى وصف رحلة ثانية، أطول. ووجود جوازات السفر الذهبية دليل على صلة رفيعة المستوى بصورة معقولة مع أحد الحكام المغول، وإن لم يكن قوبيلاي ذاته بالضرورة. وماذا عن احتمال أن يكون أحد أسباب النزاع العائا , بشأن لوحات ذهبية (هذا النزاع الذي تم الكشف عنه في عام (1310 م) بعد توضيب كتاب **وصف العالم**) متمثلاً بزعم ماركو بولو أنه كان في الص شخصياً في حين أنه لم يكن هناك؟ وماذا عن احتمال أن يكون أبوه رعمه قد قاما برحلة خطرة وعادا بواحدة أو أكثر من لوحات تصاريح المرور الذهبية، لا لشيء إلا ليقوم ماركو بولو بسرقة فرصة المجد المتاحة لهما عبر إقحام نفسه على القصة وهو في السجن؟ ولزيادة الطين بلّة، تشي و مافيو المسطرة في عام (1310 م) بأن ماركو بولو تعامل مع إحد هذه اللوحات بقدر من التحايل والخبث. فثمة نصوص مختلفة تقول إن عدداً مختلفاً من هذه اللوحات وُزعت على الأخوة بولو في أوقات متباينة؛ وليس من السهل إحصاء العدد النهائي، وما إذا كان ماركو نفسه قد تسلّم واحدة بالمطلق من يد الخان. وقد يبدو النزاع الوارد ذكره في الوصية أكثر أهمية من العدد المتبقي المحتمل.

وفي التحليل الأخير، ربما يتعين علينا أن نتعامل مع النص بوصفه كيانين منفصلين. فالتفاصيل الواردة في المدخل، وخصوصاً تلك التي تصف رحلة نيكولو ومافيو بولو الأولى، تشي بمغامرة معقولة، في حين ليس الباقي من النص إلا خليطاً من الأسطورة والوصف الجغرافي والتاريخي تترابط أجزاؤه

بطريقة مختلفة تماماً. وأعتقد أن الأرجح هو أن يكون الأخوان بولو الأكبر سناً قد قطعا مسافات طويلة عبر صحارى آسيا الوسطى، وربما وصلا، مثل وِلْيَم الرُّبرُكي وجون البلانو كاربيني، إلى قره قُرُم أو مخيم مغولي قريب، ثم عادا بحماية لوحات حسن سلوك ذهبية أنعم بها عليهما أحد القادة المغول. أما مشاركة ماركو بولو، ومعها مجمل الرحلة الثانية، فتبدو، حتى بعد السماح بالمبالغة، من الأمور غير المحتملة.

ألاّ يكون ماركو بولو بالذات قد ذهب إلى قره قُرُم، ناهيك عن بكين، يبدو لي أقوى احتمالاً من قيامه بالكتابة عن جميع الأشياء التي عرفها من مرقبه البكيني (كما رأى جون هايغر)؛ فالجزء الأكبر من الكتاب يتألف من وصف الصين وما وراءها. ولو كان [ماركو بولو] قد أمضى أعواماً في بكين، لكانت روايته أكثر تفصيلاً لقصة تلك المدينة وحدها بقلم زائرها الإيطالي، بل الأوربي في الحقيقة، الأول، على مستوى من الغرابة يكفي للفت الأنظار.

وإذا لم يسافر [ماركو بولو] إلى الصين والهند وأرخبيل جزر جنوب شرق آسيا، فمن أين حصل على معلوماته؟ كان بمقدور القصص العائلية ومعرفة أفراد الأسرة بالشرق الأدنى وما وراءه أن توفر كماً كبيراً من المواد. ورحلة أبيه وعمه المقنعة إلى قره قُرُم شكلت نقطة انطلاقة قيمة. وعلى الرغم من أن التكتم التجاري كان أحد العناصر الهامة لحماية مصادر التموين، فإن عائلة تملك بيوتاً في القرم والقسطنطينية ربما كانت قد جمعت مواد كثيرة، بما فيها كتب إرشادية فارسية، خرائط وتواريخ، عن الأقاليم البعيدة من أجل تسهيل السفر والتجارة. وإذا استطاع بيغوليتي أن يكتب دليلاً مقنعاً لسفر التجار إلى الصين بالاستناد كلياً إلى معلومات ثانوية، فإن ماركو بولو، هو الآخر، تمكن من أن يفعل الشيء ذاته. لقد بيّن فْرَنكِه مدى صعوبة العثور على المرجع الصيني الذي اعتمده رشيد الدين في كتابة تاريخ الصين، وطرح المشكلة نفسها فيما يخص المقارنة بين ماركو بولو ورشيد

الدين قائلاً: إنه تماثل غريب حقاً، غير أنه استحالة زمانية تتابعية. ومن الصعب، بالمثل، أن نكشف عن أي تعويل على مصادر غنية وفّرتها البعثات التبشيرية الأوربية، لأن تقرير وِلْيَم الرُّبْرُكي لم يكن، على ما يبدو، واسع التداول فضلاً عن أن ماركو بولو لم يكن، على ما يبدو مرة أخرى، في وضع يؤهله لغربلة المكتبات خلال فترة تعاونه مع روستيتشيللو. أما رواية أُدرِك البوردينوني اللاحقة التي تتقاطع مع ماركو بولو في أجزاء منها ولكنها تفترق عنه في أجزاء أخرى، فلا يمكنها أن تكون قد ساعدته، إلا أنها هي نفسها ربما كانت مستندة جزئياً إلى كتاب ماركو بولو.

والمصادر التي أفاد منها ماركو بولو وروستيتشيللو يتعين عليها أن تكون من نوعية المعلومات المتوافرة لرشيد الدين: ربما مراجع مكتوبة عن الجغرافيا والتاريخ المغوليين، وكثرة من الأساطير الشفوية عن عجائب الشرق، مسقط رأس المجوس، (الأب يوحنا) الأسطوري و«حفيده» الحقيقي جورج، السحالي، والثعالب التي كانت لا تقتات إلا بقصب السكر. ولربما كانت المعارف العائلية أساس الجزء الأكبر من المعلومات عن المنتوجات مثل التمور، وعن الحرف مثل ثقب اللآلئ في بغداد. وعلى اختلاطه بزخارف روستيتشيللو، وصدوره، ربما، عن ولعه بالتأليف، يبقى النص قيماً، حتى وإن لم يكن رواية شاهد عيان.

وفيما أميل إلى الرأي الذي يرجح أن ماركو بولو نفسه ربما لم يسافر قط إلى أبعد من محطات العائلة التجارية على البحر الأسود وفي القسطنطينية، ولم يكن مسؤولاً عن (البوظة) الإيطالية أو الرقاقات الصينية، أجدني أسلّم بأن ذلك لا يعني أن **وصف العالم** لا يبقى مصدراً قيماً للمعلومات عن الصين والشرق الأدنى، خصوصاً. فنفعه كسجلّ معلومات محكومة دونه بأن تكون مفقودة شبيه بحال هيرودوت (حوالي 484 - حوالي 425 ق. م) الذي لم يسافر إلى الأماكن التي وصفها كلها والذي خلط الواقع بقصص خيالية، ولكن مؤلَّفه يظل، رغم ذلك، غير قابل للاستغناء عنه

باستخفاف.[22] ولدى استخدامه جنباً إلى جنب مع نصوص عربية وفارسية وصينية تؤيد روحاً، وإن لم يكن دائماً تفصيلياً، مضمونه، فإن **وصف العالم** يبقى مرجعاً بالغ الغنى. فصورة مخطط مدينة بكين الذي هو على شكل رقعة الشطرنج مازالت، وستبقى، مهما كان مصدرها، رواية مقنعة عن مدينة لم تعد موجودة، ولكنها تحتفظ بمكانها في تاريخ المستوطنات في المنطقة. ومحتويات كتاب **وصف العالم**، شرط التعامل معها تعاملاً نقدياً، تظل لها أهميتها ويمكن اعتبارها مثالاً عن نمط جغرافية العالم الذي كان قد بدأ، في القرن الرابع عشر، يغدو شائعاً. فهذا الاهتمام بالعالم فيما وراء أوروبا وبأساطيره وحكامه ومنتوجاته ما لبث أن أفضى إلى رحلات الاستكشاف العظيمة في أواخر القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر؛ وحتى في أوائل القرن العشرين ثمة رحالة كبار مثل السير آورل ستاين انطلقوا نحو صحراء غُوبي شبه المجهولة التي ظل كتاب **وصف العالم**، بصرف النظر عن مدى افتقاره إلى القدرة على الإيحاء بالثقة، أحد المراجع النادرة عنها.

1- Clarence Dalrymple Bruce, *In the Footsteps of Marco Polo*, (London, 1907), p. 171.

2- Translation by Juan Gil, Madrid, Testimonio, 1986.

3- C. W. R. D. Moseley (ed.), *The Travels of Sir John Mandeville* (Harmondsworth, 1983), pp. 9-10.

4- Ibid., p. 9.

5- The Antipodes

6- Ibid., pp. 9, 33.

7- Ibid., p. 19.

8- Colonel Sir Henry Yule, *Cathay and the Way Thither* (London, 1916), p. 125.

9- Herbert Franke, 'Sino-Western relations under the Mongol Empire', *Journal of the Royal Asiatic Society Hong Kong Branch*, 6, Hong Kong, 1966, P. 54.

10- Translated into French by Abbé Renaud in his *Anciennes Relations de l'Inde at de la Chine de deux voyageurs Mahoumelans qui y allèrent dans le IXe siècle, 1718*, see Yule, P. 125.

11- J. A. G. Boyle, 'Rashid al-Din and the Franks', in Boyle, *The Mongol World Empire* (London, 1977).

12- Herbert Franke, 'Some Sinological remarks on Rashid al-Din's History of China', *Oriens*, 4/1 (Leiden, 1951), P. 21.

13- Ibid., P. 23. For details of Rashid al-Din's historical writing, see also Bernard Lewis, *The Muslim Discovery of Europe*, (London, 1994), especially pp. 150-7.

14- Ibid., P. 23.

15- Yule, *Cathay*, p. 112.

16- Ibid., pp. 110-13.

17- Ibid., p. 110.

18- Yule, Cathay, pp. 129-137.

19- Ronald Latham, *Marco Polo: The Travels* (Harmondsworth, 1958), P. 234.

20- Ursula Sims-Williams, verbal communication.

21- John Critchley, *Marco Polo's Book* (Aldershot, 1992), P. 10.

22- Jarl Charpentier (ed.), *The Livro de Seita dos Indios Orientais of Fatherjacoho Tenicio* (Uppsala, 1933), p. xi. Thanks also to Maurice Smith for raising Herodotus and similar useful references when I taught him Chinese literature. He rescued me from a virtual lynching by fellow students who could not tolerate the political force of Cultural Revolution literature by mentioning Shaw in the same gentle manner.

تعقيب على الطبعة الأمريكية

مع أنني كنت راسخة الثقة بموضوع دراستي، فإن قدراً من القلق راودني بشأن نشر الطبعة البريطانية لهذا الكتاب. فقد كنت مدركة لحقيقة أنه قد غطى عدداً كبيراً من الميادين التي شردتُ فيها مبتعدة كثيراً عن مجال اختصاصي، غير أنني أردت، فيما أردت، إثارة النقاش، لا تقديم القول الفصل، بأي من الأشكال. ومن المؤكد أنني لم أتطلع إلى أن أبدو هادمة خرافات، عازمة على دفع شخصية ماركو بولو الشهيرة إلى براثن آلية استعادة الماضي المدمرة بطريقة بالغة السهولة. فما كنت آمل أن أفعله، بالأحرى، هو تشجيع القراء على النظر، بأنفسهم، إلى كتلة غير مألوفة من المواد المثيرة للاهتمام. وأنا شديدة الامتنان لباحثين مثل البروفِسورين هِربِرت فْرَنكِه ودانيال وِيلي، لأنهم أرسلوا لي قوائم من التصويبات الهادفة إلى تحسين نصي السابق.

وكثير من النقاش الذي أعقب النشر كان دائراً حول مسألة ما جرى حذفه أو إسقاطه من نص ماركو بولو. وأنا ما لبثت أن أدركت أنني أسقطت أيضاً بعض النقاط المحذوفة. فليس هناك أي ذكر لأزواج العيدان التي يستخدمها الصينيون بدلاً من الملاعق والشوك، على سبيل المثال، ولكنني أغفلت هذا. ومع ذلك فقد بدأت الآن أشعر بأن ما قيل عما ليس وارداً كان أكثر مما ينبغي. وقبل ظهور الكتاب، عدت ثانية إلى طبعات مخطوطة ومطبوعة مبكرة لكتاب **وصف العالم**، وبدأت أحس بأنه كان يجب علي أن أضاعف تأكيدي إياها، وبأن مثل هذه النصوص والمواد

المكتوبة لا يجوز لها أن تحول دون الاستمتاع الشعبي. وبالفعل فقد انزلقتُ، وأنا أناقش الأشياء المحذوفة، وأعول على طبعات النص الحديثة المرقعة الململمة من حشد من الطبعات المتباينة، إلى ما يشبه المسار الزائف.

انظروا إلى وصف فوجو. إنها فقرة مفتاحية لكلامها المثير عن المانويين (وهم من غلط [ماركو بولو] حين اعتبرهم مسيحيين) في المقام الأول. غير أن هذه الفقرة المفتاحية ترد، للمرة الأولى، في مخطوطة طليطلة العائدة إلى أواسط القرن الخامس عشر الميلادي، والمنسوخة، بالتالي، بعد وفاة ماركو بولو بأكثر من مئة سنة. أما في نسخة نورنبرغ المطبوعة (عام 1477 م) في طبعة فرامبتون الإنجليزية (المطبوعة عام 1579 م) في المخطوطة البودليانية،[1] العائدة إلى حوالي عام (1400 م) في مخطوطة اللهجة البندقانية العائدة لعام (1457 م) (شلُون)[2]، وفي العديد من الطبعات المبكرة الأخرى، فثمة فقرة وحيدة حول فوجو، تصف النهر والتجارة البحرية ولا شيء غيرهما.

وبالمثل، فإن وصف هانغجو في سائر هذه النسخ المبكرة لا يتجاوز الصفحتين ولا يتضمن المادة الواردة في الرسالة التي كَتَبتْها «ملكة منزي» إلى بايان، التي توسع طبعات لاحقة لوصف هانغجو فيصبح عدداً غير قليل من الصفحات.

من المعلوم أن النسخة الأصلية للنص مفقودة. والطبعات المبكرة قصيرة، فمخطوطة البندقية مؤلفة من 39 ورقة، ومخطوطة بودلي (مع رسومها التوضيحية الرائعة) تتألف من 58 ورقة. والظهور المتأخر لبعض «أفضل» المواد لابد له من أن يوحي بأن هذه المواد أضافها نساخ أو ناشرون لاحقون، (مثل رَموزيو) ممن كانوا يتوفرون على المزيد من المواد الصينية التي شعروا بأنهم قادرون على إدخالها بصورة مفيدة. ولو تم الاعتراف بهذه المواد (مع بيان تواريخ إضافتها) لكان ذلك مفيداً دون شك، ولكنها، وهي على حالها، تبقى غير ذات علاقة بماركو بولو أو بنصه الأصلي. فماركو بولو لم

ير ولم يصف المانويين في فوجو، كما لم يأت، شخصياً، على ذكر رسالة ملكة منزي في أية طبعة مبكرة من نصه. وفي غياب المخطوطة الأصلية، من الصعب معرفة ما شاهده أو ما لم يشاهده، ولكن مقارنات حريصة على الدقة لجملة الطبعات الأولى تتكشف عن رواية أقصر بكثير مما يُفترض على الصعيد الشعبي. وإضفاء شرف هذه الإضافات اللاحقة كلها على بولو بالذات ساهم في خلق أسطورة المراقب العظيم التي يتعذر دعمها من منطلق طبعات مبكرة لكتاب **وصف العالم**.

1- Mss. Bodley 264.

2- Sloan 251.

الملاحق

(أ) الأب يوحنا والمغول

بقلم: ديفيد مورغان(*)

مهما كانت الأشياء الأخرى التي جرى تحميل المغول مسئوليتها، صواباً أو غلطاً - وهي كثيرة على امتداد القرون - فإن أحداً لم يقحمهم على أسطورة (الأب يوحنا) أو ربما اللهم إلا في جانب هامشي واحد. وحتى إذا لم تكن هزيمة السلطان السلجوقي سنجار في بادية قطوان عام (1141 م) أساس الأسطورة بقدر ما شكلت «المشجب الذي عُلقت عليه».[1] فإن ما يجدر تذكره هو أن المنتصر في عام (1141 م): يه - لو تا - شي، مؤسس إمبراطورية قره - خيتاي في آسيا الوسطى، كان خيتانياً، من أفراد أسرة لياو الملكية التي طردتها سلالة جين المنشورية قبل بضع سنوات من الصين الشمالية. فالرابط المغولي، كما هو، يكمن في حقيقة «أن الخيتان وجيرانهم، على غموض انتماءاتهم العِرقية، ربما كانوا يتكلمون إما لغة مغولية مبكرة متأثرة بمفردات طنغوزية أو بلغة طونغوزية متأثرة بمفردات مغولية»،[2] وبالتالي فإن هناك نوعاً من العلاقة المغولية الممكنة.

أما المشاركة المغولية الفعلية فقد بدأت في أعوام (1219 - 1223 م) بغزو جنكيزخان لأراضي خوارزم - شاه، أي فيما يعرف الآن باسم آسيا الوسطى، والتي ضمت أفغانستان وإيران، الذي ربما بدا لبعضهم نوعاً من الاستئناف لحملة يه - لو تا - شي وإن على نطاق أوسع بكثير وبنتائج أبعد مدى. فالجيوش الصليبية الغربية المعسكرة بدمياط في مصر عام (1221 م) تلقت أنباء تشي بأن أحد أفراد أسرة (الأب يوحنا) الذي كان قد بات عائداً

إلى ما قبل الطوفان من حيث القدم، وإن لم يكن هو نفسه، ويدعى الملك داود، كان قادماً لإنقاذ أخوته المسيحيين. فأوليفر البادربورني المشارك في هذه الحملة الصليبية والذي كتب عنها تاريخاً يشير إلى «الملك داود الذي يقال إنه ابن (الأب يوحنا)».(3) وثمة تقرير، باللغة العربية عن هذا الاجتياح الآتي من آسيا الوسطى وصل إلى دمياط، وهناك ثلاث ترجمات لاتينية له مختلفة الطول مازالت باقية (وقد حققها ودرسها زارنكه في مؤلفه الشهير عن (الأب يوحنا». ومطران عكا جيمس الفيتري، كتب إلى البابا أونوريوس الثالث رسالة ضمنها ترجمة لاتينية لما رآه بعنوان **مقتطفات من تاريخ داود ملك الهند...**(4) وفي إحدى النسخ اللاتينية الباقية، يعتبر الملك داود الابن الأصغر للملك إسرائيل بن الملك «سركيس» (سيرجيوس؟) بن (الأب يوحنا) بن الملك بولغابوغا، المسيحي. أما في النسخ الأخرى، فهو إما الملك داود ببساطة، أو الملك داود بن (الأب يوحنا) ملك الهند. وقد أشار بِليُوت إلى أن وصول هذا النبأ إلى دمياط أكده مقطع في كتاب **تاريخ بطاركة الإسكندرية** المكتوب بالعربية.(5) وألمح أيضاً إلى أن تقارير مشابهة عن المغول بوصفهم قوة مسيحية، كانت متداولة في أرمينيا أشارت إلى ظهورهم هناك عام (1220 م) مع أن المؤرخ الأرمني كيراكوس بيّن بوضوح تام أن الزعم القائل بأن المغول مسيحيون كان باطلاً. فجنكيزخان هو على ما يبدو التجسيد الواقعي للملك داود غير الموجود، وإن كان احتمال أن الملك داود لم يكن إلا جمعاً بين جنكيزخان من جهة، وعاهل آخر من آسيا الوسطى هو كوجلوك النايماني، من جهة ثانية، وارداً.(6)

والنايمانيون هؤلاء كانوا إحدى قبائل منغوليا، يُفْتَرض أنها تركية، أو كانت تتكلم إحدى اللهجات التركية على أية حال، قاتلها جنكيزخان سنوات طويلة، في معارك الصراع من أجل الهيمنة على منغوليا، ما لبثت أن تكللت بالاعتراف العام بسيادته في المؤتمر (القورُلْتاي) (مجلس الأمراء والأعيان) عام (1206 م). ولكن ابن الحاكم النايماني كوجلوغ، الذي أبى

الخضوع لجنكيزخان، أو أحس بقدر مفرط من الرغبة في النجاة، فر إلى قره ـ خيتاي التي كانت ما تزال تحت حكم سلالة يه ـ لو تا ـ شي حيث مُنح ملاذاً وابنة حاكم قره ـ خيتاي زوجاً له، ولكنه ما لبث أن رد هذا الجميل عام (1211 م) عن طريق الإطاحة بولي نعمته واحتلال عرش قره ـ خيتاي. وثمة أمران يشيان باحتمال التماهي الجزئي لكوجلوغ مع الملك داود. فمملكته الجديدة كانت، في وقت غير بعيد قبل انقلابه، قد حاربت شاه خوارزم علاء الدين محمد حاكم البلاد التي كانت تحت حكم سنجار ذات يوم. صحيح أن شاه خوارزم هو الذي انتصر (بسبب مشكلات قره خيتاي مع كوجلوغ جزئياً) وأزاح القره ـ خيتاي عما وراء النهر وعن مدينتيه العظيمتين سمرقند وبخارى، غير أن صراعاً مع قوة إسلامية رئيسية كان جارياً؛ وبالنسبة إلى الغرب الذي لم يكن بعد قد سمع بالبوذيين أو الطاويين، ناهيك عن الشامانيين، فإن أي عدو للإسلام كان يمكن افتراضه مسيحياً. هذا أولاً. ومن ناحية ثانية، فإن النايمانيين، قوم كوجلوغ، كانوا مسيحيين حقاً على ما يبدو، ولو من أتباع المذهب النسطوري القائم على الهرطقة (على الرغم من احتمال ألا يكون الغرب قد أدرك هذه الحقيقة تماماً).

من الغريب أن كوجلوغ لم يكن، في الحقيقة، ذا موقف مسيحي انطلاقاً من جذوره، على الرغم من أنه كان خصماً لدوداً للإسلام. فقد تخلى عن مسيحيته النسطورية الموروثة واعتنق البوذية، ربما تحت تأثير زوجه الجديدة. ولكن بوذية كوجلوغ كانت، على ما يبدو، من نوعية خاصة مميزة، مما جعله يشعر بأنه ملزم باضطهاد المسلمين وملاحقتهم، بل ودفعهم إلى اعتناق البوذية (أو المسيحية على الأقل في حال عدم النجاح في فرض البوذية). وإمبراطورية قره ـ خيتاي ضمت عدداً كبيراً من المسلمين بين رعاياها: وهؤلاء المسلمون استاؤوا من إغلاق جوامعهم بأمر من الحاكم. ومثل هذا التصرف كان هدية مجّانية للمغول دائمي الحرص على جمع

المعلومات الاستخباراتية الشاملة عن أعدائهم الذين هللوا لسماع الأخبار التي تحدثت عن أن كوجلوغ بدأ يفقد شعبيته. وفي عام (1218 م) تم إرسال جيش صغير تماماً بقيادة جبي أحد قادة جنكيزخان البارزين إلى قلب قره ـ خيتاي. وما إن عبر الحدود حتى بدأ بفتح الجوامع. صحيح أن المبالغة بالثقة في تسامح المغول عموماً لم تكن تتصف بالحكمة، غير أنهم كانوا يلحون دوماً على مسألة التسامح. من الواضح أن العملية لم تنطو على أي قتال ذي شأن. فكوجلوغ الذي تخلى عنه معظم أتباعه هرب ما لبث أن وقع في الأسر فقُتل. وأصبحت قره ـ خيتاي جزءاً من الإمبراطورية المغولية، وبرغبة أهلها إلى هذا الحد أو ذاك، بصورة شبه فريدة.

وبالطبع فإن جنكيزخان لم يكن مسيحياً ولا معتنقاً لأية من العقائد الكونية الكبرى. وإذا كانت له اعتراضات على الإسلام فإنها كانت، شأنها شأن اعتراضات الملكة اليزابيث الأولى على الكاثوليكية، سياسية أكثر منها دينية. غير أنه كان مستفيداً من الافتراض الغربي العام القائم على القول بأن أعداء الإسلام مسيحيون حكماً. وفي التاريخ القومي لشعب امتلك عبر تجربته الخاصة ما يكفي من الأسباب ليعلم أن المغول غير مؤهلين لإبداء انحياز خاص لصف القوى المسيحية، صدى لاحق غريب. فالمؤرخ الجيورجي يقول:

> يقال أيضاً إن هذا الأمير «جنكيزخان» تسلق جبلاً عالياً وشهد تجلي سيد العالم يسوع المسيح الذي علمه العدل، والدين القويم، الطهارة، والأمانة، ورهبة الكذب والسرقة وسائر الرذائل وقال: (إذا اتبعت هذه المبادئ فسأعطيك وقومك كله الأرض كلها؛ هيا اذهب لإخضاع كل ما تستطيعه من البلاد) وبعد أن فتح قاين ذهب إلى خاتاي (شمال الصين) حيث أراد أن يرى داخل إحدى الكنائس. وما إن رأى صورة مخلصنا يسوع المسيح هناك حتى خر ساجداً على الفور وهو يصلي قائلاً: (هذا هو الإنسان الذي

رأيته على جبل التشين، وهذه كانت ملامحه، وهو نفسه الذي علمني كل ما هو صحيح فعله). فبعد امتلائه حباً به امتلك نعمة البركة وظل أميناً على مراعاة النصائح التي قدمها له كلها.(7)

بل هناك أثر لما قد يبدو القصة نفسها في حياة القديس لويس لجوينفيل.(8) فسفراء لويس إلى المغول أواخر أربعينيات القرن الثالث عشر الميلادي ربما التقطوا الحكاية في أسفارهم.

إذا كانت الأنباء الدائرة حول تقدم جنكيزخان (أو الملك داود) ساعدت، كما زُعم، على جعل الصليبيين في دمياط يتخذون قراراً يقضي برفض عرض السلام السخي الذي جاءهم من السلطان الأيوبي الكامل،(9) فإن الملك داود أثبت أنه عديم الجدوى، مثله مثل سلفه المفترض (الأب يوحنا) الذي سبق له أن أخفق في عبور نهر دجله قبل ثمانين سنة. ومهما يكن، فإن جنكيزخان انسحب في عام (1223 م) من الشرق الأوسط ليعود إلى منغوليا، وتوفي هناك في عام (1227 م). وبعد ذلك لم يعاود المغول المساس بالوعي الغربي بقوة حتى بدأت أخبار غزو باتو لروسيا وأوروبا الشرقية في أعوام (1237 - 1241 م) تتوارد. وقد مضى بعض الوقت حتى تمكن العالم المسيحي الغربي من فهم الهجوم الكبير، غير أنه بات واضحاً على الأقل أن هجوماً بهذا المستوى والوحشية على العالم المسيحي ما كان بوسعه أن يكون من فعل ملك مسيحي من الشرق عظيم وودود. فما العمل؟ ففكرة (الأب يوحنا) كانت قد باتت راسخة حتى أصبحت غير قابلة للدحض بوصفها وهماً مضللاً ببساطة، وتعين على الناس أن يبحثوا عن العاهل اللغز في مكان آخر غير شخصية جنكيزخان وأسرته المباشرة - ولكن المغول كانوا قد أصبحوا قوة مهيمنة في آسيا بما يحتم ظهورهم في ثنايا القصة هنا أو هناك.

وفي مؤلفه القياسي كتاب السير ماركو بولو،(10) **علق السير هنري يُول على هذه الظاهرة بدهاء مميز حين قال:**

حين فتحت الغزوات المغولية أبواب آسيا أمام الرحالة الفرنجة، كانت عقول هؤلاء ملأى بـ(الأب يوحنا)؛ وعبثاً بحثوا عن ممثل ملائم، ولكن ذلك لم يكن من طبيعة الأشياء، إلا أنهم أصروا على الاهتداء إلى ممثل ما. وفي الحقيقة، فإنهم عثروا على عدد منهم. من الواضح أنه لم يكن هناك أي أثر بين المسيحيين الشرقيين لمثل هذه الشخصية، غير أن الطلب الملح ما لبث أن تمخض عن نوع من العرض، وشرف التماهي مع (الأب يوحنا) ما لبث، بعد التحليق فوق عدد من الرؤوس، أن استقر أخيراً على رأس ملك القيراتيين.[11]

وكما قال يُول فإن بعض الوقت مضى قبل التوصل إلى قدر من الاتفاق حول هوية (الأب يوحنا). ولكن لابد في هذه النقطة من تقديم شيء عن هذا المرشح الناجح (ولو نجاحاً موقتاً فقط آنذاك) آخر المطاف.

كان طغرل، أو طووريل، خان القيراتيين، وهم شعب تركي كان وطنه في منغوليا الوسطى، بوادي نهر أورخون. والقيراتيون هؤلاء كانوا، على ما يبدو، مسيحيين نسطوريين منذ زمن طويل. فبدليل إشارة موجزة وردت في التاريخ السرياني لابن العبري (كُتب أواخر القرن الثالث عشر) يمكن الافتراض عموماً أننا نستطيع تحديد تاريخ اعتناقهم للمسيحية بدقة تامة والقول بأن العملية تمت في عام (1007 ـ 1008 م).[12] ولكن هناك من ظل يحاجج، وبإقناع، بأن القيراتيين الذين جرى إقحام اسمهم على القصة من قبل ابن العبري ربما لم يكونوا هم بالذات من جرت هدايتهم إلى المسيحية النسطورية، على الرغم من أن جميع الاحتمالات ترجح أن جماعة ذات شأن من الأتراك اعتنقت المذهب المسيحي النسطوري في ذلك التاريخ...[13] ومن أسماء بعض أسلاف طغرل المباشرين، وهي أسماء مسيحية مميزة، يمكن الحكم بأن مما لا شك فيه أن المذهب النسطوري لدى القيراتيين يعود على الأقل إلى عدد من الأجيال السابقة لطغرل.

واعتلاء طغرل للعرش لم يكن سلمياً أو دون معارضة داخل أسرته، وقد اضطرته حركة التمرد في إحدى المراحل إلى التحالف مع الزعيم المغولي يسوغي. وما لبث الحليفان أن تآخيا. وبعد سنوات، كما يقول لنا المصدر المغولي الرئيسي **التاريخ السري للمغول**...[14] ظهر تيموشين بن يسوغي المتوفى (جنكيزخان اللاحق) في معسكر طغرل مزوداً بهدية سخية مناسبة، وادعى لنفسه مكانة الابن، فنشأ تحالف بين القيراتيين والمغول لعب دوراً حاسماً في صعود جنكيزخان إلى مواقع السلطة والنفوذ في منغوليا. وفي إحدى المراحل قاما في الصين الشمالية بصفتهما جنديين تابعين بخدمة إمبراطور الجين الذي كان قد توصل إلى استنتاج يقول بأن تحالفه مع التتر (ألد أعداء جنكيزخان وقتلة أبيه) قد كان أصبح بلا فائدة. والرجلان، كلاهما، حصلا على ألقاب صينية اعترافاً لهما بخدماتهما حتى أصبح طغرل يلقب وانغ (أي «ملك»). وفي أكثر الأحيان يظهر في سائر المصادر الشرقية والغربية تحت صيغ مختلفة لهذا اللقب، مثل وانغ خان، أونغ خان، أونك... الخ

ولكن الزمن كان كفيلاً، مرة أخرى، بأن يصبح طغرل أيضاً عديم الفائدة بالنسبة لجنكيزخان. ومهما يكن، فإن خلافاً ما لبث أن نشب بين الرجلين بتحريض ما (ولا يتعين علينا أن نسلم دون مناقشة برواية **التاريخ السري**، والتي تضع اللوم كله على الطرف القيراتي). وفي عام (1202 - 1203 م) هُزم طغرل على يد المغول وفر غرباً إلى بلاد النايمان، أي قوم كوجلوغ، وقُتل هناك في حادث عابر على يد كشاف نايماني لم يستطع أن يتعرّفه، أو لم يصدق زعمه بأنه أونغ خان العظيم السابق. وهؤلاء القيراتيون سرعان ما أصبحوا طرفاً كبيراً من الأطراف المشكلة لاتحاد جنكيزخان المتسع باطراد؛ كما أن أسرتهم الملكية لم تختف: فالعديد من نسائهم تزوجن رجالاً من الأسرة الملكية المغولية، الأمر الذي أفضى إلى إدامة التقاليد النسطورية ـ بل ربما إلى حفزها وتعزيزها أحياناً ـ على أعلى مستويات الإمبراطورية المغولية.

وهكذا فإن طغرل بدا الأمير المسيحي الأفضل المتوافر في أي من الأوقات والأماكن الملائمة. وهذا لم يعن أنه كان مقنعاً تماماً. صحيح أنه كان على درجة كافية من القوة أيام عزه، ولكنه لم يكن، كعاهل، مضاهياً للأب يوحنا الأصلي الوارد ذكره في خطاب القرن الثاني عشر. ومع أنه كان بالتأكيد مسيحياً، ولو من الهراطقة، فإنه لم يكن وبقدر مواز من التأكيد، راهباً أو رجل دين. غير أن أحداً من المرشحين المحتملين الآخرين لم يكن كذلك أيضاً؛ كان لابد من التخلي، ولو على مضض، من ذلك الجزء من المواصفة الأصلية.

ولكن عملية البحث ما لبثت مع حلول أربعينيات القرن الثالث عشر أن استؤنفت. فالغزو المغولي لأوروبا في (1240 - 1241 م) أحدث صدمة وأثار فيضاً من الأوهام الجامحة التي نستطيع أن نتذوق نكهتها من المواد المحفوظة في الخرونيكا ماجورا لمؤرخ مؤسسة القديس آلبانز: ماتيو بارس. ومما قيل، مثلاً، إن المغول هم أسلاف مجوس العهد الجديد، أسلاف (الملوك الثلاثة) وقد جاؤوا لاسترجاع جثثهم من كاتدرائية كولونيا. من الواضح أن الحصول على معلومات أكثر جدارة بالثقة عن هذا الشعب الرهيب بات أمراً ضرورياً.

وفي مؤتمر ليون لعام (1245 م) بادر البابا إنوسنت الرابع إلى تناول المشكلة بشكل حاسم. ومن بين الرسل الذين أوفدهم شرقاً إلى قلب الأراضي المغولية كان الأكثر شهرة بما لا يقاس، هو الفرنسيسكاني جون البلانو كاربيني، المبعوث البابوي الوحيد الذي وصل إلى منغوليا. وتقريره الذي مازال موجوداً، والذي قرىء ونوقش على نطاق واسع، زود العالم المسيحي بكتلة من المعلومات الذكية والصحيحة بأكثريتها عن المغول، فضلاً عن بعض الإنذارات المرعبة بشأن الخطر الذي كان هؤلاء يمثلونه. ولكن البلانو كاربيني لم يهتم كثيراً بمسألة (الأب يوحنا). فإشارته الوحيدة تروي قصة كيفية قيام جنكيزخان، بعد إلحاق الهزيمة بالأثيوبيين، أهالي

الهند الصغرى، بغزو الهند الكبرى التي تمكن ملكها (الأب يوحنا) من هزيمة جيشه عبر التصدي له بجنود من نحاس على جياد مدججين بنيران إغريقية متفجرة ـ وذلك يبدو شديد الشبه بذكريات قصة أخرى عن غزو الاسكندر الأكبر للهند....[15]

وثمة سفير آخر من سفراء إنوسنت هو آسيلين لم يصل إلى أبعد من البلاد الخاضعة للمغول في الشرق الأوسط. فأحد مرافقيه واسمه سيمون السان كانتيني، كتب حوالي عام (1248 م) كتاباً غنياً بالمعلومات تحت عنوان **تاريخ التتر**. من الواضح أن سيمون هذا كان قد التقط قصة تعرض طغرل للهزيمة على يد جنكيزخان ومقتله اللاحق. ولكن عدو جنكيزخان المهزوم يبقى بنظره الملك داود بن (الأب يوحنا) ملك الهند...[16] إلا أن تطورات إضافية حصلت في الوقت نفسه. ففي نهاية عام (1248 م) استقبل ملك فرنسا لويس التاسع، وهو في قبرص بصدد الإعداد لحملته الصليبية على مصر، سفارة أرسلها القائد المغولي ايلجيغيدي كانت برئاسة اثنين من المسيحيين النسطوريين. أما هدف السفارة وخيبة القديس لويس الكبرى بشأن ما تمخضت عنه فلا يهمنا هنا..[17] فما يبعث على الاهتمام من وجهة نظر (الأب يوحنا) هو الكلام الذي يبدو أن السفراء قالوه للويس مؤكدين له محاسن عَقْد تحالف مع المغول. ومما أرادوا إفهامه أن المسيحية كانت صاعدة: فايلجيغيدي مسيحي ذو باع طويل؛ والخان الأعظم نفسه، غويوك حفيد جنكيزخان، لم يكن ابن إحدى بنات (الأب يوحنا) فقط، بل جرى تعميده حديثاً.

وبالطبع فإن هذا يشير إلى الدور الحاسم الذي دأب النسطوريون في الشرق الأوسط على القيام به في عملية نشر قصص (الأب يوحنا)؛ الأمر الذي بدا بالضرورة في ذلك الوقت دليلاً جيداً على أن الملك الأب أمر واقع. وكما سبق لنا أن رأينا فإن كاتب سيرة القديس لويس: جونفيل، التقط، فيما يخص هذه السفارة، كمية إضافية ذات شأن من

المعلومات عن (الأب يوحنا) بوصفه عدواً مهزوماً لجنكيزخان ومتماهياً بسهولة مع طغرل (ولو مع احتمال موالاة عناصر كوجلوغ له)...[18] وبالفعل فإن الحاكم المغولي، حسب رواية جونفيل لمضمون الرسالة المطالبة بالخضوع التي رد بها الملك الأعظم للتتر (الملكة أرملة غويوغ في الحقيقة) كان حريصاً بالتحديد على التباهي بإلحاق الهزيمة بـ(الأب يوحنا).[19]

أما ندم لويس، الذي يحدثنا عنه جونفيل، بشأن محض التفكير بإرسال سفراء إلى المغول، فقد ساهم دون شك في رفضه إضفاء صفة السفير على الراهب وِلْيَم الرُّبْرُكي الذي سافر مبشراً إلى منغوليا في عام (1253 ـ 1255 م). غير أن رواية وِلْيَم الرُّبْرُكي لقصة أسفاره، التي لم تشتهر خلافاً لحال رواية الكاربيني لأن مخطوطتها ظلت محصورة بإنجلترا، متفوقة على نظيرتها (إذ تخلو، مثلاً، من الحكايات الخرافية الموجودة في رواية الكاربيني) وربما كانت بالفعل، من حيث التفاصيل ودقة الملاحظة، الأبرز بين سائر الروايات الغربية المعاصرة عن الإمبراطورية المغولية. ومع ذلك، فإن وِلْيَم الرُّبْرُكي لم يكن محصناً ضد أشكال اللبس المألوفة التي لها علاقة بـ(الأب يوحنا). ففي روايته، يبدو أننا أمام نوع من الخلط بين النايمانيين والقيراتيين. فوِلْيَم الرُّبْرُكي يحدثنا عن «نسطوري معين»، راعٍ قوي، وحاكم لقوم يعرف باسم النايمانيين... كان النسطوريون يطلقون عليه اسم (الأب يوحنا) وعشرة بالمائة فقط مما قالوه عنه كان صحيحاً[20] ـ تلميحاً إلى ارتياب الرُّبْرُكي العام، وهو ارتياب له ما يسوّغه، بشأن الحكايات النسطورية. و(الأب يوحنا) كان قد اعتلى العرش بعد موت كوير تشان من كراكاتاي ـ من الواضح أنها إشارة إلى قيام كوجلوغ بانتزاع عرش قره ـ خيتاي من الحاكم غورخان.

ويتابع الرُّبْرُكي كلامه ليقول:

> وكان ليوحنا هذا أخ، راع قوي مثله، اسمه أونك... كان سيداً لبلدة صغيرة اسمها قره قُرُم، وحكم شعباً عرف باسم الكريت (ربما القيرات) والمركيت الذين كانوا من المسيحيين النساطرة. ولكن سيدهم هذا ما لبث أن تخلى عن الدين المسيحي وراح يعبد الأصنام.(21)

وتتابع القصة سيرتها لتتحدث عن وفاة (الأب يوحنا) دونما ورثة فخلفه أخوه أونك الذي ما لبث أن دخل في صراع مع جنكيزخان الذي هزمه. فـ(الأب يوحنا) كان إذاً، بالنسبة للرُّبْرُكي، نايمانياً لا قيراتياً؛ غير أن أخاه أونك، من الواضح أنه أونغ خان، الذي خلفه حكم القيراتيين (إضافة إلى الميركيتيين، خلافاً لطغرل بالتأكيد). وثمة أمر غريب آخر ألا وهو القول بأن أونغ خان ارتد عن المسيحية إلى عبادة الأصنام، الأمر الذي يشكل انعكاساً لاعتناق كوجلوغ البوذية. ففي خمسين سنه أو حولها هناك، إذاً، عدد من عناصر تاريخ الإمبراطورية المغولية وأصولها باتت مختلطة ومتداخلة؛ ولكن ليس إلى مدى يحول دون أن تظل قابلة للتعرف عليها بوضوح.

أما بالنسبة إلى ماركو بولو، في أواخر القرن الثالث عشر، فإن (الأب يوحنا) كان متماهياً تماهياً مباشراً مع طغرل. فهو يقول إن التتر، أي المغول، لم يعرفوا معنى السيد الحاكم قبل عهد جنكيزخان. (ولكنهم كانوا يدفعون الضرائب والإتاوات للأمير العظيم الذي كان يعرف بلغتهم باسم أونك كان، الاسم ذاته الذي نطلقه على (الأب يوحنا) هذا الذي يتحدث العالم كله من مملكته العظيمة).(22) وتأتي قصة صراع مألوفة بين أونك وجنكيزخان، صراع أطلقه استياء الثاني من امتناع طغرل عن تقديم ابنته للزواج (يبدو أن ليس هناك أي أساس تاريخي لهذه المسألة في الحكاية). وفي هذه الأثناء يتعرض (الأب يوحنا) للقتل على يد جنكيزخان في ساحة القتال.(23) وفي أماكن أخرى من كتاب ماركو

بولو، ثمة قصة أب يوحنا أخرى،[24] غير ذات علاقة واضحة، تسببت بقدر كبير من التشوش والحيرة. فحسب هذه الرواية، كان (الأب يوحنا) متورطاً في صراع مع الملك الذهبي (ربما إمبراطور الجين في الصين الشمالية لأن كلمة «جين» تعني «ذهبي»). وفي القصة، ينجح (الأب يوحنا) في أسر الملك الذهبي بالحيلة. وقد ظن يُول أن من شأن ذلك أن يكون طبعة مغربلة لقصة إطاحة كوجلوغ الغادرة بالحاكم الخيتاني الأخير لقره ـ خيتاي؛ في حين رأى ليوناردو أولشكي[25] أن من شأن المسألة أن تكون قصة ذات علاقة ببوانغ آخر من التاريخ الصيني (وثمة العديد ممن يمكن الاختيار من بينهم).

وثمة تعقيد آخر أقحمه ماركو بولو حين أدخل في القصة شعباً تركياً آخر من شعوب الإمبراطورية المغولية هو الأنغوت الذين كانوا أهالي إقليم أوردوس الواقعة في الصين الشمالية. وهو يطلق على هذا الشعب اسم تندوك، ويقول إن «ملك الإقليم هو من سلالة (الأب يوحنا) واسمه جورج... ومن عادة هؤلاء الملوك الذين هم من سلالة (الأب يوحنا) أن يتخذوا لأنفسهم، دائماً، أزواجاً، إما من بنات الخان الأعظم أو من أميرات عائلته الأخريات».[26] وهناك بعض الحقيقة في جزء من هذا الكلام. فالأنغوت كانوا قد التحقوا بركب جنكيزخان في (1204 م) حين كان ما يزال بحاجة ماسة إلى مثل هذا الدعم. وفيما بعد، مكافأة لهم على ولائهم، زوّج ابنته لابن حاكم الأونغوت، وعمليات التزاوج بين الأسرتين الحاكمتين المغولية والأونغوتية ظلت مستمرة أمداً طويلاً.[27] ومن شأن هذا أن يكون ما يكمن وراء قصة ماركو بولو (وغيره) عن زواج مقترح بين جنكيزخان وابنة طغرل.

ومن جورج التندوكي ينتقل ماركو بولو إلى ما يطلق عليه جان ريتشارد،[28] وهو على حق، اسم (تمثل صوتي جامح[29]): «هنا أيضاً ما نطلق عليه اسم بلد جوج وماجوج؛ ولكنهم يطلقون عليه أونغ و مونغول،

على اسمي اثنين من الأقوام عاشا في الإقليم قبل هجرة التتر».[30] ولكن من شأن الولوج في مسألة جوج وماجوج أن يؤدي إلى فتح علبة باندورا أخرى إضافية.

وإقحام جورج الأونغوتي على قصة (الأب يوحنا) لم ينفرد به ماركو بولو. فقد كان جورج هذا الأشهر بما لا يقاس بين الذين اهتدوا على يد جون المونتكورفينو الذي أرسله البابا مطراناً تبشيرياً لخانبالق، أي بكين، عاصمة الصين المغولية. ففي رسالة مكتوبة عام (1305 م) يتحدث عن نسطوري اسمه جورج «هَدَيْتُه إلى حقيقة العقيدة الكاثوليكية الصحيحة... وقد أدخل قسماً كبيراً من قومه في العقيدة الكاثوليكية الصحيحة، وبنى كنيسة رائعة بسخاء ملكي تكريماً للرب والثالوث المقدس وسيدنا البابا، وأطلق عليها اسم 'الكنيسة الرومانية' وفقاً لاقتراحي».[31] وجورج هذا كان قد توفي في (1298 م) وقام أخوته منذ ذلك التاريخ بإعادة الجميع إلى المذهب النسطوري. ثمة قدر ذو شأن من الأدلة الأثرية التي تشهد على مدى قوة العقيدة النسطورية بين أونغوت تندوك، (أضف إلى ذلك أن الذرية الحديثة لمسيحيي الأونغوت تم اكتشافها عام (1933 م) في قبيلة إيركوت من مغول الأوردوس من قِبَل المبشر البلجيكي أنطوان موستايرت).[32] ومثله مثل ماركو بولو، يقول المطران جون إن جورج «كان من عائلة ذلك الملك العظيم الذي كان يعرف باسم يوحنا ملك الهند»؛ و«لأنه كان يقوم بأعمال ثانوية ويخدم في قداسي مرتدياً الثياب المقدسة»،[33] فلربما كان العضوَ الأول الوحيد من عائلة (الأب يوحنا) الذي يمكن اكتشافه في آسيا بوصفه مؤهلاً للمطالبة بلقب «الأب».

مازال (الأب يوحنا) الآسيوي الشرقي يظهر بين الحين والآخر ونحن نتوغل في القرن الرابع عشر ـ كما في قصة أسفار أُدُرِك البوردينوني الذي عاد إلى أوروبا عام (1330 م) مثلاً. أما جورج التوندوكي، ذلك الكاثوليكي الشاغل لمراتب ثانوية، فقد يكون خاتمة مناسبة للأب يوحنا

الآسيوي الذي شكل، بنظر العالم المسيحي، جزءاً من تاريخ الإمبراطورية المغولية. فمستقبل الأب، فضلاً عن جزء من ماضيه ربما، كان كامناً في أثيوبيا.

---

* Morgan, D. Prester John and the Mongols, in *Prester John, the Mongols and the Ten Lost Tribes*, pp. 159-170 / edited by C. F. Beckingham and Bernard Hamilton. Ashgate Publishing Limited, 1996.

1- Beckingham, C.F., *The Achievements of Prester John*, pp.5, Essay 1 of this volume.

2- Twitchett, D.C. and Tietze, K.-P. (1994), 'The Liao', in H. Franke and D.C. Twitchett (eds), *The Cambridge History of China*, vol. 6, Alien Regimes and Border States, 907-1368, Cambridge University Press, Cambridge, pp. 45-6.

3- Oliver of Paderborn, *Historia Damiatina*, cap. 55, Hoogeweg, 0. ed. (1894), *Die Schriften des kölner Domscholasters, säpteren Bischofs von Paderborn und Kardinal-Bischofs von s. Sabina Oliverus, Bibliothek des Litterarischen Vereins in Stuttgart*, CCII, Tbingen, p. 258; translation by Gavigan, J.J. (1948), Oliver of Paderborn, *The Capture of Damietta*, University of Pennsylvania Press, Philadelphia, p. 71.

4- James of Vitry (1960), *Lettres de Jacques de Vitry*, ed. R.B.C. Huygens, Leiden, p. 141.

5- Pelliot, P. (1959), *Notes on Marco Polo*, vol. 1, Adrien-Maisonneuve, Paris, p. 304.

6- The standard discussion of Kñchlüg is in Barthold, W. (1968), *Turkestan down to the Mongol Invasion*, 3rd. ed., Luzac, London, chs. 3 and 4. See also Ratchnevsky, P. (1991), *Genghis Khan: his Life and Legacy*, tr. and ed. T.N. Haining, Blackwell, Oxford; and Allsen, T.T. (1994), 'The rise. of the Mongolian empire and Mongolian rule in north China', in *The Cambridge History of China*, vol. 6, op. cit., ch. 4. There is a very interesting discussion of this and other aspects of Prester John in de Rachewiltz, I. (1972a), *Prester John and Europe's Discovery of East Asia*, Australian National University Press, Canberra.

7- Brosset, M.F. (1849), *Histoire de la Géorgie*, vol. 1, St. Petersburg, p. 490. I am indebted to Dr. Isabel Miller for the use of her draft translation, from which I quote.

8- Joinville, Jean, Sire de (1868), *Histoire de Saint Louis*, 481-6, ed. M. Natalis de Wailly, Jules Renouard, Paris, pp. 171-3; translation by Hague, R. (1955), John of Joinville, *The Life of St. Louis*, Sheed and Ward, London, pp. 146-7.

9- Powell, J. M. (1986), *Anatomy of a Crusade 1213-1221*, University of Pennsylvania Press, Philadelphia, pp. 178-9.

10- *The Book of Ser Marco Polo.*

11- Yule, H. and Cordier, H. (1903), *The Book of Ser Marco Polo the Venetian*, 3rd. ed., John Murray, London, vol. 1, p. 235.

12- Bar Hebraeus (1932), *The Chronology of Gregory Abu'l Faraj... commonly known as Bar Hebraeus*, tr. E.A.W. Budge, Oxford University Press, London, vol. 1, p. 184.

13- Hunter, Erica C.D. (1989/91), 'The conversion of the Kerait to Christianity in A.D. 1007', *Zentralasiatische Studien*, vol. 22, pp. 142-63.

14- De Rachewiltz, I. (1972b), *Index to the Secret History of the Mongols*, Indiana University, Bloomington, provides a good edition of the (romanised) text of the *Secret History*. The best English translation, with full and illuminating annotation, is de Rachewiltz, I. (1971-86), The Secret History of the Mongols, *Papers in Far Eastern History*, vols. 4-33. A more easily accessible version is Orion, U. (1990), *The History and the Life of Chinggis Khan*, E.J. Brill, Leiden.

15- John of Piano Carpini, *Ystoria Mongalorum*, tr. from Dawson, C. (1955), *The Mongol Mission*, Sheed and Ward, London, pp. 22-3. The standard edition of the Latin texts of the travel accounts and letters of the Franciscans who ventured into the Mongol Empire (notably Carpini, Rubruck, Odoric and John of Montecorvino) is van -den Wyngaert, A., ed. (1929), *Sinica Franciscana*, vol. 1, Collegium S. Bonaventurae, Quaracchi-Florence. The passage referred to here is on p. 59. A more recent and in some respects better edition of Carpini, by E. Menestò, is in Daffin, P. et al., eds. (1989), Giovanni di Pian di Carpini, *Storia dei Mongoli*, Centro Italiano di Studi sull'alto Medioevo, Spoleto.

16- Simon de Saint-Quentin (1965), *Histoire des Tartares*, ed. J. Richard, Paul Geuthner, Paris, pp. 27-8.

17- On this see William of Rubruck (1990), *The Mission of Friar William of Rubruck: his Journey to the Court of the Great Khan Möngke 1253-1255*, tr. P. Jackson, ed. P. Jackson with D. 0. Morgan, Hakluyt Society, London, Introduction, pp. 32-9.

18- Joinville (1868), 471-92, pp. 168-75; tr. Hague (1955), pp. 144-9.

19- Joinville (1868), 492, p. 175; tr. Hague (1955), p. 149.

20- Rubruck, ed. Wyngaert (1929), p. 206; tr. Jackson (1990), p. 122.

21- Rubruck, ed. Wyngaert (1929), p. 207; tr. Jackson (1990), p. 123.

22- Yule and Cordier (1903), vol. 1, p. 226.

23- Ibid., pp. 238-45.

24- Ibid., vol. 2, pp. 17-22.

25- Olschki, L. (1960), *Marco Polo's Asia*, University of California Press, Berkeley and Los Angeles, p. 396.

26- Yule and Cordier (1903), vol. 1, p. 284.

27- De Rachewiltz, 1. (1971), *Papal Envoys to the Great Khans*, Faber and Faber, London, p. 52.

28- Richard, J. (1957), "L'extrême-orient légendaire au moyen âge: Roi David et Prêtre Jean", *Annales d'Ethiopie*, vol. 2, p. 236.

29- Une audacieuse assimilakien phonetique.

30- Yule and Cordier (1903), vol. 1, p. 285.

31- Ed. Wyngaert (1929), p. 348; tr. Dawson (1955), pp. 225-6.

32- De Rachewiltz (1971), p. 166.

33- Ed. Wyngaert (1929), p. 348; tr. Dawson (1955), p. 225.

(ب) ماركو بولو في الصين؟

مشكلات مع الأدلة الداخلية

جون و. هِيغَر[*]

منذ الأيام الأولى لعلوم الشرق[1] الأوربية تم إشباع عشرات البدائل التي تزعم الانتماء لمغامرة ماركو بولو في آسيا بين عامي (1271 و 1295 م) درساً وتمحيصاً. وعمليات التنقيح والتهذيب ظلت صعبة وتجريبية جراء وجود اختلافات ملحوظة بين الطبعات المتوفرة واستمرار غياب أي نص أصلي أو حتى قريب من المعاصرة. والحسم بثقة حول ما إذا كان النص «الأصلي» قصيراً مثل المخطوطة الفرنسية الأقدم المعروفة باسم (إفّ[2])[3] ونقحه النساخون والمحررون لاحقاً، أو على درجة كافية من الطول حتى يشتمل على الفقرات الفريدة الواردة في الطبعات اللاحقة المعروفة باسم (آر[4])[5] و(زِدّ[6])[7] أمر مازال متعذراً. كما أننا لا نستطيع الفصل بين جملة الروايات الشفوية والكتابية وصولاً إلى إنصاف كل من ماركو بولو وروستيتشيللو إنصافا كاملاً بإعادة ما يخصّ كل منهما إليه. فكتابة ماركو بولو أسماء الأعلام والأماكن الآسيوية انطوت على شبكة من المشكلات الأساسية، وظلت شبه مسيطرة على اهتمام بوتيه، ويُول، وتشارينيون وبليئوت. وعملية المطابقة بين كتابات ماركو بولو وأماكن نعرفها بأسماء أخرى ليست، أساساً، إلا مسألة تثليث بين معلومات لغوية وجغرافية، ولكنها منطوية بالضرورة على صحة المعلومات الوصفية في النص البولوي. وفيما عدا عدد قليل من الحلول الوسط غير اليسيرة وبعض المشكلات

المستعصية حقاً، فإن عملية المطابقة باتت الآن متقدمة أشواطاً، والدقة العامة، إن لم تكن المحدد، لحالات وصف ماركو بولو، أصبحت مؤكدة في هذه الأثناء. وباستثناء عدد قليل من القصص الطائشة، فإن معلومات ماركو بولو وجغرافيته البشرية - عن العادات، والمحاصيل، والموارد الطبيعية، والحيوانات، والنباتات، وهندسة العمارة، تطابق بدقة ما نعرفه الآن عن آسيا العصر الوسيط من مصادر أخرى. ومع ذلك فقد بقي أمر التماس أية روابط مباشرة بين ماركو بولو نفسه وتاريخ الأشخاص والأحداث القابل للاختبار بصورة مستقلة في آسيا العصر الوسيط مستحيلاً. فندرة التواريخ المحددة في المواد المجمعة على امتداد ربع قرن من الزمان تضافرت مع كل من الاختلاف الكبير بين طبعات النص والغياب الصارخ لأي تأييد من مراجع آسيوية، لتزيد هذه المسألة تعقيداً وتشويشاً.

بات الآن مقبولاً على نطاق واسع أن ماركو بولو لم يزر، فعلاً، عدداً كبيراً من المواقع المحددة الموصوفة في «كتابه». ولعل أفضل الأعمال النقدية لأدب رحلات ماركو بولو هو ما كتبه يليوت الذي نقح كتابات بنزر وبول وتجاوزها، ولكن أسئلة كثيرة بقيت بلا أجوبة.[8] فماركو بولو نفسه (أوروستيتشيللو) أعلن في بداية **وصف العالم** أنه أراد أن يعيد سرد قصة 'جميع العجائب الكبرى المرئية أو التي سُمع عنها على أنها صحيحة) ولكن النص يكاد يخلو من الإشارات الدالة على ما تمت روايته من جهة، وما جرى محض السماع عنه من جهة ثانية، ناهيك عن عدم الإجابة عن سؤالي: أين؟ وكيف؟. وأولشكي[9] استنتج من أدلة مستقلة أن ماركو بولو لم يزر بغداد أو الموصل، وربما لم ير قط كلا من باغان (في بورما[10]) سوقطرة (في بحر العرب) أو الحبشة. والأدلة الداخلية تجعله متشككاً بشأن عمق شبه القارة الهندية، وجاوة، والمدن المنفردة في الصين الوسطى والجنوبية. أما بنزر وفرَنكِه، مع باحثين آخرين، فقد علقوا على النواقص والاسقاطات الغريبة في وصف ماركو بولو للصين. فالشاي الذي كان

شائعاً هناك، وإن لم يصبح معروفاً في أوروبا حتى عام (1517 م) ليس مذكوراً، كما لا يرد أي ذكر لنظام الكتابة الصيني، وهو النظام الذي تؤكد عشرات المخطوطات المعاصرة طغيانَه على الحياة الحضرية الصينية. ومع ذلك، فإن من الصحيح عدم اعتبار الصمت في الدراسات المتعلقة بالعصر الوسيط (كما قال مارك بلوخ في سياق آخر) برهاناً سلبياً. وهذا صحيح مرتين في هذه الحالة حيث ليس ثمة أي نص أصلي، وحيث أن الأصل الافتراضي صنعته يد طرف ثان.

وبالعكس فإن نتف أدلة تبدو، أو بدت ذات يوم، جامعة بصورة مباشرة بين ماركو بولو وتاريخ الصين في عهد يوآن ليست، بوضوح، قابلة للتأييد. فزعم ماركو بولو بأنه، مع أبيه وعمه، كان مسؤولاً عن بناء المراجم التي ساعدت المغول في حصار مدنية هسيانغ ـ يَنغ على نهر هان بين عامي (1268 و 1273 م) لا يتفق مع التاريخ المفترض لوصولهم إلى بلاط قوبيلاي،[11] أو مع المصادر الصينية التي تسمي المهندسين باسمين إسلاميين صريحين هما: علاء الدين وإسماعيل. وكذلك، فإن زعم ماركو بولو أنه «حكم» مدينه يَنْغْجُو مدة ثلاث سنوات، بأمر من الخان الأعظم، مبعث للشك في أفضل الأحوال. فأربعة طبعات رئيسية من رواية ماركو بولو تحذف هذا الزعم كلياً؛ ووصف يَنْغْجُو مبتسر جداً، وذلك ينفي كونه مستمداً من إقامة دامت ثلاث سنوات؛ والمصادر الصينية لا تقول حرفاً واحداً عن وجود أي (حاكم) أو محافظ أجنبي في الربع الأخير من القرن الثالث عشر.

انطلاقاً من نمط بختي درج على الحدّ من تماسك أدب رحلات ماركو بولو (وإن لم يفعل الشيء نفسه بالنسبة لصحة معلوماته) قد لا نكون بعيدين عن الصواب كثيراً إذا قلنا، (كما فعل هربرت فْرَنكِه منذ عشر سنوات) إن ماركو بولو لم يزر الصين على الإطلاق. غير أن فْرَنكِه تابع كلامه ليقول إن «علينا منح ماركو بولو فرصة الإفادة من الشك فنفترض أنه

كان هناك آخر المطاف، حتى يتم الاهتداء إلى برهان قاطع يثبت أن كتاب ماركو بولو **وصف العالم** أخذت فصوله المتعلقة بالصين من مصدر آخر، ربما فارسي».[12] غير أن المصدر الفارسي المفترض ليس هو الجواب الممكن الوحيد. فالنص نفسه، بسائر مشكلاته النّسبية وطبعاته التي تناهز المئة والعشرين، مازال قابلاً للغوص فيه بحثاً عن بعض الأدلة الداخلية القادرة على الإيحاء.

لعل الجانب الأكثر إحباطاً في الفقرات الوصفية عن الصين الوسطى والجنوبية (ص: 105 ـ 157) بالنسبة لمؤرخ الصين هو أن هذه الفقرات ذات طابع نمطي مقولب، باهتة الألوان ومختصرة في تفاصيلها الوصفية. انظروا، مثلاً، إلى وصف سُوجُو على الصفحة 151 حيث يقال لنا إنها «مدينة بالغة النبل وعظيمة»، وإن أهلها «وثنيون»، و «خاضعون لحكم الخان الأعظم»، وإن «لديهم نقوداً ورقية وحريراً بكميات كبيرة... يعيشون على الحرف»، وهناك «تجار عظماء ومواطنون عظيمون جداً». ومن ثم «هناك 6000 جسر حجري بالتمام»؛ والراوند والزنجبيل ينموان في الجبال، والزنجبيل بخس الثمن حتى يمكن شراء أربعين (ستين/ ثمانين) رطلاً (النصوص تختلف حول الأرقام) مقابل غروطة[13] بندقانية واحدة. ولسُوجُو ست عشرة «خمس عشرة»، اثنتي عشرة «مدينة هامة كبيرة ذات تجارة عظيمة وصناعة عظيمة تحت حكمها». ثم يقال «واسم هذه المدينة المعروف بسُوجُو يعني بالفرنسية مدينة أرضية، أما اسم مدينة أخرى: كينساي التي هي قريبة من هنا، فتعني مدينة سماوية». وبعد ذلك تفاجئنا عبارة «الآن سنغادر سُوجُو»، وينتهي الوصف. وما يقوله ماركو بولو صحيح عموماً، بطبيعة الحال، ولكن بداية الوصف نمطية مقولبة كلياً: وثنيون، خاضعون لحكم الخان، يستخدمون النقد الورقي ويعيشون على التجارة والحرف.

والشيء نفسه تماماً يقال عن أية مدينة في كاتاي (الصين الشمالية والوسطى في قاموس ماركو بولو) وماجي (الشنغ الجنوبي السابق). وما يميز

سُوجُو هو الجسور، والراوند، والزنجبيل بخس الثمن، ونوع من العلاقة بكينساي (هانغجو) القريبة. ومع ذلك فليس هناك صورة بصرية واحدة تربط بين الملاحِظ والملاحَظ. ويقال إن الراوند ينبت في جبال «المدينة»، ولكن لا شيء يشي بأن ماركو بولو رأى هذا النبات وهو ينمو. وبالفعل فإن «الجبال» بعيدة بعض الشيء عن المدينة، إذا استثنينا عدداً من التلال التي كانت أيام سُنغ ويوآن مغطاة بالمعابد (الباغودات) والأبراج. أما الزنجبيل فيجري وصفه من حيث قيمته، ولكن لاشيء آخر، يشير إلى أن ماركو بولو رآه في السوق. والتلميح العابر إلى الجسور يضطرنا إلى استنتاج يقول بوجود قنوات، كانت وما زالت، سمة طاغية من سمات تضاريسية سُوجُو. وليس هناك أي دليل مجازي يشير إلى أن ماركو بولو نفسه رأى جسراً أو قناة بالفعل. ويقول النص إن «فلاسفة وأطباء طبيعيين عِظام» سكنوا سُوجُو، جنباً إلى جنب مع زحمة التجار والحرفيين دائمي الحضور. ومن المفترض أن الفلاسفة باحثين وموظفين كانوا شديدي الولع بسُوجُو خلال عهد الإمبراطورية اللاحقة. غير أن شيئاً في النص لا يوحي بأن ماركو بولو رأى أين وكيف كان هؤلاء الباحثون يعيشون في سُوجُو: محاطين بحدائق غنية لها تصاميم شبيهة بالمشاهد الطبيعية. وأخيراً فإن تفسير معنى اسمي سُوجُو وهانغجو يشكل دليلاً قوياً يؤيد فكرة القول بتحصيل المعلومات من طرف ثان أو ثالث. وترجمة ماركو بولو غير صحيحة لأن سُوجُو لا تعني (مدينة أرضية). ولكن الغلط يبدو ناجماً عن بيت الشعر الصيني المعروف الذي يقول: في السماء ثمة صالة سماوية؛ وعلى الأرض هناك سُوجُو وهانغجو. ولكن ماركو بولو بالغ في التحريف بما ينفي أنه سمعه مباشرة من مواطن صيني، غير أن احتمال كون هذا الغلط ناتجاً عن عملية انتقال غير مباشرة لبيت الشعر أمر يسهل تصوره.

والمشكلة مع سُوجُو ـ وفق ذكر ماركو بولو ـ ليست، أساساً، محض حالات صمت غير قابلة للتفسير مفروضة عنوة على معلومات صحيحة؛

لعلها صعوبة فهم كيف استطاع أن يرى فعلاً ما يسجله، دون أن يقدم أي تفسير لما يربط بين الأجزاء. لا يكفي الاستنتاج مع أولشكي أن ماركو بولو لم يكن يحاول أن يروي قصة أسفاره بل كان يريد أن يكتب، أو قد كتب، «بحثاً في جغرافيا تجريبية» حيث يلعب الوصف النمطي المقولب دوراً علمياً إيجابياً. فالأجزاء الأخرى من رواية ماركو بولو تنكشف، آخر المطاف، عن قدر أكبر بكثير من حيوية الصورة الوصفية، والمزيد من التفاصيل مع بضع علامات مجازية منطوية على الحضور المادي والملاحظة المباشرة على الأقل.

فالفقرات من 76 إلى 104، الآتية مباشرة قبل نظيرتها الدائرة حول الصين الوسطى والشمالية، تروي قصة قوبيلاي وتصف منطقة ممتدة من البطاح المغولية إلى سهول الصين الشمالية. والوصف الآسر والنابض بالحياة لقوبيلاي نفسه، لقصوره في كايدو (شَنغ ـ تو ـ كآي ـ بِنغ فو) وكامبالُق (خانباليق = بكين) ولرحلات الصيد، وللأعياد السنوية المغولية يتناقض تناقضاً صارخاً مع الصور الباهتة والفخفخة الفارغة اللتين تسمان الصفحات من 105 إلى 157 الدائرة حول الصين الجنوبية والوسطى. فعن قوبيلاي يقال لنا، فيما يقال، إنه: «ذو قامة ملائمة وجيدة» وإن وجهه أبيض «متورد قليلاً مثل لون وردة جميلة، وذلك يجعله يبدو شديد الجاذبية، وعيناه سوداوان جميلتان، والأنف كامل الوصف مستقر في المكان المناسب» ـ ص 82. أما الصفحة 89 فتصف عيد رأس السنة على نحو «الخان وجميع أفراد رعيته في ثياب بيضاء، هدايا متبادلة فيما بينهم وأخرى تُقدم للخان، هدايا من الفضة واللؤلؤ والأقمشة البيضاء، بارونات الخان وفرسانه يعانق بعضهم بعضاً ويتبادلون التحيات وهم يتبادلون الهدايا، جمال وجياد بيضاء مقدمة إلى الخان ـ «إذا لم تكن بيضاء بالكامل فيغلب عليها اللون الأبيض على الأقل، وفي تلك البلاد عدد كبير جداً من الجياد البيضاء»؛ موكب لفيلة الخان وجماله «مغطاة بأقمشة بيضاء جميلة موشاة بإتقان وسخاء بالذهب

والحرير، وبالعديد من رسوم الحيوانات الأخرى المطرزة كالطيور والأسود». وفي صباح يوم الاحتفال «جميع الملوك والأمراء وجميع الدوقات والماركيزات، وجميع الكونتات والبارونات والفرسان والمنجمين والفلاسفة والأطباء والبازدرانات مع العديد من موظفي الملك الآخرين مثل قادة الجيش وحكام الأقاليم يفدون إلى الصالة الكبرى ليمثلوا أمام السيد، ومن لا ينجحون جراء الازدحام، في تحقيق ذلك، يقفون خارج القصر في الصالات الجانبية بما يمكن السيد الأعظم المتربع على العرش من رؤيتهم أيضاً.» وبعد ذلك يقوم النص بوصف مراسم الجلوس وكيف «أن عجوزاً حكيماً عظيماً يستطيع المرء أن يشبهه بمطران عظيم يقف في الوسط» ويرتل نشيد العيد الطقسي. والاحتفال موصوف خطوة خطوة خلال العيد نفسه وصولاً إلى «عازفي الموسيقا والحواة والمهرجين» القادمين لإمتاع البلاط لدى إعداد الوليمة.

وثمة وصف واف لرحلات صيد الخان. فالنص في صفحته الثالثة والتسعين يقول «يبقى السيد وباروناته في وسط السهل الكبير حيث يتم الصيد. فهم يشكلون نسقاً طويلاً يخترق عرض الحقول على امتداد يزيد عن مسيرة يوم في البلاد». وبهذه الصورة المنظمة «يبدؤون بالتقدم والاقتراب أحدهم من الآخر متوجهين جميعاً نحو السيد، متابعين الصيد ومطلقين الكلاب التي بحوزتهم على الوحوش البرية... يا له من مشهد جميل وممتع بالنسبة لأولئك الذين تبهجهم عمليات القنص هذه أن يشاهدوا المطاردة وأساليب تلك الكلاب... المتعقبة للدببة والخنازير والظباء والأيائل، وغيرها من الحيوانات، يحاصرونها من هذه الجهة وتلك... والخان الأعظم يغمره فرح عظيم وهو يرى ذلك». وفي الصفحة 94، يخرج الخان إلى الصيد بالصقور، مستلقياً في هودج محمول على ظهر فيل «لأن الخان يعاني النقرس». وثمة بارونات ونساء على ظهور الجياد من حول الخان يوفرون له التسلية حتى تظهر في الأفق فريسةٌ مناسبة. ولحظة ظهورها

يسارع البازدرانات المرافقون «إلى الصراخ مباشرة قائلين للخان: سيدي، إن سرب البجع يمر، فيبادر السيد الأعظم إلى إصدار الأمر القاضي بإزاحة سقف الهودج وإطلاق البزاة التي يحددها لمطاردة طيور البجع. وفي الغالب فإن تلك البزاة تنقض على طيور البجع وتجهز عليها أمامه بعد معارك تدوم فترات طويلة من الزمن. والسيد الأعظم يراقب ذلك كله على الدوام مستلقياً على أريكته، مما يشكل متعة عظيمة له».

وما يشكل تناقضاً مع المادة الوصفية التي تتناول الصين الجنوبية ليس محض وفرة التفاصيل في هذه الفقرات فقط، بل الصور الوصفية النابضة بالحياة. فالاستخدام المتكرر للخطاب غير المباشر، على عدم إيحائه بالثقة، يميل إلى تعزيز هذا التأثير، مثله مثل إضفاء المنظور المادي على الأشياء والأحداث الموصوفة ـ كيف يرى الخان وهو على عرشه، الجمهور المحتشد احتفالاً بالسنة الجديدة، أو كيف يزيح سقف هودجه ليحدق إلى الأعلى حيث البزاة وطيور البجع متشابكة في معارك جوية. وبين الحين والآخر، فإن ماركو بولو يوحي حتى بأنه يسعى جاهداً للاهتداء إلى الكلمات القادرة على تقديم صورة معينة، ثم يستخدم كلمتين أو ثلاثاً، لا واحدة محددة، بل كلمات متقاربة في تداخل: جميع الملوك والأمراء والدوقات والماركيزات الخ... أو «أن عجوزاً حكيماً عظيماً يستطيع المرء أن يشبهه بمطران عظيم».

وكذلك فإن الصفحات من 76 إلى 104 موشاة بنوعين من المؤشرات البلاغية، ليسا حاسمين بحد ذاتهما، ولكنهما يكادان أن يؤسسا لعلاقة ممكنة بين الملاحِظ والملاحَظ. وأول هذين المؤشرين متمثل بكلمات فارسية أو تركية ـ مغولية ترد في النص على أنها بدائل عامية شائعة لتخمينات فرانكو ـ إيطالية تقريبية. وأمثلة ذلك هي تُسكاوُر بولو المأخوذة من طُسقوَال التركية التي تعني حارس الطريق؛ بُولارقوتشي بولو، المشتقة من بُولاريوتشي المغولية التي تعني (المسؤول عن الاهتمام بالممتلكات الضائعة؛ تشوينكي،

المستوحاة من قويوقتشي المغولية التي تعني (عدائين)؛ وكوسيتان، المأخوذة من قاسيتان المغولية التي تعني (الحرس). والترجمات الصوتية العائدة لماركو بولو متميزة بانتظامها (وإن قام بِليُوت بإعادة بناء ترجمات «أصيلة» افتراضية لإكسابها قدراً أكبر من الانتظام والاطراد) وصحيحة، عموماً، في دلالتها. أما العامية الصينية فلا تكاد ترد في الصفحات من 105 إلى 157 إلا كأسماء أماكن غالباً ما تعكس صياغتها تحويلاً سابقاً عبر الفارسية أو التركية ـ المغولية. وكل من بِليُوت وأولشكي يرى في هذا المؤشر أن ماركو بولو كان يعرف الفارسية والمغولية دون الصينية، وهذا صحيح بصورة شبه مؤكدة، ولكن المؤشر يمكن توسيع مداه أكثر فأكثر؛ فقد يكون ماركو بولو قد رأى الصين وسمع عنها عبر عيون وآذان آلطائية؛ ومن شبه المؤكد أنه رأى منغوليا رؤية مباشرة.

أما النوع الثاني من المؤشرات فنجده متمثلاً بفقرات لا يكون فيها الوصف باهتاً ومجرداً، مهما بلغت دقته، بل كما كان يمكن للملاحظ أن يراه. والشكل الرباعي المستطيل للمدينة التي بناها قوبيلاي في بكين (وفق النموذج الصيني الشمالي كما هو واضح) يقدم مثالاً جيداً. فبعد القول أولاً إن المدينة «مربعة تماماً» ـ في وصف تحليلي دقيق ـ يتابع النص كلامه ليقول «الشوارع الرئيسية التي تخترق المدينة من طرف إلى آخر مستقيمة تماماً كحبل مشدود، وهي بالغة الاستقامة والاتساع بحيث يستطيع أي شخص أن يتسلق السور عند إحدى البوابات في أحد الأطراف وينظر باستقامة فيرى الطرف المقابل». أو يقال، كما في الصفحة 95 «يمكنك أن تعرف أن عدد الضواحي يساوي عدد البوابات «في بكين»، وهي كبيرة جداً، حتى أن ضاحية كل بوابة تلامس ضواحي بوابات الطرفين، وتمتد مسافة تصل إلى ثلاثة أو أربعة أميال؛ وما من أحد يستطيع معرفة العدد «عدد السكان»». وكثيراً ما يورد ماركو بولو، في الفقرات الدائرة حول الصين، رقماً، نجده مختلفاً بين طبعة وأخرى، لا يحتمل أن يكون نتاج ملاحظة مباشرة بل هو

محض كلام مسموع؛ فهو هنا يورد ما كان يمكن أن يلاحظ فعلاً ويعترف بأنه يجهل الأرقام الإجمالية التحليلية الدقيقة.

وهذا السعي لإقامة نوع من الارتباط بين الملاحَظ والملاحِظ ذو علاقة بمسألة تدجين ماركو بولو. فإذا كانت الصفحات من 105 إلى 157 هي فعلاً نتاج أسفار تمت بالفعل وملاحظات جرت حقاً، فلابد من أن تتوافر إمكانية إعادة اكتشاف الصفة التي سافر بها ماركو بولو، والهدف الذي كانت أسفاره ترمي إليه، وطبيعة الحاشية التي كانت ترافقه. والتفسير المعلن (في الصفحة: 16) هو أن قوبيلاي تأثر كثيراً بإحاطة ماركو بولو بعادات المغول ولغتهم وآدابهم ورمايتهم، كما بحكمته وحصافته وشجاعته، حتى «أوفده رسولاً لأداء بعض المهمات الملكية الهامة» إلى كاراغيان (يون ـ نان) حيث حقق نجاحاً كبيراً «فاق ما اعتاد السفراء الآخرون الذين كانوا قد أوفدوا من قبل أن يحققوه»، كما جاء في النص (طبعة لاتينية متأخرة «في بي»[14])[15] بما دفع قوبيلاي بعد ذلك إلى «جعله مشرفاً على سفاراته كلها». وهكذا، فإن ماركو بولو ظل طوال السنوات السبع عشرة التالية يذهب «إلى هنا وهناك عبر مختلف البلدان حيثما كان السيد يرسله...»، وبالتالي فقد كان (ماركو بولو) يعود إلى (سيده) بالأخبار من جميع الأطراف» ـ ص 17. ولكن هذا التفسير يبقى للأسف غير كاف على الصعيدين المنطقي والتاريخي كليهما. فمنطقياً، يصعب تصديق الزعم القائل بأن فتى بندقانياً في الثانية والعشرين من عمره وفي رحلته الأولى إلى خارج أوروبا، تم اختياره، بفضل الموهبة وحدة الذكاء فقط، للحلول محل جميع (السفراء) في أداء أعمال قوبيلاي في شرق وجنوب شرق آسيا. فبلاط قوبيلاي كان، في التحليل الأخير، غنياً بالموارد البشرية ـ ثمة صينيون مثل ليو بينغ ـ تشونغ وهسو هَنغ، مئات من الخيتان الباقين بعد الجين، أشخاص، من آسيا الوسطى، متعدّدو اللغات مثل الأتراك الأويغوريين ـ كما أن قوبيلاي نفسه كان رجلاً متصيّناً بعيداً نسبياً عن الحياة البدوية، استفاد

كثيراً من تجارب الجين والسُنغ لدى إقامة نظام إداري متطور في شرق آسيا. أضف إلى ذلك أن الصفحات من 105 إلى 157 من النص لا تتضمن إلا القليل مما يؤيد الرأي القائل بأن بيانات ماركو بولو كان من شأنها أن تكون ذات قيمة لقوبيلاي. فهذه البيانات مشتتة وغير محترفة، وذلك لا يمكّنها من أن تصبح ذات جدوى كاستخبارات عسكرية. وحتى إذا سلمنا أن بعض التوصيفات المحيرة لا تطال إلا الصياغة الأوربية للنص، فإن المعلومات الجغرافية أقل دقة بما لا يقاس من نظيرتها الواردة في مصادر صينية وعلى ألسنة صينيين أحياء كانوا موجودين في البلاط المغولي. كما أن المعلومات «العرقية» ما كان يمكنها هي الأخرى أن تكون جديدة. وبالتالي فلابد لنا من افتراض أن الصفحات من 105 إلى 157 قائمة على المعلومات نفسها والمنظور ذاته اللذين كان يمكن لماركو بولو أن يعتمدهما في بكين، مع بعض التباين ربما من حيث الشكل والتأكيد، ولكن دونما اختلاف أساساً؛ مما يضطرنا إلى الاعتراف بأن البلاط المغولي كان يعرف كل تلك الأمور، وبشكل أفضل من مصادر أخرى. من الأسهل، بما لا يقاس، وإن كان ذلك خيالاً محضاً ليس إلا، أن نتصور ماركو بولو ملازماً بلاط قوبيلاي طوال سبعة عشر عاماً، متنقلاً موسمياً من بكين إلى كايبينغفو، بقدر كبير من الحيوية، مسلياً الخان وحاشيته عن طريق سرد القصص عن أوروبا، ومصغياً إلى أحاديث سائر أصناف التجار والرحالة والمبعوثين الذين كانوا يتجولون داخل بكين وخارجها.

وبنية نص ماركو بولو ليست، على هذا الصعيد، عديمة الأهمية. إنه وصف للعالم جرى إقحامه عنوة على رحلة من البندقية إلى بكين. وتلك الرحلة التي كانت في الحقيقة خط عودة سفارة، اضطلع بها الأخوان بولو الأكبر سناً بتكليف من قوبيلاي إلى البابا، تتزامن بشكل مرض مع وفاة البابا كلمنت الرابع في عام (1268 م) وتنصيب توبالدو فيسكونتي، المندوب البابوي في ليايس، تحت اسم غريغوري العاشر في عام (1271 م)

ويمكن التحقق منها بصورة مستقلة. أما المعلومات الجغرافية عن الشرق الأدنى وآسيا الوسطى فترد في سياق قصة السفر. وكذلك فإن المعلومات عن الصين تأتي منسوجة حول اثنين، أو ربما ثلاثة، من «الأسفار» يبدو أن ماركو بولو قام بها وحده (فالأخوان بولو الأكبر سناً يختفيان من أجزاء القصة هذه) بحجة أداء مهمات «سفارة» لصالح الخان. أما الحديث عن اليابان وجنوب شرق آسيا والهند، فمرتبط برحلة عودة الأخوة بولو بحراً حيث كان مفترضاً أن يكونوا خلالها مرافقين لعروس جديدة مرسلة إلى إلخان فارس: آرغون - (إن الرحلة البحرية تثير عدداً من المشكلات الخطيرة الشبيهة بنظيرتها التي أثارتها الصين الوسطى والشمالية، ولكنها تبقى خارج نطاق هذه الورقة).

من الواضح أن بلاط قوبيلاي هو نقطة تقاطع القصة. فقد سبق لنا أن أشرنا إلى الوفرة الهائلة النسبية للتفاصيل والصور البصرية التي تبدو سمة من سمات عمليات وصف كايبينغفو وبكين، ولكن ما قد ينطوي على قدر أكبر من الأهمية هو الالتفات إلى الأسلوب المنهجي الواضح الذي يعتمده في الفصول الأخيرة عن بكين في تطوير وتناول موضوعة مركزية المغول. فماركو بولو يقول: «ما من مكان في العالم يؤمه مثل هذا العدد الكبير من التجار، وما من مدينة في العالم يصلها أشياء أثمن وأعلى قيمة وأشياء أكثر غرابة مثل هذه المدينة». ثمة أحجار كريمة ولآلىء، حرير وتوابل من «الهند»، و«جميع الأشياء الجميلة من إقليم كاتاي ومانغي». والسبب في هذا، حسب النص، هو حجم البلاط وغناه، وحقيقة أن المدينة «في وضع ممتاز وفي وسط العديد من الأقاليم». ثم يتحدث ماركو بولو في الصفحة 96 في مجال الإشارة إلى بكين، عن النقد الورقي الذي سيشكل عنصراً من عناصر الوصف النمطي المقولب للمدن الصينية. ويقول إن الخان «أوعز بتوزيع «النقد الورقي» في سائر أرجاء الأقاليم والممالك». والصفحة 97 تصف شبكة الثاي (ربما مشتقة من المراقبة التي تعني باللغة الصينية يو - شي

ـ تآي) والشيْنْغ (من شنغ في تشونغ ـ شو شنغ) التي تتولى الإشراف على إدارة الخان للصين؛ أما الصفحة 98 فتصف زحمة طرق شبيهة بدولاب الهواء «تنطلق من مدينة كامباليق هذه... وتخترق كثرة من المناطق والأقاليم المختلفة بعد افتراقها. وسائر الطرق متميزة بأسماء الأقاليم التي توصل إليها». أما النظام البريدي «الممرحل» فمرتب بما يمكّن «رسل السيد الأعظم وسفراءه من الذهاب والإياب في جميع الاتجاهات عبر كل الأقاليم والممالك وغيرها من المقاطعات الخاضعة لحكمه، بقدر كبير من الراحة والسهولة». وماركو بولو يصف عملية نقل الرسائل وإيداع الأخبار، بل حتى نقل الفواكه عن طريق الرسل من الصين الجنوبية إلى بكين. وفي الصفحة 99 يجري التوسع في الحديث عن شبكة المعلومات. فماركو بولو يقول إن الخان يوفد رسلاً ومفتشين بصورة منتظمة لمراقبة المحاصيل والحصاد والقطعان والموارد الضريبية. وفي الصفحة 100 أخيراً يصف النص الطرق نفسها، وهي محاطة بالأشجار من الجانبين لراحة المسافرين المتعبين والحيلولة دون ضياع غير المتنبهين. ولعل الصورة كلها أشبه بصورة عالم متركّز مشع تشكل بكين قلبه، عالم يكون فيه الناس والسلع والمعلومات في حركة دائمة من المركز وإليه.

هل نستطيع أن نفترض أن ماركو بولو أمضى معظم الوقت بين عامي (1275 و 1292 م) في بلاط قوبيلاي وهو يغرف من شبكة المعلومات التي يصفها بهذا النجاح لصالح البيانات التي يدونها لاحقاً؟ إذا كان الأمر كذلك فإن من السهل نسبياً، إذاً، تسويغ دقته الجوهرية، وأخطائه العارضة، ومسارات أسفاره الضبابية المشوشة، والصعوبة المستعصية في تعرّف أماكن مثل كايكيو (تشين ـ تشو أو تشي ـ تشو أو تشيانغ ـ تشو) أو كاغوي (نظرياً على الضفة الشمالية لـ هوانغ ـ هو مقابل هواي ـ آن) غياب الصور البصرية، وتنميط الكتابات الوصفية، حالات الصمت (المحيرة) وسوء فهم الكلمات الصينية، والترجمة الفارسية أو التركية ـ المغولية للأسماء. وعندئذ،

فإن من شأن طابع وصف الصين أن يكون عاكساً لاهتمامات ووجهات نظر أوربي يعمل في إطار شبكة مغولية، وهو ينظر عملياً عبر خليط من العيون المغولية والتركية والفارسية. فتاريخ الصين، مع عدد من الممالك في جنوب شرق آسيا، لا يختلف كثيراً عن تاريخ التوسع المغولي بالنسبة لماركو بولو، ومن شأن ذلك أن يكون ذا معنى. وجوانب العادات الصينية التي بات المغول يعتمدونها، بقَدْر أقل أو أكثر، ما لبثت، مع حلول عهد قوبيلاي، أن فقدت سماتها الصينية في رواية ماركو بولو، وهذا أيضاً من شأنه أن ينطوي على معنى. وبالتالي، فإن من شأن التمييز بين مدن وأقاليم كاتاي من جهة، ومدن وأقاليم مانغي من جهة ثانية، أن يتركز على إنتاج هذه المدن والأقاليم وعلى عدد قليل من الصوى، بدلاً من التركز على لون المشهد. فنسيج الصين لابد له بالطبع من أن يغدو مطموساً في عملية نقل المعلومات، حيث يجري حذف ما هو واضح، وتتم قولبة ما هو شائع، على الرغم من وفرة المعلومات والبيانات، التي كان من شأنها أن تُسجل بشكل صحيح، وهي بأكثريتها أكثر إدهاشاً وأغرب من الخيال، ومجهولة تماماً في أوروبا. وذلك منسجم مع ما نعرفه عن تدفق المعلومات من أوروبا الآسيوية. فلو كان ماركو بولو قد وصل إلى بكين، لاستطاع أن يحدثنا عن الصين دونما حاجة إلى المزيد من السفر؛ وبالفعل فإن الطابع الفريد لكتاباته الوصفية أسهل على التفسير إذا لم يكن قد ذهب إلى هناك حقاً. غير أنه، بالمقابل، ما كان باستطاعته أن يحدثنا كما فعل استناداً إلى معلومات متوافرة في أوروبا، أو في المدن التجارية الواقعة على الشواطئ الشرقية للبحر الأبيض المتوسط. فمثل ذلك الأمر كان يتطلب وجود بكين، أو نقطة اتصال آسيوية وسطى ما على الأقل فيها شبكة معلومات تحظى بدعم المغول وتوفر الخدمات لهم.

قد لا يكون من الحماقة القول أن أدب رحلات ماركو بولو في الصين لم يكن إلا وسيلة توجيهية لتحديد مسار محدد لجملة المعلومات الجغرافية

والوصفية المستقاة من الروايات التي سمعها، بل وربما قرأها في بكين. وإذا كان الأمر كذلك، فلربما تم اختيار هذا الأسلوب لسببين أولهما: من المؤكد أن الأخوة ماركو بولو قاموا برحلة غير عادية عبر أوروبا الآسيوية، حتى بكين على الأقل، وذلك وفر إمكانية جعل المذكرات امتداداً طبيعياً لحقائق واقعية؛ وثانياً: لأن المذكرات أضفت مسحة من المصداقية على رواية بالغة الهشاشة. ونحن نعلم أن أوساطاً واسعة في أوروبا، وعلى امتداد قرن ونصف، وحتى عشية عصر الاكتشافات، لم تصدق رواية ماركو بولو. وبعض المعلقين قالوا إن عنوان إل مليونه، الذي عُرف به ماركو بولو وكتابه على نطاق واسع في إيطاليا، والذي يبقى اليوم العنوان الإيطالي السائد لكتاب **وصف العالم**، لم يكن في الحقيقة إلا لقباً يشير إلى مبالغات ماركو بولو وجموح حكاياته. ومن المدخل، كما من الصياغة عبر النص كله، يتضح، على أية حال، أن ماركو بولو نفسه (و/أو روستيتشيللو) كان حريصاً على أن يصدقه القراء. فقد ظل موسوساً حول جميع الأمور إذ كتب يقول «حتى لا تقوم لطخة زيف واحدة بوصم كتابنا، وحتى يؤْمن كل من يقرؤه أو يسمعه مقروءاً إيماناً كاملاً بصحة جميع ما ورد فيه». إننا إزاء وصف للعالم أضفى عليه أسلوب أدب الرحلات نكهة المذكرات، كما وفر قدراً من التوازن والتناظر الخارجيين بين ما شوهد وما شُمع.

صحيح أن الدراسات الماركوبولوية باتت الآن بالية، ولكن توافر معلومات جديدة مازال مؤهلاً لأن يجلو الصورة. فالاكتشافات النصية والأثرية قد تقرن ماركو بولو بصورة نهائية بموقع آسيوي محدد أو أكثر. وقد يطفو على السطح نص «أصلي» ما للمخطوطة، بما يتيح فرصة تحقيق وتنقيح أكثر يقيناً. أما في هذه اللحظة، فربما نستطيع أن نقر بأن الدقة العامة للكتابات الوصفية عن الصين ليست برهاناً على أننا أمام رواية شاهد عيان، وبأن قرناً من البحث المتبحر إلى أقصى الحدود أخفق في إعادة بناء مسارات

الرحلات الصينية بصورة كاملة، وبأن العديد من فقرات وصف الصين عصية على التفسير من وجهة نظر الملاحَظ والملاحِظ، وبأن عملية التدجين التي يزعمها النص نفسه بالنسبة لماركو بولو ليست منسجمة إطلاقاً مع طابع البيانات الوصفية، وبأن البيانات، كما هي، كانت ممكنة التجميع في بكين (وإنْ ليس في أوروبا) وبأن النص نفسه يفسر الكيفية. وإلى أبعد من ذلك قد لا نستطيع أن نمضي.

Haeger, John W. Marco Polo in China' Problems with Internal Evidence, *The Bulletin of Sung and Yuan Studies* (FORMERLY The Sung Studies Newsletter), Number 14, 1978.

1- Citations in this paper are from the composite English edition by A. C. Moule and Paul Pelliot, *Marco Polo: The Description of the World* (2 vols.), London, 1938.

2- F.

3- Bibliothéque Nationale, Paris (France) B. N. fr. 1116.

4- R.

5- *In Navigationi et Viaggi*, Vol. 2, 1559.

6- Z.

7- Biblioteca Catedral, Toledo (Spain) 49, 20.

8- See N. M. Penzer, *The Most Noble and Famous Travels of Marco Polo*, London, 1929; Henry Yule, *The Book of Ser Marco Polo the Venetian concerning the kingdoms and Marvels of the East* (2 vols.) with additions by H. Cordier (1920); Paul Pelliot, *Notes on Marco Polo* (2 vols.), Paris, 1940 and 1963.

9- Leonardo Olschki, *Marco Polo's Asia: An Introduction to his "Description of the World" called "Il Milione,"* Berkeley, 1960; and previous writings cited within.

10 ـ حالياً «مْيِتمار» ـ (ز. م).

11- For convenience, and so that my text will be consistent with citations from Polo, most Chinese and all Mongol terms and places have been transcribed as they are in the Moule-Pelliot composite English text.

Thus Cublai for Qubilai, etc.

12- Herbert Franke, "Sino-Western Relations under the Mongol Empire" in *Journal of the Royal Asiatic Society*, Hong Kong Branch, VI (1966), 49-72.

13 - وحدة نقدية - (ف. ج).

14- VB.

15- British Museum, London (England) Sloane 251.

(ج) أسفار ماركو بولو

التضارب بين الإثبات والملاحظة

بقلم: مارتِن غُشمَن

كلية اللغات الرومانسية بجامعة غرونِغن، هولندا

في مأدبة على شرف عودته السالمة إلى البندقية عام (1295 م) فتح ماركو بولو حواشي وبطانات عباءته الرثة التي أثارت من قبل سخرية مواطني مدينته، وانتزع كمية من الأحجار الكريمة منها، كاشفاً عن حقيقة بعض ما رواه عن الشرق على الأقل. وهذا الحدث، الذي ذكره الجغرافي جيوفاني باتِّيستا رَموزيو (1485 ـ 1557 م) في كتاب الملاحة والترحال،[1] ليس وارداً في الرواية المنسوب إملاؤها إلى ماركو بولو، في (1298 م) على روستيتشيللو البيزوي وهو في السجن بجنوا.[2] ومهما كانت الظروف التي أحاطت بكتابة نصه، فإن هذا العرض للأحجار الكريمة لا يشكل لب قصة ماركو بولو فقط، بل ويلقي الضوء على مشكلة استقبال روايته التي تكاد أن تكون غير عادية. ومن غير الغريب أن المعاصرين نعتوا ماركو بولو بالتبجح، فقصته كانت خارقة للعادة إلى حد بعيد. وبصرف النظر عما إذا كان ماركو بولو مدركاً لإمكانية عدم تصديقه أو لا، فإن روايته تنتهي بتأكيدات المصداقية التقليدية التي يجدها المرء في العديد من قصص الرحلات العائدة للعصر الوسيط. ففي المقطع الأخير، يصر ماركو بولو، ليس فقط على الطبيعة الاستثنائية لمغامرته «ما من أحد سبق له أن رأى مثل هذا الجزء الكبير من العالم المأهول»، بل على صحة معلوماته وكمالها «كل ما يمكن قوله عن

المغول والمسلمين، إضافة إلى العديد من المناطق المجهولة في العالم يمكن العثور عليه في كتابه». وبما أنه لم يورد إلا ما رآه ملبياً لحاجة مستمعيه، فإنه لم يعتبر عدداً من التفاصيل المتعلقة بالبلدان المشاطئة للبحر الأسود جديرة بالذكر، كما قام بطمس حقائق أخرى معروفة جيداً: ألم يقم البندقانيون والجنويون والبيزويون بزيارة تلك الأجزاء من العالم بصورة منتظمة؟ ألم تكن المعلومات عنها متوافرة للجميع؟

ليس هناك قائمة مراجع طويلة كتلك الواردة في قصة رحلة جون البلانوكاربيني.[3] غير أن ماركو بولو يقدم براهين صدق أخرى فيما يمكن اعتباره الفصل الأول من كتابه، ولَوْ لَمْ يقم بتمييز الوقائع التي سجلها بنفسه عن نظيرتها المقتبسة من مراجع جديرة بالثقة، لما دَعَتْ الحاجة إلى التعليق على هذه الحقيقة. وهو يقول إن الفرق بين نوعي الملاحظة سيتم إعلانه بوضوح (على ما هو الأول... بصدق ودون أي كذب) - ص 103. ونحن هنا بصدد التعامل مع عملية انتقاء متعمدة للعناصر التي تنطوي على نوع من النزوع (في علم الأجناس) - ذلك ما يشي به السطر الافتتاحي للنصوص على الأقل: فماركو بولو يريد مناقشة (مناطق العالم المختلفة) جنباً إلى جنب مع (الأقوام المتباينة) التي تعيش في تلك المناطق. وكل شيء يجري الحديث عنه بانتظام. ولكن مفهوم الاختلاف، على تكرر استخدامه في النصوص الوسيطة، يبقى غامضاً. وهذه النقطة سأعود إليها فيما بعد.

بعد قراءة روايتي جون البلانوكاربيني ووِلْيَم الرُّبْرُكي، والاطلاع على الأسباب التي يوردانها لرحلتيهما إلى بلاد المغول، يتضح أن هذين الفْرَنْسيسكانيين تم إرسالهما شرقاً (من قبل إنُسِنت الرابع والقديس لويس على التوالي) لأداء مهمة محددة بوضوح: كانا مكلفين بتحليل ووصف قوة المغول العسكرية، وإقناعهم بالمسيحية.[4] وليس هناك شيء من هذا في رواية ماركو بولو. ليس ثمة تفسير حقيقي لرغبة الأخوين بولو في العودة إلى الشرق، مع ماركو بولو هذه المرة. صحيح أن نوعاً من التلميح يمكن

العثور عليه في الفصول من 2 إلى 17 حيث يقوم ماركو بولو ليس بتلخيص رحلة أبيه وعمه فقط، بل رحلته هو أيضاً. فهذه الرحلة الأخيرة تُقُدِّم كنوع من الإجابة المقدمة من جانب الأخوة بولو عن طلبٍ وجهه قوبيلاي خان (1260 - 1294 م) إلى البابا، لإيفاد ستة رجال «ليبرهنوا لكل الأصنام والأجيال القادمة صحة شرائعهم وتكاملها وإلا فعدّت من فعل الشيطان، وأن يثبتوا بمنطق - مثل شرائع المسيحية، أنها كانت الأفضل. ويشكر «الخان» مرة أخرى الأخوين القادرين على إحضار الزيت المقدس من كنيسة القيامة بالقدس».

وهذه التفاصيل الواردة مرة أخرى في الفصلين العاشر والحادي عشر تنطوي على أهمية. فماركو بولو يلمح إلى أن الأخوين بولو، بسبب علاقتهما الخاصة جداً بخان المغول، كانا يعملان سفيرين للكرسي الرسولي الأعظم. ولكن ما يلفت النظر هو أن ليس هناك أي كلام عما دفع قوبيلاي خان إلى تقديم مثل هذا الطلب. فالأمر يبدو وكأن قوبيلاي هذا كان تواقاً للتنوير الذي سيجلبه له المسيحيون. غير أننا نستطيع، إذا أخذنا وصف الرُّبرُكي للتوجه الديني لدى المغول بنظر الاعتبار، أن نلمس أن حكامهم كانوا يتخذون موقفاً متسامحاً من الأديان الأخرى. فقد كان بوسع المرء أن ينتمي إلى أية عقيدة يشاء، شريطة تضمين جميع الصلوات دعوة لخلاص روح الخان ومجدها.[5] والزعم بأن قوبيلاي خان لم يكن قد رأى أيّ لاتيني، أيْ أيّ أوربي، كما يقول ماركو بولو (ص 60) مغلوط تماماً: فالمبشرون الذين ورد ذكرهم من قبل، كانوا قد شاهدوا أعداداً كبيرة من العبيد والأسرى الأوربيين في المعسكرات المغولية.

وقد سبق لي أن ذكرت أن ماركو بولو لا يورد أي سبب، كائناً ما يكن، لرحلته إلى الإمبراطورية المغولية. أضف إلى ذلك أنه يكاد لا يقول شيئاً عن نشاطاته هو وأبوه وعمه في الشرق الأقصى. وهذا يبعث على الاستغراب نظراً لوجوب أن تكون التجارة هي الدافع للعودة إلى بلاط

الخان؛ فقد كانوا تجاراً في التحليل الأخير. والطبعة الإيطالية تذكر أن والد ماركو بولو وعمه أقاما حوالي ثلاث سنوات في تشيابتشيو - ص 150، ولكن دون أية إشارة إلى ما كانا يفعلانه هناك. والطبعة الفرنسية تضيف (ص 75) أن نشاطاتهما (حسب كلام ماركو بولو) كانت غير ذات شأن، وبالتالي غير جديرة بالتسجيل. وهكذا فإن الرواية تتسم ليس فقط بالانتقائية فيما يخص المعلومات الواردة (فماركو بولو لم يورد، كما قيل من قبل، أية معلومات عن البلدان المشاطئة للبحر الأسود) بل وبقدر معين من التلاعب بالوقائع والشخصيات التي يجري تصويرها.

ويتصف ماركو بولو كذلك بقدر من التحفظ والحذر. فعلى الرغم من أننا لا نستطيع، بالفعل، اتهامه بالمركزية الأوروبية التقليدية القائمة على افتراض تفوق الحضارة المسيحية اللاتينية، علينا أن نسلّم، آخذين التسامح المغولي مع التنوع الديني، بعين الاعتبار، بأن افتراض أن يكون الخان قد أقر بأن ديانته هو كانت أقل شأناً من العقيدة المسيحية (فهو يتحدث عن... «أوبرا الشيطان».....) يثير قدراً من الاستغراب. وهو أمر غير محتمل إلى حد بعيد على الصعيد النفسي: فالمغول كانوا قوة عسكرية كبيرة، شديدة الغطرسة إلى حدّ يحول دون إمكانية ورود مثل هذه الفكرة بصورة جدية. والحقيقة لابد لها من أن تكون إما أن ماركو بولو توهّم بأن الحالة كانت كذلك، أو، وهذا أقرب إلى الصواب، أنه لم يجرؤ، ببساطة، على الزعم بإمكانية تنظيم نقاش جاد بين المسيحية والوثنية المغولية. فقد كان من شأن ذلك، دون أدنى شك، أن يفضي إلى مشكلات مع الكنيسة. فالمسيحيون لم يتخلوا قط، في نقاشاتهم مع علماء اللاهوت الإسلاميين، عن ادعاء التفوق، ولا عن الأمل في هداية أولئك الضالين من الأقوام الوثنية، (ألم تورد الآثار الملحمية العامية عدداً من «الأصنام» الإسلامية؟)[6]

وثمة تفصيل آخر ذو أهمية في هذه الفقرات التي تؤلف مجتمعة نوعاً

من المدخل (ص 115)؛ فماركو بولو لا يتوقف عند الصعوبات المادية لرحلته الطويلة، إذ يكتفي بالقول إن رحلته الثانية إلى بلاط قوبيلاي استغرقت (ثلاث سنوات بسبب الطقس السيئ والأنهار الكبيرة في الشتاء والصيف) ولا يركز اهتمامه إلا على (اختلاف الأقاليم والمدن التي كان فيها). أما المبشران الفرَنْسيسكانيان فقد عبرا، بالمقابل، عن الشكوى من الصعوبات التي عانياها.[7]

إن رغبة ماركو بولو الصريحة في مناقشة (تباين أقاليم العالم) تقليدية،[8] فعلى الرغم من أن قصة سفره مختلفة إلى حد كبير عن نظيراتها لدى أسلافه، فإن شكلها العملي وصوغها يبقيان في حدود التراث. وعلينا هنا ألا ننسى مساهمة روستيتشيللو. فقد يكون الأخير مسؤولاً عن العناصر الملحمية في الصور الوصفية المتحذلقة للمعارك الكبرى التي خاضها المغول مثلاً (كما سنرى فيما بعد). وماركو بولو غادر البندقية وهو في الخامسة عشرة من العمر، ومن غير المحتمل أن يكون متذكراً، بعد حوالي 25 سنة، أسلوب التقديم النمطي المقولب للبطولة في الأدب والتاريخ، إذا كان قد اطلع أساساً على هذا النوع من النصوص في شبابه.

والعناصر الملحمية في الوثائق التي تعتبر تجريبية، ويجري تقديمها على أنها كذلك، ليست غير شائعة في الكتابات الوسيطة. ففي تلك الأيام لم تكن المحاكاة هدف المؤلف على الإطلاق. فقد كان اهتمام هذا المؤلف متركزاً على اتساق أسلوبه فقط. وبالتالي، فإن النصوص الملحمية والتاريخية غالباً ما تكون شديدة التشابه في التقديم. بل قد كان يجري «تمثيلها» أحياناً في المجتمع الشفوي لتلك الأيام. وهذه سمة بارزة من سمات **التاريخ العام** لألفونسو الحكيم، و**الأحداث التاريخية الفرنسية العظيمة**. وهذه النصوص التثقيفية تتضمن العديد من النصوص الملحمية كما لو كانت وثائق «تاريخية». (والنصوص المتضمنة لقيمتها «التاريخية» لا تكون أحياناً إلا

شهادات على روايات ملحمية محددة باتت مفقودة). وعلى الصعيد الأسلوبي، فإن رواية ماركو بولو، على اتسامها بالعديد من الملامح الأدبية والملحمية، تقليدية أيضاً. فقد أراد (هو أو روستيتشيللو، أو كلاهما) أن تكون الرواية منسجمة مع مثيلاتها الأخرى، وإلا فقد كان من شأنها أن تبقى غير قابلة للقراءة. وهكذا فإن تقديم ماركو بولو ينطوي على عدد من التقنيات الأسلوبية المستمدة من التراث الأدبي، وهذا ملحوظ بشكل خاص في التنقيح النمطي المقولب لقصة رحلته.

وقبل إيراد بعض الأمثلة لابد من تأكيد النقطتين التاليتين:

1 ـ ما من تحليل يتناول نص ماركو بولو يستطيع أن يتجاهل حقيقة أن غيابه دام خمسة وعشرين عاماً؛ ولابد لهذه الحقيقة من أن تكون قد أثرت في ذاكرته. فعلى الرغم من أن العديد من الدراسات التاريخية أظهرت أن ماركو بولو يزودنا بوصف يمكن التعويل عليه إلى حد كبير لرحلته، فإن ذاكرته ربما خانته أحياناً.

2 ـ إضافة إلى التحامل المسيحي التقليدي على الثقافات والديانات الأخرى في رواية ماركو بولو (وإن تعين علينا أن نسلم بأنه لم يكن مبالغاً) ثمة قدر معين من النزعة المركزية الذاتية: فماركو بولو يدفع شخصه إلى المقدمة. ومن غير الممكن أن نحسم ما إذا كان هذا الجانب في روايته قد ساهم في ظهوره بمظهر المتبجح في المجتمع (البندقاني) الوسيط الذي كان يفكر بصورة جماعية.

وكما قيل من قبل، فإن ماركو بولو خطط لوصف تباين وتنوع الأقاليم (كما يقول النص) التي مر بها، والأقوام التي رآها. ومحض استخدام تلك الكلمة بالذات يكشف النقاب عن مركز الاهتمام التقليدي لسائر أنواع أدب الرحلات والكتابات الجغرافية في العصر الوسيط. وهذا ليس غريباً؛ فمؤلفو العصر الوسيط، مثلهم مثل قرائهم، كانوا مهتمين بالاختلاف بين

مجتمعهم ومجتمعات الآخرين، ساعين فقط إلى تأكيد تفوقهم. والاختلافات يجري تقديمها في قوالب دقيقة يمكنها أن تكون إما إيجابية «ثمة في ذلك البلد...»، أو سلبية مثل «لا يتوفرون على...»؛ «نحن «الأوروبيين» لا نعمد إلى...» الخ...[9] ومن الصعب إثبات الطريقة التي تمكنَتْ بها هذه التقنية التسجيلية الخاصة من تدعيم تأكيد الذات الأوربية. ومن الممكن أن قدراً من التوتر الناجم عن مجابهة المجهول وغير المألوف يلعب دوراً معيناً هنا.

وكاتب الرحلات لم يستطع قط أن يشبع الاختلافات المسجلة تحليلاً. وهذا لا يدعو إلى الاستغراب نظراً لأنه كان غريباً في البلاد التي مر بها، وجاهلاً للغات المحلية، وبالتالي، لم يستطع أن يرى أكثر من العناصر الخارجية لمجتمع أجنبي. وأي رحالة لم يفهم قط آليات المجتمعات التي لم يكن يتكلم لغاتها، أو تلك التي لم يتمكن من التواصل معها عن طريق لغة عالمية ما (اللاتينية في أوروبا، أو إحدى اللهجات الفارسية في آسيا).[10] وقد كان هذا صحيحاً بالنسبة إلى أوائل الرحالة من أمثال الأم (رئيسة الدير، رئيسة الراهبات) إيغيريا التي زارت سيناء والأراضي المقدسة حوالي عام (400 م) ولكن حتى الرحالة الذين قاموا بالرحلة الكبرى في القرن الثامن عشر ظلوا، لأسباب مختلفة، يتبعون التقاليد.[11] وما لاحظه هؤلاء الرحالة، ووصفوه أحياناً، بأسلوب أقرب إلى الدقة والتجريبية، إن هو أساساً إلا أشياء طقسية وعناصر خارجية أخرى. فهم لم يتوغلوا قط في الألغاز الكامنة تحت السطح. وأية كتابة وصفية حقيقية لم تقدم، فيما يبدو، إلا المعلومات التي كان المؤلف وقراؤه يريدون الحصول عليها.

وهدف ماركو بولو لم يكن متمثلاً بإيراد قائمة تتضمن جملة التحركات العسكرية والدينية الممكنة ضد المغول (مثل المبشرين الفرنسيسكانيين قبله). فكتابته ليست قائمة على أية نزعة معادية لنفوذ

المغول وسطوتهم، وإن تضمنت العداوة التقليدية تجاه الإسلام، إذ يسجل بانتظام أن جميع المسلمين هم (أعداء للمسيحيين) أو أن المسيحيين (أفضل الناس قتالاً من اللامسلمين).[12] وبالمقابل، فإن حال الملحدين (جميع من ليسوا مسلمين عموماً) أفضل. إذ لا تشملهم النظرة العدائية التي تخص المسلمين، فضلاً عن كونهم مرشحين محتملين للهداية. ولكن ماركو بولو يبدي أحياناً نوعاً من التردد. فلدى الحديث عن الأصنام المعبودة في جزر زارها، يفضل ماركو بولو ألا يصف الطقوس الكريهة والبغيضة المرتبطة بهذه الأوثان.[13] ولكن موقفه من الملحدين يبقى معتدلاً بصورة عامة. ومثل هذا الموقف سوف يبقى هو هو فيما يخص وصف بيغَفيتًّا لأهالي جزر المحيط الهادي.[14]

ومن وجهة النظر هذه، فإن رواية ماركو بولو تقليدية لا يطالها الشك بنظر معاصريه. ولكنه، رغم هذا، اعتُبر كاذباً، لا لشيء إلا لأنه عارض صورة المغول التقليدية. فالناس لم يكن في وسعهم محض تصديق أن أولئك البرابرة الذين سبق لهم أن هددوا بتدمير أوروبا في (1240 - 1241 م) كانوا قد بلغوا ذلك المستوى الرفيع على الصعيدين الحضاري والتنظيمي الذي يصفه ماركو بولو في كتابه. فما من شيء من هذا القبيل كان معروفاً. ألم تكن أوروبا الملكوت الأخير الذي أعلنه الإنجيل، والمرحلة العليا لتطور البشرية، كما كان سائر المؤرخين الأغسكينيين يزعمون...؟[15] ومن الناحية النفسية، مَثّلَ نشر قصة رحلات ماركو بولو غلطاً في التقدير. فأي مجتمع مغولي متحضر لم يكن، ببساطة، أمراً قابلاً للتصور بالنسبة إلى القراء الأوروبيين. وموقف الأوروبيين هذا لم يكن ذا علاقة بالحقيقة الفلسفية، الدينية، الأخلاقية، أو حتى العلمية. فهو يرفض أي نظام اجتماعي - سياسي يمكّن البنى التقليدية المعادية من البقاء والازدهار. أما جون الماندفيلي فقد كان عميق الوعي بما كان يدور في أذهان الناس، وقد ألف قصة رحلة ذكية جداً توافق وجهات النظر

الأوروبية السائدة حول الشرقين الأوسط والأقصى. فقصة ذلك «الرحالة وهو على الأريكة» استُقْبِلت على أنها حقيقة: لم يتم التأكد من صحة أي شيء (تجريبياً) ولكن القصة جاءت مستندة إلى جملة الآراء والأحكام المسبقة التقليدية....(16)

وعلى الرغم من أن جزءاً من رواية ماركو بولو كان مرفوضاً، لأنها لم تضع الحد الفاصل الواضح والضروري بين الخير والشر، فإن أسلوبه استُقبل بارتياح. فنصه يقدم السلسلة المألوفة من المعلومات ذات العلاقة، ويسوقها على شكل نوع من الدليل أو الفهرس. وهناك قصص أسفار أخرى نُظمت بالطريقة نفسها. فإعادة بناء مسار أية رحلة تتم على الدوام خطوة بعد خطوة؛ حيث أماكن التوقف المذكورة تشكل الصُوى الطبيعية. وهذا يفسر الطابع (التاريخي المتسلسل) للعديد من قصص الأسفار. وحقيقة أن ماركو بولو، الذي كان يكتب بعد الحدث بخمس وعشرين سنة، تعين عليه أن يغوص عميقاً في ذاكرته، ساهمت أيضاً بالضرورة في عملية تنظيم روايته على شكل مقاطع وفصول؛ فكل فصل يشكل واحدة من مراحل الرحلة كلها والمواقف النمطية المقولبة هي النتيجة المنطقية لهذا كله. فأي فصل «يبدأ» عموماً باسم علم، أو مكان أو منطقة جينغيتالِس (جنكيزخان) - ص 148؛ صحيح أنه يورد أرمينيتين، الصغرى والكبرى - ص 117؛ في جورجيا - ص 120، لكن العبارات الختامية المقولبة تميل إلى أن تكون أكثر تحديداً (أحصينا) و(سنقول) - ص 121؛ (سنترك) - ص 153؛ (والآن سنرحل من) - ص 281.

وما إذا كان رحالتنا قد احتفظ بسجلات عن الأحداث الهامة، ليس مؤكداً. ولكن العادة أجبرته على تنظيم قصة رحلته مرحلة مرحلة، وهذا يفسر تسلسلها الزمني. غير أن هناك نقطة تفصيلية واحدة ذات شأن. فمقدمة وصفه لسيلان (سريلانكا الحالية) تقول (والآن أقول إنه دار ألفين وأربعمئة ميل وفق ما تظهره خرائط العالم) - ص 257. وهذا غريب. هل

استخدم ماركو بولو خريطة أو رآها (إن النص الفرنسي يؤيد الفقرة الواردة في النص الإيطالي والتي تتحدث - وإن كان هذا اختلافاً ثانوياً - عن خريطة كان البحارة يستخدمونها في تلك المنطقة - ص 250) في أثناء عودته إلى مسقط رأسه، أم أنه يشير إلى خريطة عالم أوربية جرى استخدامها لدى القيام بإعادة بناء رحلته وعند تقديم الإيضاحات لروستيتشيللو؟ أو هل قام، كالعديد غيره من الرحالة ومؤلفي كتب الأسفار، مثل ماتيو باريس،[17] بتقديم خريطة مع روايته؟ لست قادراً على الإجابة. غير أن المهم هو أن ماركو بولو يسند وصفه إلى خريطة كان من شأنها مساعدته في تحديد اتجاهات الريح (يستخدم الرياح الثماني التقليدية الموجودة على خرائط العصر الوسيط) فتقرأ (باتجاه الشرق وراء الجبال) (بين الشرق وبلاد الإغريق) (ستين يوماً باتجاه الشرق وراء الجبال). وأحياناً يعلم القارئ بالمسافات الفاصلة بين الأماكن، تبعاً لتقنية تقليدية مستمدة، في حدود ما أرى، من التقاليد الرومانية في فن رسم الخرائط، تلك التقاليد التي تشكل خريطة **تابولا بوتينغِرْيَانا** الشهيرة شاهداً جيداً عليها.[18] فالحاج البوردوي (نسبة إلى بوردو الفرنسية) الذي زار الأراضي المقدسة في عام (333 م) يعطينا، بطريقة رومانية خالصة، قائمة بأماكن التوقف والمراحل، جنباً إلى جنب مع المسافات. أما الاتجاهات فليست واردة.[19] وهذا ليس من شأنه أن يفاجئنا: فكل رحالة كان يستطيع ميدانياً أن يحصل على المعلومات الضرورية للمرحلة التالية من رحلته. والأدلاء كانوا متوافرين عملياً في جميع الأماكن، حتى في الشرق حيث المسافات كانت أكبر بكثير. فكتابات ماركو بولو الوصفية المطولة عن الخدمات البريدية المغولية الكفيّة، فضلاً عن الصُوى المتطورة (مثل غرس الأشجار على امتداد الطريق) هي كتابات غنية بالمعاني. غير أن ماركو بولو ليس مهتماً حقاً بالتفاصيل الواقعية لرحلته الطويلة، بل يقدم بين الحين والآخر معلومات عملية على شكل دليل سياحي حديث:

على المسافرين أن يتزودوا بمؤن خاصة لدى عبور الصحارى والمناطق المهجورة.

أما الطابع النمطي المقولب للنص فيتجلى في التفاصيل العملية المذكورة للتو، ولكن في وصف المراحل المختلفة أيضاً قبل تجوال ماركو بولو في الإمبراطورية المغولية الفعلية وبعده. وهاكم فيما يلي وصف أرمينيا الصغرى:

> «في الصغرى، هناك رجل يقيم العدل، وللخان الأعظم، قصور وقلاع كثيرة، والكثير من كل شيء، ويمتلك حيوانات أليفة ومناطق صيد، ويظهر أن لديه أتباعاً أقوياء... الآن هم جميعا سيئون، وبقي فيهم شيء جيد وهو أنهم سكيرون... ولديه أعلى البحر مدينة اسمها لاياس، وبها تجارة كثيرة وتجار من البندقية وجنوا ومن مناطق أخرى... والآن سنتحدث عن تركمانيا...»

وفي هذا المقتطف، يصح الشيء نفسه على العديد من الفصول الأخرى في نص ماركو بولو، نصادف العديد من العناصر المقولبة والتقليدية. فماركو بولو، مثله مثل أسلافه، يورد اتجاهات تقريبية للرياح، واسم المنطقة أو المدينة، مساحتها، وحاكمها المحلي، وإخضاعها اللاحق للحكم المغولي فضلاً عن توجهها الديني. وفيما بعد فإن الفصل يأتي على ذكر العديد من البلدان والقلاع ذكراً يلقي الضوء على بنية السلطة، والثروة الطبيعية، ومدى وفرة الغذاء. وهذا كله ينتمي إلى التقاليد. فالشرق الأسطوري يتحول إلى حاضرة، إلى جَنّة للوفرة، وإلى مكان قادر على إطعام ما يتعذر إحصاؤه من البشر. فالعالم الآخر (وهذا صحيح بالنسبة إلى العالم الكلتي أو لأرض الكوكاينه) قائم دوماً على المبالغات. ورواية ماركو بولو هي الأخرى تفرز قوالبها الخاصة وصيغها الخاصة: فبعد الإتيان على ذكره والتعليق عليه، لا يلبث وجود النقد الورقي (ص 192 ـ 193) مثلاً، أن يصبح جزءاً مكوِّناً من أجزاء قالب معين. وما إن يتغير الوضع حتى يبرز نوع من الوضوح: ففي

إقليم تولوما لا تكون القطع النقدية الصغيرة من الورق بل من الخزف الصيني.

ومن يُمن الطالع أن الصيغ النمطية والقوالب لا تلغي الإبداع؛ إنها تتيح قدراً من المرونة، كما رأينا في وصف أرمينيا الصغرى. واهتمام ماركو بولو بالأرمن جدير بالملاحظة؛ فهو يعلق قائلاً إن الأرمن اشتهروا في الأزمان القديمة بالشجاعة، ولكنهم الآن ليسوا إلا عصابة من السكارى. وربما كان واقعاً هنا تحت تأثير أفكار مسبقة عن طوائف مسيحية درجت على عدم الاعتراف بسلطة روما. فالصليبيون دأبوا بانتظام على التعبير عن كرههم الأرمن.[20] غير أن من غير الممكن أيضاً استبعاد احتمال أن يكون ماركو بولو قد التقط بعض المشاعر الدارجة المعادية للأرمن في أثناء مروره عبر الشرق الأوسط. وإذا كان الأمر كذلك، فإن من الممكن أن تكون التعليقات المشوّهة لسمعة الأرمن هي الأخرى قوالب نمطية جاهزة. وثمة مثال آخر على مقت ماركو بولو لطوائف مسيحية معينة يمكن أن نجده في الفصول الدائرة حول الجورجيين الذين يتبعون (الشرائع الإغريقية) وأهالي الموصل الذين يحترمون (العقيدة المسيحية) ولكن ليس حسب ما تأمر به كنيسة روما. وهناك أمثلة عن اختلافات سطحية ملاحظة من الخارج - فالطقوس يسهل وصفها، ولكن تفسيرها بالغ الصعوبة. وأحياناً يفي ماركو بولو بوعده المتمثل بذكر أوجه التباين بين الأشياء التي رآها شخصياً وما جاء في تقارير الآخرين. غير أن المصداقية تظل على الدوام محدودة بشروط موقفه. ففي الفصل الدائر حول عَبَدة النار بعاداتهم الدينية الغريبة، مثلاً، يحرص ماركو بولو على أن يبقى بعيداً: إذ يقول النص، (بضمير الغائب على الدوام) إن متحدثين جديرين بالثقة (كل هذا قاله السيد ماركو بولو، وهو صحيح).

أما في الجزء المخصص لبنية الدولة المغولية، فإن الأمور تتغير تغيراً ذا شأن. ومن الواضح أن هذا التقديم تأثر بما يلي:

أ ـ خدمته المديدة للخان والحماية الطويلة التي حصل عليها منه.

ب ـ معرفته الفارسية والمغولية خصوصاً (لم يكن يعرف الصينية) مما أتاح له فرصة الإحساس بالكثير من الأشياء الكامنة تحت السطح. إن مكانة ماركو بولو المحددة في الإمبراطورية المغولية غير واضحة، ومركزيته الذاتية تفضي هنا إلى بعض الصعوبات. ومن الصعب أن نصدق أنه كان موظفاً مدنياً ـ فنظام الاستخدام المغولي كان مع مرور الزمن قد أصبح قريباً إلى حد ما من النظام الصيني الهرمي المتطور...[21] ـ أو أنه كان حاكماً لتيغني (يَنْغْجُو؟) كما يقول (ص: 230). وحتى يتم العثور على ما يثبت صحة مثل هذا الكلام، فإن الحكمة قد تقضي بإغفال هذا الاستعراض.

فالكتابات الوصفية التي تتناول الأماكن وطقوس البلاط المعقدة فضلاً عن العديد من البلدان الخاضعة لحكم المغول، ترد على الدوام في إطار النفوذ المغولي. والتعليق الوارد في الفصل الدائر حول أرمينيا الصغرى حيث يقال إن البلد يتبع «الخان الأعظم»، يحدد السياق. وهذا يفسر لماذا تكون المعلومات كلها منسوجة حول ما يعتبره ماركو بولو جوهرياً: حول الإمبراطورية المغولية. فبلاط قوبيلاي خان هو المحور النفسي للرواية. وعلى الصفحة 210 يقول ماركو بولو بوضوح إن جميع البلدان المذكورة في كتابه خاضعة لحكم الخان.

وانبهار ماركو بولو لا تحده، عملياً، أية حدود؛ فليس هناك أي نقد كما أن وصفه يوحي لنا بأننا أمام إمبراطورية أفرز فيها العنف والقبضة الحديدية المنهجيان تناغماً دائماً. وهذا ليس بالطبع إلا انطباعاً. ففي أواخر الكتاب، يأتي ماركو بولو على ذكر عدد من حركات التمرد، المعارك الخاسرة، والمشروعات التوسعية الخائبة (الحملة اليابانية مثلاً) ولكنه لا يقوم إطلاقا بربط هذه النكسات السياسية والعسكرية بانحطاط الدولة وتدهورها، الأمر

الذي كان يمكن للمؤلفين المسيحيين أن يروه حتمياً. ومن هذا المنظور، فإن روايته تختلف كثيراً عن روايات أسلافه، ربما لأن مدة بقائه بين المغول كانت أطول.

وهنا يصادفنا تفصيل يبعث على الاهتمام. فقصة سفر ماركو بولو هي، كما قيل من قبل، قصة وقائع خالصة ولا تطمح إلى تقديم أي تفسير أخلاقي للأحداث المسجلة. وكلما تم إلقاء بعض الظلال على وصف النظام المغولي، لابد هنا من تجنب استخدام كلمة (نقد) فإن ذلك يأتي في سياق الحديث عن الصراعات فيما بين المغول. فالوصف التاريخي لأسرة جنكيزخان الحاكمة يكشف لنا عن أن التناغم والوحدة بين صفوف المغول سرعان ما تبدّدا:

(والآن سأقول لكم إنهم كثيرو أولاد الزنا الذين يحافظون على المظهر الإلهي، ولكنهم يتركون العمل بشرائعه، بينما في الشرق يتمسكون بأفعالهم، والعدل سيكون عليهم كما أقول لكم).

ودون الدخول في التفاصيل، فإن ماركو بولو يقوم هنا بالإشارة إلى نوع من الترابط بين المستويين «الديني» والسياسي. وهذا أمر قابل للفهم؛ ففي العالم المسيحي كانت فكرة «النظام الطبيعي» الأُغُسطينية تنطوي على احترام المؤسسة الاجتماعية ـ السياسية والدينية (وهي السبب الكامن وراء الهجوم الشرس على الهراطقة). وعلى الرغم من أن تباين الآراء في الإمبراطورية المغولية أفضى أيضاً وبصورة حتمية إلى النزاع، فإن ماركو بولو يسجل ذلك دون أن يرفقه بأي تعليق نقدي. وهاكم فيما يلي مثالاً على ذلك: «سَيّدان: أولهما سيد الشرق والآخر عظيم ... يتحاربان حتى الموت» ـ ص 299. وفيما يلي وصف ماركو بولو (أو روستيتشيللو؟) للمعركة الحاسمة بين هذين (السيدين):

«كان الحقل مليئا بالجرحى وبجثث القتلى. وضعوا أيديهم على السيوف، كانت مقطوعة رؤوس وأذرع وأيدي الفرسان مكومة، لم ير أو يسمع بمثلها من قبل. وكثير من الفرسان كانوا على الأرض، وكان منظراً مدهشاً تماماً، ولم يتجمع قتلى بهذا العدد حتى لم يكن بمقدور المرء المرور في المنطقة دون أن يطأهم. وكانت المنطقة المحيطة بهم مليئة بالدماء، حتى أن بعض الدم وصل إلى ركب الفرسان. وكان صراخ الجرحى مرعباً، وكان من الأمور المدهشة تماماً أن يسمع المرء مثل هذا الصراخ» - ص 299.

وعلى الفور يتعرف المرء المبالغة التقليدية في الملحمة العامية. فصورة الجياد الغائصة حتى الركب في دماء القتلى والجرحى معروفة جيداً،[22] ولكن المؤلف يخفق في تحليل وصف هذا النزاع، بل لا يرى أية علاقة ممكنة بين الآراء (الدينية) المتباينة من جهة ونوع من الصراع الداخلي على السلطة. ومثل هذا الرابط ربما لم يكن موجوداً؛ فالحرب بين الشرقيين والعظام لم تكن بالضرورة ذات دافع ديني. إلا أن أي خلل في التناغم الديني كان في العصر الوسيط، يفضي حتماً إلى اضطرابات اجتماعية سياسية؛ ويمكن للمرء هنا أن يتذكر كيف أن المسيح حذر الفريسيين قائلاً: «... وكل... بيت ينقسم على نفسه لا يثبت».[23] غير أن ماركو بولو يبقى صامتاً؛ فهو لا يتخلى عن رؤيته لإمبراطورية مغولية أحادية جيدة التنظيم. وما إذا كان ذلك نتاج تفكير واع يبقى ملتبساً.

ويترجح ماركو بولو في روايته بين ما تتطلبه التقاليد من جهة وملاحظاته المتضاربة الخاصة من جهة ثانية. وعلى الرغم من أن نظرته كانت ذرائعية لدى الإشارة إلى علم الكون المسيحي القديم، مثلاً، فقد بقي يكتب بأسلوب عدائي تقليدي. فالتباين المذكور في الأسطر الأولى من كتابه لا يسعه إلا أن ينطوي على نوع من المقارنة النفسية بين نظامين اجتماعيين -

سياسيين: بين العالم المسيحي (اللاتيني) الممزق، والإمبراطورية المغولية الممركزة.

وفي أدب الرحلات في العصر الوسيط، يتم إيراد المقارنات دونما تعليق على حال، أو وضع المجتمع الذي يقارن بالعالم المسيحي. والتعليقات على العالم المسيحي (اللاتيني) لا تأتي، مثلاً إلا في سياق البحوث اللاهوتية والخلقية والحقوقية. ولكن الرحالة (الأوروبيين) لم يكونوا قادرين على الاطلاع على وجهات النظر المنبثقة من المجتمعات الأجنبية لجهلهم لغاتها، فضلاً عن وجود افتراض متبجّح يقول بالتفوق الأوربي. فعندما يحاول الراهب برناردينو دي سهاغون، في القرن السادس عشر، قراءة مثل هذه المصادر وترجمتها، إنما يفعل ذلك مستمراً في الانطلاق من وجهة نظر (أوربية).[24] وبالطريقة عينها، فإن الكتابات الوصفية الجغرافية التي تتناول الأرض وكتب الأسفار تميل إلى أن تكون مركزية أوربية وشديدة التأثر بالتقاليد. والشعبية التي يتمتع بها كتاب دراسة أصول الكلمات لإزيدور، تفسر النزعة المتركزة على الذات لدى الرحالة الأوربي. وثمة نقطة أخرى مهمة ألا وهي أن آسيا لم تكن معروفة بالنسبة للأكثرية، إلا عن طريق الكتابات الوصفية والخرائط العالمية. فحتى القرن الثالث عشر لم يكن الأوربيون قد رأوا إلا القليل من آسيا (عدا الشرق الأوسط) على الرغم من انبهارهم المطلق بهذا العالم البعيد.[25]

وبالتالي، فإن آسيا (مثلها مثل مناطق أخرى غير معروفة) لم تحظ بأي وجود واقعي: فالتجربة العملية غالباً ما كانت تخسر المعركة أمام الموروث المحاط بقدر هائل من التقديس. ومع ذلك، فإن بيترارتش (1304 - 1374 م) أصر على اعتبار كتابي **غرافيا آوريا وميرابيليا روميه** وثيقتين جديرتين بالتعويل عليهما، وإن اضطر للاعتراف بأنه لم يكن يعرف شيئاً عن الصينيين أو الهنود.[26] أما جيوفاني كَفَالّيني فقد حقق تقدماً ملحوظاً. ففي كتابه بوليستوريا (كُتِب بين عامي 1343 و 1352 م) اعتمد مصادر أدبية مبكرة

لِتَعرُّفِ الآثار القديمة.[27] ومهما يكن، فإن عملية التطور العلمي ليست عملية خطية: فرسام الخرائط البندقاني الشهير الراهب ماورو (توفي في عام 1460 م) ظل يفضل مرجعية أُغسطين على النزعة التجريبية الحديثة التي عدّها شديدة الخطورة على النظام الطبيعي.[28] أما في القرن السادس عشر، فإن رسامي خرائط مثل ميركاتور وأورتيليوس اتبعوا مساراً أكثر اتصافاً بالصفة العلمية، إذ لم يلوذوا بالمعارف التقليدية إلا عند عدم توافر المعلومات التجريبية.[29]

وقصة ماركو بولو تتجاهل، مثلاً، جملة الأحكام المسبقة التقليدية المألوفة التي تميز روايات المبشرين المعاصرين الذين ذهبوا إلى آسيا. وكراهية البلانوكاربيني للمغول الذين اعتبرهم قتلة ولصوصاً وغارقين في الزنا وميالين إلى الشر الخ... مثال جيد.[30] وثمة تصور مماثل يطبع روايتي كل من مطران خانباليق (بكين) الأول، جون المونتكورفينو (توفي في عام 1328 م) وأُدرِك البوردينوني الساذج (توفي في عام 1331 م).[31] أما عداء ماركو بولو فمحصور، على النقيض من ذلك، بالإسلام، وهو أمر لا يدعو بحد ذاته إلى الاستغراب.

ختاماً أقول إن قصة ماركو بولو، وهي قصة غريبة بنظر معاصريه، مستندة إلى إقامة طويلة في الإمبراطورية المغولية حيث عاش تحت حماية قوبيلاي خان. وهذه الحقيقة، فضلاً عن معرفته للغتين المغولية والفارسية، تفسر الاختلاف بين تقريره هو وتقارير معاصرة أخرى عن المغول. أما الأحجار الكريمة التي استحضرها من ثنايا عباءته القميئة في أثناء الوليمة فبرهان ملموس يؤكد نجاحاته في الشرق الأقصى. فبدلاً من الشكوى والتذمر من نقص الطعام وسوء المعاملة كما في تقرير الروبروكي، كان ماركو بولو، كما توحي روايته، قد قوبل بالترحيب، ولا يكف عن التباهي بالمناصب الإدارية الرفيعة التي شغلها في الإمبراطورية المغولية. غير أن التقليد المغولي ـ الصيني العريق المتطور والمعقد المتمثل بتدريب الموظفين

المدنيين، كان لابد له من أن يجعل مثل تلك الحياة الوظيفية المثيرة أمراً مستحيلاً. ومن ناحية أخرى، فقد دلت الدراسات اللغوية على أن ماركو بولو لم يكن يعرف اللغة الصينية، وذلك يجعلنا نفترض أنه لم يشغل إلا مناصب قليلة الشأن في الإدارة المغولية ـ الصينية. والإمبراطورية المغولية ذات النزعة المركزية الشديدة تقدمها رواية ماركو بولو على أنها وطن يتوافر فيه ثروات أسطورية، على أنها إلدورادو (جنّة نعيم) اجتماعية ـ سياسية. وما من نكسة سياسية أو عسكرية تستطيع أن تختزل شأن النظام المغولي بنظر ماركو بولو.

وهنا بالذات نصل إلى التباين الجوهري بين كلام ماركو بولو عن العالم الشرقي والعديد من الكتابات الوصفية التقليدية العائدة إلى القرن الثالث عشر. وعلى بقاء أي تعليق محدد على كتابه ناقصاً، فإننا نستطيع أن نفترض بأن معلومات عن الجزء الأول من رحلته وعن رحلة العودة لم تكن، لطابعها التقليدي، هي التي أثارت الاعتراض على القصة. فهذه الفصول تتضمن، في الحقيقة، وفرة من المعلومات الواقعية ذات الفائدة الكبيرة ربما بالنسبة للتجار والرحالة،[32] ومن المؤكد أنها لم تكن سبباً في منحه لقب (إل مِليُونِه). فذلك الجزء لم يكن غريباً على الإطلاق. أما السبب الحقيقي لعدم تصديق مواطني ماركو بولو، (وغيرهم) فيجب أن يكون كامناً في زعمه بأنه قد كان أصبح ركناً من أركان النظام المغولي ونزل ضيفاً على الخان الأعظم نفسه، في حين أن جميع القصص السابقة قدمت المغول على أنهم برابرة. فاندماج ماركو بولو بمجتمع يعدّ معادياً للمسيحيين الذين كانوا يرون أنفسهم المرحلة النهائية والكاملة من مراحل تطور الجنس البشري، جعل قصته غير قابلة للتصديق. أما فكرة أن يكون المجتمع المغولي البربري أفضل تنظيماً من نظيره المسيحي، وأنه كان متسامحاً في شؤون الدين، فقد بدت مثيرة للسخرية.

ورواية ماركو بولو لم تنطلق من فكرة التفوق المسيحي، وقلما تأثرت

بالقصص الشرقية التقليدية، بل جاءت على شكل سجل عملي وتجريبي عن رحلة بذاتها، دون تأكيد الآراء التي كانت قد باتت ذات جذور عميقة في نمط التفكير الأوربي (اللاتيني). فقصته لا تقوم على أي برنامج تعليمي وعظي، (كما هي حال رواية البلانو كاربيني) كما لا تتضمن أية تعليقات نقدية. وقد يتعين اعتبارها برهاناً ملموساً يؤكد ملاحظاته. فالبنادقة كانوا تجاراً، وبالتالي فإن نمط تفكير ماركو بولو، إذا جاز لي التشبيه، كان عملياً مثل الخرائط العالمية المصوّرة لنصفي الكرة الأرضية التي يستخدمها البحارة. فهو لم يسع قط، بوضوح، إلى ربط مراحل رحلته وأحداثها بالتفاصيل المكونة للخريطة العالمية كما فعل معاصروه الأكاديميون: ليس ثمة جنة عَدْن تحدد شروط تصوره الإجمالي. أما العجائب القليلة المذكورة في الرواية فيمكن اعتبارها لفتة تضحية كرمى لعين التقاليد. ذلك هو السبب الكامن وراء هذا الاختلاف الشديد لرواية ماركو بولو عن تقاليد القرن الثالث عشر، حيث كانت الكتابات الجغرافية ما تزال مبطنة: فالخريطتان العالميتان لِهِفورد وإبستُرف كانتا تعتبران القدس مركز العالم الكوني، بل محك الكمال (المسيحي). وبالتالي فإن أولئك الذين كانوا يعيشون في أماكن بعيدة عن القدس، أي بعيدين عن الكمال، ما كان في وسعهم إلا أن يكونوا قريبين من الحيوانية.[33] والمغول كانوا يعيشون بعيدين عن القدس وعن المسيحيين المتحضرين.

ومجمل التنظيم الاجتماعي - السياسي للعالم المسيحي في العصور الوسطى كان قائماً على عقيدة الفداء. ومن ذلك المنظور، فإن وجود إمبراطورية مغولية يحكمها وثنيون، كما قال ماركو بولو، كان مستحيلاً. وماركو بولو هذا ربما لم يكن يهدف إلى زعزعة الآراء التقليدية حول الأقوام غير المسيحية، ولكنه، وهو المسيحي المبرأ من أي تحامل على المغول، رحب بالاندماج المؤقت في مجتمعهم، فعبّر عن تقديره إياهم. وذلك لم يكن يحظى بالقبول لدى معاصريه: فالأوربيون لم يألفوا قط عادة التكلم

مع الغرباء، بل كانوا على الدوام يتحدثون عن هؤلاء الغرباء. أما هدفهم فكان متركزاً على إبقاء (التباين، الاختلاف) الوارد ذكره، وعلى احترام النظرة الأخلاقية التقليدية لخلق الرب؛ من المستحيل السماح لغير المسيحيين بأن يحكموا العالم. ولأن ماركو بولو تحدث، بل حتى عاش، مع برابرة كانوا، بنظر علم الكون الوسيط، يعيشون في طرف العالم، فقد أصبح غريباً في مجتمعه هو.

1- See vol. Iii, pp. 29-30 of Giovanni Battista Ramusio, *Navigazioni e viaggi*, ed. Marica Milanesi, 6 vols. (Turin, 1978-88).

2- The genesis of Marco's account is confused and complex. According to the legend, Marco dictated his story to Rustichello who wrote it down in a Franco-Italian dialect. Italo M. Molinari is convinced of this ('Un articolo d'autore cinese su Marco Polo e la Cina', *Annali (Istituto Orientale di Napoli)*. Supplemento, 30, 42, fasc. I (Naples, 1982). A version of this text, probably corrected by a certain Grgoire, was given by Marco himself to Thibault de Cpoy. The oldest Tuscan version must be ascribed to Niccolò degli Ormanni (who died in 1309); the Latin text seems have been written by Francesco Pino around 1320. But there are other important sources of information about Marco's adventures. The first is Pietro Abano's *Conciliator differentium philosophorum et medicorunt* (written before 1310). According to Pietro, Marco himself had provided him with many interesting details. See Michel Mollat, *Les explorateurs du XIIIe au XVIe sicle. Premiers regards sur des mondes nouveaux* (Paris, 1984), pp. 32. Another source is Ramusio mentioned above. In this paper, I mainly use Ruggero M. Ruggieri's edition of Polo's adventure: *Marco Polo. Il Milione. Introduzione, edizione del testo toscano ("Ottimo"), note illustrative, esegetiche, linguistiche, repertori onomastici e lessicali* (Florence, 1986). The Ouimo redaction has less fioriture than the French one, though it is possible that the latter is closer to an original. Ruggieri's rather chaotic introduction is not really relevant. In order to obtain a 'reliable' image of the text, I shall refer from time to time to the translation of Marco's text into modem French by Louis

Hambis, *La Description du Monde. Texte intgral en franais moderne avec introduction et notes* (Paris, 1955). Hambis' scholarly work definitively outranks Ruggieri's.

3- See Jean de Plan Carpin, *Histoire des Mongols*, tr. and annot. By Dom Jean Becquet ; Louis Hambis (Paris, 1965), 130-2.

4- Becquet; Hambis (op. Cit. N. 3), p. 23; Claude René Kappler, *Guillaume de Rubrock. Envoyé de saint Louis. Voyage dans l'Empire Mongol* (1253-1255) (Paris, 1985), 83.

5- See Kappler (op. Cit. N. 4), pp. 158-66; 212-5; Morris Rossabi, *Khubilai Khan, His Life and Times* (Berkely, Los Angeles ; London, 1988), 152.

6- For the layman's view in vernacular literature, see, amongst other texts, J. Bédier (ed. And tr.) La Chanson de Roland publie daprsle manuscrit d'Oxford (Paris, s.d), vv. 2580-90. For the regular attempts to convert Muslims by rational arguments, see Robert I. Burns, *Muslims, Christians and Jews in the Crusader Kingdom of Valencia.* Societies in Symbiosis (Cambridge, 1984), 80-8; 91-4; B. Hamilton, *Religion in Medival West* (London, 1986), 145-50.

7- See Becquet Hambis (op. Cit. N. 3), p. 62; Kappler (op. Cit. N. 4), p. 172.

8 ـ هذا لا يدعو للدهشة حيث يبدو أن الجميع يتصرف وفق هذه المنهجية. فهِرُدوت، على سبيل المثال، لم يكن مهتماً سوى بالتباينات بين مجتمعه والمجتمعات التي زارها أو سمع عنها. أنظر المرجع التالي:

Philip Aris, *Les Temps de l'Histoire* (first edition, 1954; second edition, Paris, 1986), 90.

9- See the auther's 'Le royaume de Prêtre Jean: l'interprótation d'un bonheur', in Actes du Colloque L'ideé de bonheur au moyen Age. Actes du colloque d'Amiens, 1984, ed. Danielle bschninger (Göppingn, 1990), 213-23.

10- See Hambis (op. Cit. N. 2), p. viii.

11- See the auther's 'Viaggiatori olandesi in Italia (1500-1700)', in: *Bulletin van het Nelgisch Historisch Instituut te Rome*, 61 (1991), 37-58.

12 ـ رجال العصور الوسطي لم يكن بإمكانهم ملاحظة الفرق بين السنة والشيعة ـ أنظر المرجع التالي:

Claude Cahen, *Orient et Occident au temps des croisades* (Paris, 1983), 10-20.

13- See Hambis (op. Cit. N. 2) p. 237.

14- See L. Peillard, *Antonio Pigafetta. Relation du premier voyage autour du mond par Magellan* (1519-1522) (Paris, 1984), 138, 159-60.

15 - للإطلاع على مختلف النظريات عن الملكوت الأخير أنظر، ضمن كتب أخرى، المراجع التالية:

Walter Baumgartner, 'Zu den vier Weltreichen von Daniel', *Theologische Zeitschrift*, 1 (1945), 17-22; Werner Goez, *Translation Imperii. Ein Beitrag zu Geschichte des Geschichtsdenkens und der politischen Theorie im Mittelalter und der frühen Neuzeit* (Tübingen, 1958), passim.

16- The text has been edited by Malcolm Letts (ed. And tr.), *Mandeville's Travels, Texts and Translations*, 2 vols., Works issued by Hakluyt Society, Sec. Ser. Ci (London, 1953). See also Christiane deluz, *Le Livre de Jehan de Mandeville. Une 'geographie' au XIVe siécle*, Publication de l'Institut d'Etudes Mdivales (Universit Catholiqie de Louvain). Textes tudes, congrs. Viii (Louvain-la-Neuve, 1988), passim.

ومن الأمور المثيرة للدهشة أن رواية رحلة ماندفي أضحت في القرن السادس عشر محل مناقشة هيئة التفتيش الكنسية. والتباينات التي وصفها ماندفي أشارت، في بعض الأحيان، إلى مواقف دينية «غير راشدة». أنظر المرجع التالي:

Carlo Ginzburg, *The Cheese and the Worms. The Cosmos of a Sixteenth-Century Miller*, tr. Anna Tedeschi (London, 1982), 44-5.

17 - للإطلاع على نسخ (القليلة للغاية) من كتاب ماركو بولو التي تحوي خرائط، أنظر المراجع التالية:

Raleigh A. Skelton, *Explorers' Maps. Chapters in the Cartographic Record of Geographical Discovery* (London ; New York, 1958), 3-9; Anna-Dorothee von den Brincken, 'Mappa Mundi und Chronographia. Studien zur Imago Mundi' des Abendlęndischen Mittelalters', *Deutsches Archiv für Erforschung des Mittelalters namens der Monumenta Germaniae Historica*, 24 (1968), 118-86. For other maps in travel accounts, see Margaret Wade Labarge, *Medieval Travllers. The Rich and Restless* (London, 1982), 12-3.

18- See Ekkehard Weber, *Tabula Peutingeriana. Codex Vindobonensis 324. Vollständige Faksimile-Ausgabe im Original Format*, 2 vols. (Graz, 1976), 13ff.

19- Published in *Initeraria et alia geographica: I: Itinerarium Burdigalnse*, Corpus Christianorum: Series Latina, clxxv (Turnhout, 1965), 12.

20- The Augustinian concept of ordo naturalis explains the crusaders' dislike of Greek and other non-Latin Christians in the Middle East. In 1098 the commanders of the crusading army wrote to Urban II: '... nos enim Turcos et paganos expugnavimus, haereticos autem, Graecos et Armenos, Syros lacobitasque expugnare nequivimus... see: H. Hagenmeyer, *Epistulae et Chartae ad historiam primi belli sacri spectantes. Die Kreuzzugsbriefe aus den Jahen 1088-1100* (first edition, Insbruck 1901; Hildesheim; New York, 1973), 161-5, specially p. 164. See alo J. Tyerman, 'The Holy Land and the Crusades of the Thirteenth and Fourteenth Centuries', in: ed. Peter W. Edbury, *Crusades and Settlement. Papers read at the first Conference of the Society for the Study of the Crusades and the Latin East and presented to R. C. Smail* (Cardiff, 1985), 105-12.

21- Rossabi (op. Cit. N. 5), pp. 129, 185; D. O. Morgan, 'Who ran the Mongol Empire', *Journal of the Royal Asiatic Society*, (1982), 124-36, specially 129-30. See also Wiet Idema; Lloyd Haft, *Chinese Letterkunde. Inleiding, historisch overzicht en bibliografien* (Utrecht; Antwerp, 1985), 55-6, 65-70.

22- Raymond of Aguiler's gives an identical description of the taking of Jerusalem by the crusaders. See eds. J. Hugh Hill ; Laurita L. Hill, Le *'Libre' de Raymond d'Aguilers*, Documents relatifs l'histoire de croisades, 9 (Paris, 1969), 15ff.

23 - أنظر إنجيل متي 12:25 القائل: «... كل مملكة تنقسم تخرَبُ، وكل مدينة أو عائلة تنقسم لا تثبُتُ» - (ف. ج).

24- His text is available in the edition of J. Rose, Fray *Bernadino de Sahagún, Histoire générale des chose de la Novelle-Espagne* (Paris, 1981), tranaslted from Spanish into French by D. Jourdanet and R. Simoné.

25 - من المؤكد أن التجار قاموا بزيارة معظم أنحاء القارة (مثلا أراضي روسيا) لكن لم يكن من الأمور العادية تسجيل تجاربهم في كتب. أنظر المرجع التالي:

Pierre Chaunu, *L'Expansion européenne du XIIIe au XVe sicle* (second edition, Paris, 1983), 90.

للإطلاع على الفتنة التي أثارتها آسيا، أنظر، ضمن أعمال أخرى، الكتاب التالي:

Annie Angrmy, 'La Mappenmonde de Pierre de Beauvais', *Romania*, civ (1983), 316-50 and 457-98.

26- F. Fernandz-Armesto, *Before Columbus. Exploration and Colonisation from the Mediterranean to the Atlantic*, 1229-1492 (London, 1987), 121.

27- See Roberto Weiss, *The Renaissance Discovery of Classical Antiquity* (second edition, Oxford, 1988), 30, 42-3.

28- Tullia Gasparrini Leporace ; Roberto Almagià, Il *Mappomondo di Fra Mauro* (Venice, 1966), olate XXXIII, p. 56.

29- See Numa Broc, *La géographie de la Renaissance, des Comit Travaux* historiques et scientifiques, 1 (Paris, 1986), 159-85.

30- Becquet; Hambis (op. Cit. N. 3), pp. 39-40. Plano de Carpini travelled in 1245-6.

31- See J.-P. Roux, *Les explorateurs au Moyen Age*, Le temps qui court, 25 (Paris, 1961), 74-84; *J. Favier, Les grandes découverts. D'Alexandreé à Magellan* (Paris, 1991), 174-8.

32- See Norbert Ohler, *Reisen im Mittelalter* (Munich, 1986), 322.

33- See Jörg G. Arentzen, *Imago Mundi cartographica. Studien zur Bildlichkeit mittelalterlichen Welt- und Oekumenekarten unter besonderer Berücksichtigung des Zusammenwirkens von Text, Bild*, Münsterische Mittelalter-Schriften, 53 (Munich, 1984), *passim.*

ثبت المراجع

Anderson, Aeneas. *A Narrative of the British Embassy to China*, London, 1795.

Ayers, John. *'Blanc de Chine', Transactions of the Oriental Ceramic Society*, 51, London, 1986 - 7.

Barrow, Sir John. *Travels in China*, London, 1804.

Beazley, C. R. (ed.). *The Text and Versions of John de Plano Carbine and William de Rubruquis*, London, 1903.

Beeching, Jack (ed.). *Richard Hakluyt; Voyages and Discoveries*, Harmondsworth, 1983.

Benedetto, Luigi Foscolo. *Il Milione*, Florence, 1928.

Boswell, James. *The Life of Johnson*, London, 1933.

Boyle, J. A. G. 'Rashid al - Din and the Franks', in J. A. G. Boyle, *The Mongol World Empire*, London, 1977.

—— ; *The Successors of Genghis Kahn*, New York, 1971.

British Library, *Additional MS 12475.*

Bruce, Clarence Dalrymple. *In the Footsteps of Marco Polo*, London, 1907.

Calvino, Italo. *Invisible Cities*, London 1974.

Capuzzo, M. G. *'La Lingua del Divisament deu Monde di Marco Polo*, 1, *Morfologia Verbale', Biblioteca degli Studii Mediolatini e Volgari (new series), v, Pisa, 1980.*

Chang Kwang - *chih. Food in Chinese Culture*, New Haven, 1977.

Charpentier, Jarl (ed.). *The Livro de Seita dos Indios Orientais of Father Jacobo Fenicio*, Uppsala, 1933.

Chen Yuan. *Western and Central Asians in China Under the Mongols*, Los Angeles, 1966.

Cleaves, Frances Woodman. 'A Chinese source bearing upon Marco Polo's departure from China and a Persian source on his arrival in

Persia', *Harvard Journal of Asiatic Studies*, 36, Cambridge, Mass., 1976.

Coates, Austin. *China Races*, Hong Kong, 1994.

Couling, Samuel. *Encyclopaedia Sinica* (Shanghai, 1917), Hong Kong, 1983.

Critchley, John. *Marco Polo's Book*, Aldershot, 1992.

Dabbs, Jack A. *History of the Discovery and Exploration of Chinese Turkestan*, Central Asiatic Studies VIII, Hague, 1963.

Dalrymple, William. *In Xanadu; a quest, London, 1990.*

Desroches , J. P. *Visiteurs de l'Empire Celeste*, Paris, 1994.

Ebrey, P. B. *The Inner Quarters; marriage and the lives of Chinese women in the Sung period*, Berkeley, 1993.

Evans, Arthur R. *'Leonardo Olschki 1885 - 1961', Romance Philosophy*, xxxi/i, Stanford, 1977.

Fan, Tsen - chung. 'Dr Johnson and Chinese culture' in Nine Dragon Screen, London, 1965.

Fernandez - Armesto, F. *Columbus*, Oxford, 1991.

Fitzgerald, C. P. *Barbarian Beds; the origin of the chair in China*, London, 1965.

Franke, Herbert. 'Could the Mongol Emperors read and write Chinese?' (Asia Major, new series, 3, 1, London, 1932) in Herbert Franke, *China Under Mongol Rule*, Aldershot, 1994.

——; 'Europa in der Ostasiatischen Geschichtschreibung des 13 und 14 jahrhunderts', *Saeculum*, 11, Freiburg in the Breslau, 1951.

—— ; 'Sino-Western relations under the Mongol Empire' *(Journal of the Royal Asiatic Society Hong Kong Branch*, 6, Hong Kong, 1966) in Herbert Franke, *China Under Mongol Rule*, Aldershot, 1994.

——; 'Some Sinological remarks on Rashid al-Din's History of China' (Oriens, 4/ 1, Leiden, 1951) in Herbert Franke, *China Under Mongol Rule*, Aldershot, 1994.

Freeman-Mitford, A. B. *The Attaché at Peking*, London, 1900.

Gallo, R. 'Marco Polo, la sua famiglia ed il suo libro', Nel VII *centario della nascitti di Marco Polo*, Venice, 1955.

Gernet, Jacques. *Daily Life in China on the Eve of the Mongol Conquest*, Stanford, 1970

Gil, Juan. *El libro de Marco Polo anotado por Cristobal Colon*, Madrid, 1987.

Gittings, John. *A Chinese view of China*, London, 1973.

Goodall, John. *Heaven and Earth; 120 album leaves from a Ming encyclopaedia*, London, 1979.

Grand Larousse Encyclopdique, Paris, 1964.

Haeger, John. *'Marco Polo in China? Problems with internal evidence'*, Bulletin of Sung-Yuan Studies, 14, New York, 1979.

Heers, Jacques. *Marco Polo*, Paris, 1982.

Hopkirk, Peter. *Foreign Devils on the Silk Road*, London, 1980.

Hughes, Robert. *Barcelona*, London, 1992.

D'Israeli, Isaac. *Amenities of Literature*, London, 1842.

Iwamura, Shinobu, *Manuscripts and Printed Editions of Marco Polo's Travels*, Tokyo, 1949.

Jackson, Peter. *The Mission of William of Rubruck*, London, 1990.

Jim Buhong. *In the Footsteps of Marco Polo*, Peking, 1989.

Jones, Mark (ed.). *Fake? The Art of Deception*, London, 1990.

Keay, J. *The Honourable Company*, London, 1993.

Kerr, *Rose and Penelope Hughes-Stanton*. Kiln Sites of Ancient China, London, 1980.

Kong, Demao. *The Mansion of Confucius*, London, 1989.

Lach, Donald. *Asia in the Making of Europe*, Chicago, 1965.

Latham, Ronald. *Marco Polo; The Travels*, Harmondsworth, 1958.

Lewis, Bernard. *The Muslim Discovery of Europe*, London 1994.

Liddell, *Caroline and Robin Weir*. *Ices*. London, 1993.

Lieu, S. N. C. *Manichaeism in the Later Roman Empire and Medieval China*, Tübingen, 1992.

Lopez, R. S. *'China Silk in Europe in the Yuan period'*, Journal of the American Oriental Society, 72, New Haven, 1952.

Medley, Margaret. *The Chinese Potter*, Oxford, 1980.

Morgan, David. *The Mongols*, Oxford, 1986.

Moseley, C. W. R. D. (ed.). *The Travels of Sir John Mandeville*, Harmondsworth, 1983.

Moule, A. C. and Paul Pelliot. *Marco Polo; The Travels*, London, 1938.

Murray, Hugh. *The Travels of Marco Polo*, Edinburgh, 1847.

Needham, Joseph (ed.). *Science and Civilisation in China*, Cambridge, 1954.

Olschki, Leonardo. *Guillaume Boucher; a French artist at the court of the Khans*, Baltimore, 1946.

——; (ed.) *Il Milione*, Firenze, 1928.

——; *Marco Polos Asia*, Berkeley, 1960.

——; *'Une question d'onomatologie chinoise'*, Oriens, 3, Leiden, 1950.

Pelliot, Paul. *Notes on Marco Polo*, Paris, 1959-63.

Review of Charignon's re-edition of Pauthier's Le Livre de Marco Polo, in Toung Pao, 25, Leiden, 1927.

Petech, L. *'Les marchands italiens dans l'empire Mongole', journal Asiatique*, Paris, 1962.

Phillips, J. R. S. *The Medieval Expansion of Europe*, Oxford, 1988.

Polo, Marco. *Il libro di Marco Polo detto Milione*, Turin, 1954.

Prestwich, Michael. *Edward I*, London, 1988.

Rachewiltz, Igor de. *Papal Envoys to the Great Khans*, London, 1971.

Reischauer, E. 0. and J. K. Fairbank. *East Asia; the Great Tradition*, Boston, 1960.

Ricci, Aldo (trans.). *The Travels of Marco Polo*, London, 1931.

Roden, Claudia. *The Food of Italy*, London, 1989.

Ross, Sir Edward Denison. *'Marco Polo and his Book'*, London, 1935 *(Annual Italian lecture of the British Academy, 1934)*.

Rossabi, *M. Khubilai Khan*, Berkeley, 1988.

Rouleau, F. 'The Yangchow Latin tombstone as a landmark of medieval Christianity in China', *Harvard Journal of Asiatic Studies*, 17, Cambridge, Mass., 1954

Runiciman, Sir Stephen. *The Medieval Manichee*, Cambridge, 1947.

Sickman, L. and A. Soper. *The Art and Architecture of China*, Harmondsworth, 1971.

Silk and Rayon Users Association (ed.). *The Silk Book*, London, 1951.

Singer, Aburey. *The Lion and the Dragon*, London, 1992.

Southern, R. W. *The Making of the Middle Ages*, London, 1967.

Staunton, Sir George. *An authentic account of the embassy from the King of Great Britain to the Emperor of China*, Dublin, 1798.

Stein, Sir Mark Aurel. *Ruins of Desert Cathay*, (London, 1912) New York, 1987.

Tsien Tsuen-hsuin. 'Paper and Printing', in Joseph Needham (ed.),

Science and Civilisation in China, vol. 5, part 1, Cambridge, 1985.

Twitchett, *D. C. Printing and Publishing in Medieval China*, London, 1983.

Vainker, Shelagh. *Chinese Pottery and Porcelain*, London, 199-1.

Vaughan, R. *The illustrated chronicles of Matthew* Paris, Stroud, 1993

Vissière, I. and J.-L. (eds.). *Lettres difiantes et curieuses de Chine par des missionaires jésuites -1702-1776*, Paris, 1979.

Waldron, Arthur N. *'The problem of the Great Wall'*, Harvard Journal of Asiatic Studies, 43/2, Cambridge, Mass., 1983.

——; *The Great Wall of China*, Cambridge, 1992.

Watson, W. (ed.). *The Genius of China*, London, 1973.

Wittkower, R. *'Marco Polo and the pictorial tradition of the Marvels of the East'* in R. Wittkower, Allegory and the Migration of Symbols, London, 1977.

Yang Zhijiu. 'Make Poluo li hua de yi duan hanwen jicai' in Xu Shixiong, *Make Poluo jieshao yu yanjiu*, Peking, 1983

Yule, Colonel Sir Henry. *Cathay and the Way Thither*, London, 1916.

——; *The Travels of Marco Polo; the complete Yule-Cordier edition*, (London, 1903, 1920), New York, 1993.

الفهارس

أ

ب

ت

ج

ح

خ

ص

ط

ع

غ

ف

ق

ك

ل

م

ن

هـ

و

ي

يصدر عن دار قَدْمُس للنشر والتوزيع

تلفيق اسرءيل التوراتية ـ طمس التاريخ الفلسطيني. تأليف: كيث وايتلام، ترجمة: ممدوح عدوان؛ مراجعة: زياد منى؛ يحوي مقدمة كتبها المؤلف خصيصاً للطبعة العربية (تحت الطبع).

الفتوحات العربية الإسلامية الأولى وبيزنطة. تأليف: وولتر كغي، ترجمة: نيقولا زيادة (تحت الطبع).

ماركو بولو: هل وصل إلى الصين؟ تأليف: فرنسس وود، ترجمة: فاضل جتكر؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

لبنان القديم. تأليف: كارلهاينز برنهردت، ترجمة: ميشيل كيلو؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

النهايات ـ الهوس القيامي الألفي. تأليف: ديتر تسمرلنغ، ترجمة: ميشيل كيلو؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

بحثاً عن إله ووطن ـ بين الاستكشاف وعلم الآثار والصراع الخفي على فلسطين بين عامي (1799 ـ 1917 م). تأليف: نيل أ. سلبرمن، ترجمة: فاضل جتكر؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

شاركتُ في الخديعة. تأليف: سلوى النعيمي (تحت الطبع).

العرب والمسيحية. تأليف: نيقولا زيادة (قريباً).

طب العيون عند العرب: تاريخ وأعلام. تأليف: نشأت الحمارنة (قريباً).

التوراة في التاريخ: كيف يلفق الكُتّاب ماضياً. تأليف: توماس طمسون (قريباً).

الشعر العربي المغنى ـ دراسة تحليلية لموسيقى الشعر. تأليف: المقدم الدكتور إيلي فرانسيس (قريباً).

قديسات وملكات من المشرق السرياني وجزيرة العرب. تأليف: سيبستيان بروك وسوزان هارفي، ترجمة: فريدة بولس؛ مع مقدمة كتبها المطران يوحنا إبراهيم***** (قريباً).

الظاهر بيبرس. تأليف: بيتر ثوراو ـ (قريباً).

خالد وعمر ـ بحث نقدي في المصادر عن التأريخ الإسلامي المبكر. تأليف: كلاوس كلير، ترجمة: محمد جديد (قريباً).

الحرب البحرية والسياسة البحرية بين الإسلام والغرب. تأليف: إ. آيكوف (قريباً).

الحمّام في العصر العربي ـ الإسلامي الوسيط ـ دراسة ثقافية تاريخية. تأليف: هاينز غرتسفلد (قريباً).

هزيمة المسيحية، خطاب «العودة»، واليهود. تأليف: د. أولستر (قريباً).

الطوائف المسيحية في فلسطين من الحكم البيزنطي إلى الفتح الإسلامي ـ دراسة تاريخية وآثارية. تأليف: روبرت شِك (قريباً).

غوته والعالم العربي. تأليف: كاتارينا مُمزِن (قريباً).

المولوخ ـ نظرة نقدية لتاريخ الولايات المتحدة. تأليف: كارلهاينز دِشنَر (قريباً).

البحث عن إسرءيل التوراتية. تأليف: فيليب ديفس (قريباً).

إفريقية واكتشاف أمريكا. تأليف: ليو فينّر. (قريباً).

الفتوحات الإسلامية الأولى. تأليف: فرِد دونّر (قريباً).

حكايات آرامية من معلولا (قريباً).

الغرب والإسلام ـ صورة العرب في الغرب وتشكلها في العصر الوسيط المبكر. تأليف: إكهارت روتر (قريباً).

حكومات المسلمين. تأليف: عزيز العظمة (قريباً).

هامش الإثارة الجنسية ـ قراءة في خطاب الغرب عن الشرق كآخر. تأليف: إرفين كميل شِك (قريباً).

دراسات قَدْمُس: مجموعة كتيبات تحوي ترجمة دراسات وأبحاث نشر أكثرها في دوريات متخصصة، تتعلق بيلادنا وقضايانا التاريخية والمعاصرة، منها التالي ذكرها:

أباطرة وشيوخ رومان من المشرق العربي. تأليف: غلِن بَوَرسوك، ترجمة: فاضل جتكر؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

(أشور) و(سورية) مترادفتان. تأليف: ريتشارد فراي، ترجمة: فاضل جتكر؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

الألفية والمستوطنات الزراعية في الأرض المقدسة في القرن التاسع عشر. تأليف: ر. كارك، ترجمة: فاضل جتكر؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

أورشليم داود: التلفيق والحقيقة. تأليف: مارغريت شتاينر، ترجمة: فاضل جتكر؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

«عودة» اليهود في الفكر البروتستانتي الإنجليزي (1790 - 1840 م). تأليف: ماير فريته، ترجمة: فاضل جتكر؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

فيليب العربي والمسيحية. تأليف: هانز بولزْنْدَر، ترجمة: فاضل جتكر؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

كنعان، فينيقيا، أرجوان. تأليف: ميخائيل أسطور، ترجمة: فاضل جتكر؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

معركة القادسية. تأليف: س. م. يوسف. ترجمة: ميسون الحجيري؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

معركة اليرموك ـ إعادة تركيب. تأليف: ج. جندارا. ترجمة: ميسون الحجيري؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

معركة هليوبوليس. تأليف: ألفرِد بتلَر. ترجمة: ميسون الحجيري؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

تطورات فنون الحرب الإسلامية: الفتوحات الأولى. تأليف: ج. جندارا. ترجمة: ميسون الحجيري؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

حول تاريخية يسوع المسيح. تأليف: زياد منى (تحت الطبع).

حول نقش «بيت دود [داود]». تأليف: كمال الصليبي، ترجمة: زياد منى (تحت الطبع).

دور الجمل والخيل في الفتوحات العربية المبكرة. تأليف: د. ر. هِلّ، ترجمة: ميسون الحجيري؛ مراجعة: زياد منى (تحت الطبع).

جغرافية سفر التكوين 14 في عسير. تأليف: كمال الصليبي، ترجمة: زياد منى (قريباً).
مشكلة (داود وجليات). تأليف: كمال الصليبي، ترجمة زياد منى (قريباً).
الفرار من «أورشليم». تأليف: كمال الصليبي، ترجمة: زياد منى (قريباً).
ملاحظات جغرافية ولغوية على التوراة. تأليف: كمال الصليبي، ترجمة: زياد منى (قريباً).
ليس كل ناعم الملمس حرير - عن الأبيونيين والعبرانيين وتلفيق التاريخ. تأليف: زياد منى (قريباً).
مقاطع متطابقة من العهد القديم والشعر العربي. تأليف: فراي هر فون غال، ترجمة: زياد منى (قريباً).
النبي محمد وهرقل. تأليف: أ. شارف (قريباً).
«بيت داود [دود]» مبني على الرمال. تأليف: فيليب ديفس: ترجمة: زياد منى (قريباً).
بين المنهجية والجنون - عن توظيف التوراة مرجعاً تاريخياً. تأليف: فيليب ديفس: ترجمة: زياد منى (قريباً).
(تَلَق سِلوان) هلنستي. تأليف: فيليب ديفس: ترجمة زياد منى (قريباً).
الإسلام في الكتابات البيزنطية. تأليف: فولفغانغ آيشنّر (قريباً).
الحركات الدينية في شمالي جزيرة العرب قبل الإسلام. أ. شبرنغر (قريباً).
البحث عن الحلقة المفقودة: الآثار والرأي العام في لبنان. هِلغا سِيدِن (قريباً).
موقف العرب من بيزنطة - الرسمي، الشعبي، العلمي. تأليف: أحمد شبول (قريباً).
هل «عبرية» التوراة لغة؟ تأليف: إرنست أكزل كناوف؛ مراجعة: زياد منى (قريباً).

هل وصل ماركو بولو فعلاً إلى الصين؟ أم أنه بقي يراوح مكانه في أقاليم آسيا الوسطى؟

المؤلفة لا تقصر بحثها على مسألة الرحلة فحسب، وإنما تتعامل مع المادة من منظور شمولي... ومن ذلك على سبيل المثال علاقة الرحلة بحروب الاسترداد التي خاضها العرب ضد الصليبيين... ودورهم في نقل بعض جوانب الحياة في الصين إلى أوروبا، وكذلك الدور الذي لعبوه في ذلك البلد القصيّ.

تتعامل المؤلفة مع هذه وغيرها من المسائل بروح منفتحة بعيدة عن التعصب لرأي محدد، وبأسلوب سلس وجميل استطاع المترجم أن يحافظ عليه بأمانة في النص العربي.

